الأعمال الكاملة

انطون تشيكوف

الجزء الأول

القصص القصيرة

أسامة عبد الرحمن

مقدمة

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلومات والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسات الأمة العربية إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسست بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره .

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحدا لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها .

أطلقت المؤسسات برنامج ترجم، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم .

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد

وتأمل المؤسسات في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسات الثقافية المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

أسامة عبد الرحمن

رسالة إلى جاري العالم

جارى العزيز مكسيم

(نسيت كيف تدعون باسم أبيكم فأرجو سماحكم الكريم) اعذروني واغفروا لهذا العجوز القديم ولهذه النفس البشرية الحمقاء إذ أتجرأ وأزعجكم بتمتمتى الكتابية البائسة هذه ها قد مر عام بطوله منذ أن تفضلتم فحللتم بهذا الجزء من العالم الذي نحن فيه، ونزلتم إلى جوارى، أنا الإنسان الضئيل، ومع ذلك ما زلت لا أعرفكم وأنتم لا تعرفونني أنا الجرادة البائسة فلتسمحوا لي أيها الجار النفيس، ولو عن طريق هذه الهيروغليفات العجوز، أن أتعرف بكم، وأن أشد في الفكر على يدكم العالمة وأهنئكم بالقدوم من سانت بطرسبرج إلى قارتنا غير الجديرة، المسكونة بالموجيك والناس الفلاحين، أي بعنصر العامة ومن زمان وأنا أبحث عن مناسبة للتعرف بكم، وكنت متعطشا إلى ذلك، لأن العلم الذي هو إلى درجة ما أمنا الحبيبة، هو والحضارة شيء واحد، ولأني أحترم من صميم القلب أولئك الأشخاص الذين تدوى أسماؤهم الشهيرة وألقابهم المتوجة بهالة المجد الذائع وبأكاليل الغار والصنوج والأوسمة والأشرطة والشهادات في جميع أنحاء هذا العالم الكوني الظاهر والخافي أي ما هو تحت القمر إنني أحب حبا لاهبا الفلكيين، والشعراء، والميتافيزيقيين، ، والكيميائيين

وغيرهم من سدنة العلم الذين تنسبون أنفسكم إليهم من خلال حقائقكم الذكية وحقول علومكم، أي المنتجات والثمار ويقال إنكم طبعتم كتباً كثيرة خلال جلوسكم الذهني مع الأنابيب ومقاييس الحرارة وكومة من الكتب الأجنبية ذات الرسوم المغرية ومنذ قريب جاء إلى أملاكي الحقيرة، إلى أطلالى وخرائبى، مكسيموس بونتيفكس المحلي، الأب جيراسيم، وأخذ بتعصبه المعهود يسب ويلعن أفكاركم وتفكيركم بخصوص أصل الإنسان وغيره من ظواهر العالم الظاهر، وهاج وثار ضد مجالكم الذهني وأفقكم الفكري المغطى بالكواكب المنيرة والشهائب وأنا لا أوافق الأب جيراسيم بخصوص أفكاركم الفكرية ،لأنني لا أعيش ولا أتغذى إلا بالعلم الذي وهبته العناية الإلهية لجنس بنى الإنسان لاستخراج الفلزات الثمينة واللافلزات والجواهر من باطن العالم الظاهر والحافي، ومع ذلك فلتعذرونى، يا أبتاه ، أنا الحشرة التي لا تكاد تبين، إذا ما تجاسرت فدحضت بأسلوب العجائز بعض أفكاركم بخصوص طبيعة الطبيعة لقد أخبرني الأب جيراسيم بأنكم فيما يبدو ألفتم مؤلفاً فتفضلتم بأن عرضتم فيه أفكاراً غير جوهرية بالمرة بخصوص البشر ونشأتهم الأولى وكينونتهم قبل الطوفان وتفضلتم فألفتم بأن الإنسان هو من نسل قبائل القرود والنسانيس والأورانجوتان وما شابه سامحوني أنا العجوز، فإنني لست متفقاً معكم بخصوص هذه النقطة المهمة وبوسعي أن أضع أمامكم عقدة

فلو أن الإنسان، سيد العالم.أذكى المخلوقات المتنفسة، جاء في الأصل من قرد غبى جاهل، لكان لديه ذيل وصوت متوحش ولو أننا جئنا في الأصل من القردة، لكان الغجر يسوقوننا الآن في المدن للفرجة، ولدفعنا نقودا مقابل الفرجة على بعضنا البعض ونحن نرقص بأمر الغجري أو نجلس خلف القضبان في حديقة الحيوانات وهل يغطى الشعر أجسامنا كلها؟ ألا نرتدي الثياب، التي ليست لدى القرود؟ وهل كنا نحب المرأة ولا نحتقرها لو فاحت منها ولو قليلا رائحة القردة التي نراها كل ثلاثاء لدى رئيس النبلاء؟ ولو أن أسلافنا كانوا من نسل القرود لما دفنوا في المقابر المسيحية إن والد جدى أمفروسى، مثلا، الذي عاش في زمنه في المملكة البولندية ، قد دفن لا كقرد، بل إلى جوار العباد الكاثوليكي يواقيم شوستاك الذي يحتفظ أخي إيفان (الرائد) حتى الآن مذكراته عن المناخ المعتدل والتناول غير المعتدل للمشروبات الكحولية والعباد تعني القس الكاثوليكى

فلتعذروني أنا الجاهل للتدخل في شؤونكم العلمية وحديثى بطريقتى، بأسلوب العجائز، وفرضى عليكم أفكاري المشوهة والفظة، التي تكون لدى العلماء والقوم المتحضرين في مكان أقرب إلى البطن منه إلى الرأس ولكني لا أقوى على الصمت ولا على الصبر عندما يفكر العلماء تفكيرا خاطئا في عقولهم ولا يمكنني إلا أن أعارضكم لقد أخبرني الأب جيراسيم أنكم تفكرون تفكيرا خاطئاً بخصوص القمر، أي الهلال، الذي يعوضنا عن الشمس في ساعات الظلام والعتمة، حين يكون الناس نياماً

بينما أنتم تنقلون الكهرباء من مكان إلى آخر وتعملون الخيال لا تضحكوا مني، أنا العجوز، لأني أكتب بهذه الصورة الغبية إنكم تكتبون أن القمر، أي الهلال، يعيش ويقطن فيه بشر وقبائل وهذا لا يمكن أن يكون أبدا، لأنه لو كان الناس يعيشون على القمر لحجبوا عنا نوره الساحر والفاتن بمنازلهم ومراعيهم الكثيفة وبدون المطر لا يستطيع الناس أن يحيوان والمطر يسقط إلى أسفل على الأرض وليس إلى أعلى، على القمر ولو عاش الناس على القمر لسقطوا إلى أسفل على الأرض، ولكن ذلك لا يحدث، ولانهالت القاذروات والمخلفات من القمر المسكون على يا بستنا وهل يمكن للبشر أن يعيشوا على القمر إذا كان لا يوجد إلا ليلا، وفي النهار يختفي؟ كما أن الحكومات لن تسمح بالعيش على القمر لأنه بسبب بعد المسافة وعدم إمكانية بلوغه، يمكن الاختفاء فيه من المساءلة بكل سهولة إنكم أخطأتم قليلا لقد ألفتم ونشرتم في مؤلفكم الذكى، كما قال لي الأب جيراسيم، كما لو أنه توجد على أعظم الكواكب المنيرة ، الشمس، بقع سوداء وهذا لا يمكن أن يكون لأن هذا لا يمكن أن يكون أبدا كيف أمكنكم أن تروا على الشمس بقعاً إذا كان من غير الممكن النظر إلى الشمس بالعيون البشرية العادية،وما الداعي لأن تكون عليها بقع إذا كان من الممكن الاستغناء عنها؟ ومن أي جسم رطب صنعت هذه البقع ذاتها إذا كانت لا تحترق؟ وربما، حسب رأيكم، تعيش الأسماك أيضا على الشمس؟

اعذروني أنا المخدر المسموم على هذه المزحة الغبية ! فأنا جد مخلص للعلم ! والروبل، شعار القرن التاسع عشر هذا، ليس له عندي أي ثمن، فقد حجبه العلم عن عيني بأجنحته اللاحقة كل اكتشاف يعذبني كأنه مسمار في ظهري ورغم أنني جاهل ومالك أطيان دقة قديمة، فإنني، أنا المستهتر العجوز، أشتغل بالعلم والاكتشافات التي أصنعها بيدى، وأملأ رأسي الأخرق، جمجمتي المتوحشة ، بالأفكار وبطاقم من أعظم المعارف وأمنا الطبيعة هي كتاب ينبغي أن نقرأه ونراه وقد أنجزت بعقلى الخاص الكثير من الاكتشافات التي لم يخترعها أي مصلح حتى الآن وأقولها بلا مباهاة، إنني لست من الأواخر فيما يخص التعليم الذي حصلت عليه بالأصابع المشققة من الكد وليس بثروة الوالدين، أي الأم والأب، أو الوصاة الذين كثيرا ما يقضون على أبنائهم بالثروة والرفاهية والمساكن من ستة طوابق بالجوارى والأجراس الكهربائية وهاكم ما اكتشفه عقلى البخسلقد اكتشفت أن شمسنا العظيمة النارية المشعة والمشعثة تضيء بلوحة من شتى الألوان الملونة في الصباح الباكر من يوم الفصح المقدس، وتترك بوميضها المدهش انطباعا لعوباً واكتشاف آخر

لماذا يكون النهار في الشتاء قصيرا والليل طويلاً، والعكس صيفاً؟ اليوم في الشتاء قصير لأنه مثل باقي المواد الظاهرة والخفية ، ينكمش بالبرودة ، ولأن الشمس تغرب مبكراً، والليل بفعل أزير اليراعات المضيئة والمصابيح يتمدد لأنه يدفأ ثم اكتشفت أيضاً أن الكلاب في الربيع تأكل العشب مثل الغنم

وأن القهوة مضرة لأصحاب المزاج الدموي لأنها تحدث في الرأس دوارا وفي العينين لونا عكراً وما شابه ذلك وخلافه لقد أنجزت اكتشافات كثيرة غير هذه، رغم أني لا أحمل شهادات أو تقديرات تعالوا زورونى يا جاري العزيز، أستحلفكم بالله وسنكتشف معاً شيئا ما، ونشتغل بالأدب فتعلمونني أنا الوضيع مختلف الحسابات لقد قرأت من وقت قريب عند أحد العلماء الفرنسيين أن بوز الأسد لا يشبه أبدا الوجه البشرى كما يظن العلماء وعن هذا أيضاً سنتحدث، تعالوا لو تكرمتم تعالوا ولو غداً مثلاً إننا الآن نتناول طعام الصيام ولكن سنعد لكم طعام الإفطار وقد طلبت ابنتى نتاشنكا منكم أن تجلبوا معكم كتبا ذكية ما إنها عندى متحررة، والجميع في نظرها أغبياء وهي وحدها الذكية، الشباب، ودعني أقل لكم، يفصح عن نفسه، وفقهم الله ! بعد أسبوع سيأتي إلى أخي إيفان (الرائد)، وهو شخص طيب ، ولكن فيما بيننا أقول إنه بوربون اى جاهل(ولا يحب العلوم هذه الرسالة سيحملها لكم حامل مفاتيحى تروفيم في تمام الساعة الثامنة مساء فإذا جاء بها متأخرا فلتصفعوه على خديه على طريقة الأساتذة، فلا داعي للكلفة مع هذه القبيلة فإذا جاء بها متأخرا فمعناها أنه عرج على الحانة ، هذا الملعون إن عادة زيارة الجيران لم نبتدعها نحن، ولسنا نحن من سينهيها، ولذا تعالوا من كل بد بالاتكم وكتبكمكان بودي أن آتي إليكم لكنني خجول للغاية وتعوزنى الجرأة فلتعذروني أنا المستهتر على الإزعاج .أبقى على احترامي لكم صف ضابط متقاعد بقوات الدون من النبلاء، جاركم فاسيلى سيمى - بولاتوف .

فرحة

كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً

اندفع ميتيا كولداروف إلى شقة والديه منفعلاً منفوش الشعر، ومضى يروح ويجيء بسرعة في جميع الغرف وكان الوالدان قد أويا إلى الفراش ورقدت أخته في سريرها تقرأ آخر صفحة في الرواية أما إخوته التلاميذ فكانوا نائمين وقال والداه بدهشة - : من أين جئت؟ ماذا بك؟ .

-أوه، لا تسألا! لم أتوقع أبدا ذلك! كلا، لم أتوقعه أبدا! إنه إنه غير معقول!-

وقهقه مينيا، وجلس في الفوتيل وهو لا يقوى على الوقوف من فرط السعادة هذا غير معقول! لا يمكن أن تتصوروا! انظروا! قفزت أخته من الفراش، وأسدلت على كتفيها البطانية واقتربت من أخيها واستيقظ التلاميذ .

-ماذا بك؟ إنك شاحب جدا! هذا من الفرحة يا ماما! فالآن أصبحت روسيا كلها تعرفني !كلها! من قبل لم يكن أحد غيركم يعرف أنه يوجد في الدنيا المسجل الاعتبارى ديمترى كولاروف، أما الآن فروسيا كلها تعرف ذلك ! ماما! يا إلهى !.

قفز ميتيا، وجرى في غرف البيت ثم عاد إلى مجلسه ولكن ماذا حدث؟ هل أوضحت لنا !.

-إنكم تعيشون كالوحوش البرية، لا تقرأون الصحف، ولا تهتمون أبدا بما ينشر، بينما في الجرائد أشياء رائعة ! فإذا حدث شيء يصبح معروفا على الفور، ولا يخفى أبدا !كم أنا سعيد !يا إلهى! الجرائد لا تكتب إلا عن مشاهير الناس فقط، وإذا بهم فجأة يكتبون عني !.

-ماذا تقول! أين؟ .

امتقع الأب ونظرت الأم إلى الأيقونة ورسمت علامة الصليب وقفز التلاميذ في قمصان النوم القصيرة فقط واقتربوا من أخيهم الأكبر .

-نعم !كتبوا عني! الأن تعرفنى روسيا كلها! خبئى يا ماما هذا العدد واحتفظي به للذكرى! سوف نقرؤه أحيانا انظروا !.

وأخرج مينيا من جيبه عددا من جريدة وأعطاه لأبيه وهو يدس إصبعه في موضع محاط بخط قلم أزرق .

اقرأ؟ وارتدى الوالد النظارة هيا اقرأ؟ .

ونظرت الأم إلى الأيقونة ورسمت علامة الصليب وتنحنح الأب وشرع يقرأ :

في ٢٩ ديسمبر، في الساعة الحادية عشرة مساء كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف مسجل الاعتبارى رتبة من أدنى الرتب المدنية في روسيا القيصرية .

-هل رأيتم؟ هل رأيتم أكمل؟ كان المسجل الاعتبارى ديمترى كولداروف خارجا من الحانة الواقعة في شارع مالايا برونايا، في منزل كوزيخين، وهو في حالة سكر .

-شربت مع سيميون بتروفتش وصفوا حتى أدق التفاصيل! أكمل !.

بعده ! اسمعوا !.

وهو في حالة سكر فزلت قدمه وسقط تحت حصان حوذى كان واقفا هنا، ويدعى إيفان دروتوف من قرية درويكينا بناحية يوخنوف وذعر الحصان فخطا من فوق كولداروف وسحب من فوقه الزحافة التي كان جالسا فيها ستيبان لوكوف التاجر من الدرجة الثانية بموسكو، وانطلق عبر الشارع وتمكن البوابون من الإمساك به ونقل كولاروف الذي كان فاقد الوعي إلى قسم الشرطة حيث أجرى له كشف طبي ، واتضح أن الضربة التي تلقاها في مؤخرة رأسه .

-إنها من اصطدامى بذراع الزحافة يا بابا أكمل، اقرأ بعد ذلك ! .

التي تلقاها في مؤخرة رأسه تعتبر من الضربات الخفيفة وقد تم تحرير محضر بالواقعه وأجرى للمصاب إسعاف أولي نصحوني بأن أبلل مؤخرة رأسي بالماء البارد .

حسنا، هل رأيتم؟ هه ؟ هكذا! الخبر الآن ينتشر في روسيا كلها ! هات لجريدة !

وخطف ميتيا الجريدة وطواها، ودسها في جيبه .

-سأسرع إلى آل هكاروف لأريها لهم ينبغي أن أريها أيضا لآل إيفانيتسكى، ولنتاليا إيفانوفنا، ولأنسيم فاسيليتش! أنا ذاهب !وداعا !.

وارتدي ميتيا العمرة ذات الشريط المعقود وانطلق إلى الشارع منتشياً فرحاً.

وفاة موظف

ذات مساء رائع كان إيفان ديمتريفيتش تشرفياكوف، الموظف الذي لا يقل روعة، جالسا في الصف الثاني من مقاعد الصالة، يتطلع في المنظار إلى أجراس كورنيفيل وأخذ يتطلع وهو يشعر بنفسه في قمة المتعة وفجأة وكثيرا ما تقابلنا وفجأة هذه في القصص والكتاب على حق، فما أحفل الحياة بالمفاجآت ! وفجأة تقلص وجهه، وزاغ بصره، واحتبست أنفاسه حول عينيه عن المنظار وانحنى و أتش !!!عطس كما ترون والعطس ليس محظورا على أحد في أي مكان إذ يعطس الفلاحون، ورجال الشرطة، بل وحتى أحيانا المستشارون السريون الجميع يعطس ولم يشعر تشرفياكوف بأي حرج، ومسح أنفه بمنديله، وكشخص مهذب نظر حوله ليرى ما إذا كان قد أزعج أحدا بعطسه وعلى الفور أحس بالحرج فقد رأى العجوز الجالس أمامه في الصف الأول يمسح صلعته ورقبته بقفازة بعناية ويدمدم بشيء ما وعرف تشرفياكوف في شخص العجوز الجنرال بريز جالوف الذي يعمل في مصلحة السكك الحديدية .

وقال تشرفياكوف لنفسه: لقد بللته إنه ليس رئيسي، بل غريب، ومع ذلك فشيء محرج ينبغي أن أعتذر وتنحنح تشرفياكوف ومال بجسده إلى الأمام وهمس في أذن الجنرال

-عفوا يا صاحب السعادة، لقد بللتكم لم أقصد لا شيء، لا شيء استحلفكم بالله العفو إنني لم أكن أريد !.

-أوه، اسكت من فضلك؟ دعني أستمع! وأحرج تشرفياكوف فابتسم ببلاهة، وراح ينظر إلى المسرح كان ينظر ولكنه لم يعد يحس بالمتعة لقد بدأ القلق يعذبه وأثناء الاستراحة اقترب من بريز جالوف وتمشى قليلا بجواره، وبعد أن تغلب على وجله دمدم :

-لقد بللتكم يا صاحب السعادة اعذروني إني لم أكن أقصد أن .

فقال الجنرال - : أوه كفاك أنا قد نسيت وأنت مازلت تتحدث عن نفس الأمر؟ وحرك شفته السفلى بنفاذ صبر .

وقال تشرفياكوف لنفسه وهو يتطلع إلى الجنرال بشك : يقول نسيت بينما الخبث يطل من عينيه ولا يريد أن يتحدث ينبغي أن أوضح له أنني لم أكن أرغب على الإطلاق وأن هذا قانون الطبيعة، وإلا ظن أنني أردت أن أبصق عليه فإذا لم يظن الآن فسيظن فيما بعد!.

وعندما عاد تشرفياكوف إلى المنزل روى لزوجته ما بدر عنه من سوء تصرف وخيل إليه أن زوجته نظرت إلى الأمر باستخفاف، فقد جزعت فقط، ولكنها اطمأنت عندما علمت أن بريز جالوف ليس رئيسه .

وقالت : ومع ذلك اذهب إليه واعتذر وإلا ظن أنك لا تعرف كيف تتصرف

في المجتمعات !.

تلك هي المسألة ! لقد اعتذرت له، ولكنه كان غريبا لم يقل كلمة مفهومة واحدة ثم إنه لم يكن هناك متسع لحديث .

وفي اليوم التالي ارتدى تشرفياكوف حلة جديدة، وقص شعره، وذهب إلى بريزجالوف لتوضيح الأمر وعندما دخل غرفة استقبال الجنرال رأي هناك كثيرا من الزوار ورأي بينهم الجنرال نفسه الذي بدأ يستقبل الزوار وبعد أن سأل عدة أشخاص رفع عينيه إلى تشرفياكوف فراح الموظف يشرح له :

-بالأمس في أركاديا لو تذكرون يا صاحب السعادة عطست و بللتكم عن غير قصد اعتذر .

-يا للتفاهات الله يعلم ما هذا ! - وتوجه الجنرال إلى الزائر التالي .

ماذا تريدون؟ وفكر تشرفياكوف ووجهه يشحب: لا يريد أن يتحدث إذن فهو غاضب كلا، لا يمكن أن أدع الأمر هكذا سوف أشرح له .

وبعد أن أنهى الجنرال حديثه مع آخر زائر واتجه إلى الغرفة الداخلية خطا تشرفياكوف خلفه ودمدم

-يا صاحب السعادة! إذا كنت أتجاسر على إزعاج سعادتكم فإنما من واقع الإحساس بالندم ! لم أكن أقصد كما تعلمون سعادتكم !.

فقال الجنرال وهو يختفي خلف الباب - : إنك تسخر يا سيدى الكريم !.

وفكر تشرفياكوف: أية سخرية يمكن أن تكون؟ ليس هنا أية سخرية على الإطلاق! جنرال ومع ذلك لا يستطيع أن يفهم! إذا كان الأمر كذلك فلن أعتذر بعد لهذا المتغطرس ليذهب إلى الشيطان! سأكتب له رسالة ، ولكن لن آتي إليه أقسم لن آتى !.

هكذا فكر تشرفياكوف وهو عائد إلى المنزل ولكنه لم يكتب للجنرال رسالة فقد فكر وفكر ولم يستطع أن يدبج الرسالة واضطر في اليوم التالي إلى الذهاب بنفسه لشرح الأمر .

ودمدم عندما رفع إليه الجنرال عينين متسائلتين :

ـ جئت بالأمس فأزعجتكم يا صاحب السعادة، لا لكي أسخر منكم كما تفضلتم سعادتكم فقلتم بل كنت أعتذر لأني عطست فبللتكم ولكنه لم يدر بخاطرى أبدا أن أسخر وهل أجسر على السخرية؟ فلو رحنا نسخر ، فلن يكون هناك احترام للشخصيات إذن وفجأة زأر الجنرال وقد اربد وارتعد : اخرج من هنا !!فسأل تشرفياكوف هامسا وهو يذوب رعباً ماذا؟ .

فردد الجنرال ودق بقدمه : اخرج من هنا !!.

وتمزق ما في بطن تشرفياكوف وتراجع إلى الباب وهو لا يرى ولا يسمع شيئا، وخرج إلى الشارع وهو يجرجر ساقيه وعندما وصل اليا إلى المنزل استلقي على الكنبه دون أن يخلع حلته ومات .

البدين والنحيف

في محطة سكة حديد نيقولاي التقى صاحبان :أحدهما بدين والآخر نحيف كان البدين قد تغدى لتوه في المحطة ولمعت شفتاه من الدهن كما تلمع ثمار الكرز الناضجة وفاحت منه رائحة النبيذ والحلويات المعطرة أما النحيل فكان خارجا لتوه من عربة القطار محملا بالحقائب والصرر وعلب الكرتون وفاحت منه رائحة لحم الخنزير والقهوة الرخيصة ولاحت ، من وراء ظهره امرأة نحيفة طويلة الذقن زوجته، وتلميذ طويل بعين مزدورة ابنه .

وهتف البدين عندما رأى النحيف : - بورفيرى! أهو أنت؟ يا عزيزى !كم مر من أعوام لم أرك ! ودهش النحيف - :يا سلام! ميشا !يا صديق الطفولة! من أين جئت؟ .

وتبادل الصاحبان القبلات ثلاثا، وحدق كل منهما في الآخر بعينين مغرورقتين بالدموع وكانا كلاهما في حالة من الذهول اللذيذ .

وقال النحيف بعد القبلات :

يا عزيزى! لم أتوقع أبدا ! يالها من مفاجأة ! هلا نظرت إلى جيدا ! جميل كما كنت !حبوب وغندور كما كنت ! آه يا إلهى! كيف أحوالك؟ أصبحت غنيا؟ تزوجت؟ أنا تزوجت كما ترى وهذه زوجتي،لويزا من عائلة ، فانسنباخ بروتستانتية أما هذا فابنى، نفانائيل، تلميذ بالصف الثالث يا نفانيا

هذا صديق طفولتى! درسنا معاً في المدرسة .

وفكر نفانائيل قليلا ثم نزع قبعته ومضى النحيف يقول :

-درسنا معافي المدرسة! أتذكر كيف كانوا يغيظونك؟ بلقب هيروستراتوس لأنك أحرقت بالسيجارة كتاب عهدة، وكانوا يغيظوننى بلقب أفيالتوس لأنني كنت أحب النميمة ها ها كم كنا صغارا! لا تخف بانفانيا اقترب منه وهذه زوجتي، من عائلة فانسباخ بروتستانتية وفكر نفانائيل قليلا، ثم اختبأ خلف ظهر أبيه وسأل البدين وهو ينظر بإعجاب إلى صديقه - : كيف حالك يا صديقي؟ أين تخدم؟ وماذا بلغت في الخدمة؟ .

-أخدم يا عزيزى! بلغت محكم هيئة منذ سنة وأحمل وسام ستانسلاف الراتب سيىء فليكن! زوجتي تعطي دروسا في الموسيقى، وأنا أصنع علب سجائر من الخشب علب ممتازة! أبيعها الواحدة بروبل ومن يشتري عشر علب أو أكثر أقدم له خصما ندبر أمورنا كيفما كان أتدرى، كنت أخدم في الإدارة، وقد نقلت إلى هنا الآن كرئيس قسم تبع نفس الوزارة سوف أخدم هنا، وأنت، كيف؟ أظنك بلغت مستشار دولة؟ هه؟ .

فقال البدين - :لا يا عزيزى، بل أعلى لقد بلغت المستشار السرى.

وفجأة أمنقع النحيف، وتجمد، ولكن سرعان ما التوى فمه في جميع الاتجاهات ليصنع ابتسامة عريضة للغاية وبدا كأن الشرار قد تطاير من وجهه وعينيه.

أما هو فانكمش وتحدب وضاق وانكمشت حقائبه وصرره وعلبه وتجعدت واستطال ذقن زوجته الطويل وشد نفانائيل قامته وزرر جميع أزرار سترته إننى يا صاحب السعادة مسرور جدا! صديق الطفولة، يعني، وإذا به يصبح من السادة الأكابر ! هي هي فامتعض البدين وقال :دعك من هذا! ما هذه النبرة؟ إننا أصدقاء الطفولة، فما معنى عبادة الألقاب هذه ! .

فضحك النحيف ضحكة صفراء وازداد انكماشا. :

-العفو ماذا تقولون إن اهتمام سعادتكم الكريم هو كالبلسم الشافى هذا هو ابنى نفانائيل يا صاحب السعادة زوجتي لويزا، بروتستانتية إلى درجة ما .

وأراد البدين أن يعارض بشيء ما، ولكن وجه النحيف كان يطفح بالتبجيل والتعبير المعسول والخنوع إلى درجة أثارت الغثيان في نفس المستشار السرى فأشاح بوجهه عن النحيف ومد له يده مودعاً .

وصافح النحيف ثلاث أصابع وانحنى بجسده كله وضحك كالصيني : هي هي هي وابتسمت الزوجة ومسح نفانائيل الأرض بقدمه .

وسقطت منه القبعة وكانوا ثلاثتهم في حالة من الذهول اللذيذ .

الحرباء

عبر ميدان السوق يسير مفتش الشرطة أتشوميلوف في معطف جديد ويحمل في يده لفافة ومن خلفه يسير شرطي أحمر الشعر ومعه غربال مملوء لحافته بثمار عنب الثعلب المصادرة والسكون مخيم ولا أحد في السوق تطل أبواب المتاجر والحانات المفتوحة على العالم بنظرة كابية كالأشداق الجائعة ولا يوجد بجوارها حتى الشحاذون وفجأة يسمع أتشوميلوف صوتا يقول :

-آه ، إذن فأنت تعض أيها الملعون أمسكوه يا أولاد! العض الآن ممنوع! أمسك آه .

ويتردد عويل كلب ويلتفت أتشوميلوف فيرى كلبا يركض من مخزن الحطب التابع للتاجر بتشوجين وهو يقفز على ثلاث أرجل ويتلفت ويطارده شخص في قميص من الشبت المنشى وصديري مفتوح يركض وراء الكلب ثم يسقط على الأرض مادا جذعه إلى الأمام ويقبض على ساقي الكلب الخلفيتين ويتردد من جديد عويل الكلب وصياحة : امسكوه وتطل من المتاجر سحن ناعسة، وسرعان ما يتجمع الناس بالقرب من مخزن الحطب وكأن الأرض انشقت عنهم .

ويقول الشرطى - : يبدو هنا اضطراب يا صاحب المعالى !.

ويستدير أتشوميلوف نصف دورة إلى اليسار متجها إلى الجمع ويرى بجوار بوابة المخزن مباشرة الشخص المذكور في الصديرى المفتوح وهو يرفع يده اليمنى ليرى الجمع إصبعه المدماة وكأنما كتب على سحنته الثملة سوف أريك أيها الملعون وأصبعه نفسها تشبه علامة النصر ويتعرف أتشوميلوف في هذا الرجل الصائغ خريو كين وفي وسط الجمع يجلس المتسبب في هذه الضجة جرو صيد أبيض ذو أنف حاد وبقعة صفراء على ظهره، مادا ساقية الأماميتين، وجسده كله يرتعش وفي عينيه الدامعتين نظرة حزن ورعب .ويسأل أتشوميلوف وهو يقتحم الحشد.

-بأية مناسبة أنتم هنا؟ لماذا هنا؟ وأنت لماذا إصبعك؟ من الذي صاح؟ .

ويشرع خريو كين في الكلام وهو يتنحنح في قبضته - : كنت سائرا يا صاحب المعالي لا أمس أحداً بخصوص الحطب مع ميترى ميتريتش وفجأة إذا بهذا الوغد، ودون أي سبب ينهش إصبعى أرجو المعذرة، فأنا رجل، يعنى، من العاملين وعملى دقيق فليدفعوا لى، لأني ربما لا أستطيع أن أحرك هذه الإصبع أسبوعا لا يوجد في القانون يا صاحب المعالي ما ينص على أن يتحمل الإنسان هذه المخلوقات فلو أن كل واحد أخذ يعض، فالأفضل ألا يعيش الإنسان على ظهر الأرض .

فيقول أتشو ميلوف بصرامة وهو يسعل ويحرك حاجبيه :

-هم! حسناً حسناً كلب من هذا؟ أنا لن أدع ذلك هكذا سأريكم كيف تطلقون كلابكم آن أن ننتبه إلى أولئك السادة الذين لا يريدون أن يمتثلوا للقوانين عندما يدفع الغرامة هذا الوغد سيعرف ما معنى الكلاب وغيرها من الدواب الضالة سأريه العفاريت الزرق.

ويخاطب الشرطى - يلديرين، اعرف كلب من هذا واكتب محضراً أما الكلب فينبغي إعدامه فوراً لا بد أنه مسعور إنني أسألكم كلب من هذا؟ .

ويقول شخص من الجمع : - يبدو أنه كلب الجنرال جيجالوف؟ .

-الجنرال جيجالوف؟ هم انزع عني المعطف يا يلديرين أف، يا للحر يبدو أن المطر سيسقط شيء واحد لا أفهمه، كيف استطاع أن يعضك - يقول مخاطبا خريو كين - أمن المعقول أنه يطال إصبعك؟ إنه صغير أما أنت فانظر ماطولك يبدو أنك جرحت إصبعك بمسمار ، وخطرت لك فكرة أن تحصل على تعويض أنتم هكذا أعرفكم أيها الشياطين.

-يا صاحب المعالي، كان يلسعه بالسيجارة في بوزه ليضحك عليه، فلم يكذب الكلب خبراً وعضه إنه شخص مشاكس يا صاحب المعالى .

-كذاب يا أحول أنت لم تر شيئاً فلماذا تكذب ؟ إن معاليه سيد ذكى ويعرف من الكذاب ومن الشريف النقى الضمير أمام الله وإذا كنت أكذب فليحكم القاضي فلديه مكتوب في القوانين الجميع الآن سواسية وأنا لي أخ في الدرك، إذا أردت أن تعل -ممنوع الكلام؟

ويقول الشرطى بنبرة تأمل عميق :

-كلا، هذا ليس كلب الجنرال ليس لدى الجنرال كلاب كهذه كلابه أكثرها سلوقية هل أنت متأكد؟ متأكد يا صاحب المعالي .

-أنا نفسي أعرف ذلك كلاب الجنرال غالية، أصيلة، أما هذا فالشيطان يعلم ما هو لا شعر ولا هيئة مجرد حقارة لا غير أهذا كلب يقتني؟ أين عقولكم؟ لو أن كلباً كهذا ظهر في بطرسبرج أو موسكو، أتعلمون ماذا كان يحدث؟ ما كان أحد ليلتفت إلى القانون، بل على الفور ولا كلمة هس أنت يا خريوكين قد تضررت ولا تدع الأمر يمر هكذا ينبغي أن نؤدبهم آن الأوان .

ويقول الشرطي وهو يفكر بصوت مسموع :

-وربما كان كلب الجنرال فليس مكتوباً على سحنته رأيت من مدة كلباً مثله في فناء منزله ويقول صوت من الحشد - : واضح، كلب الجنرال .

هم ألبسني المعطف يايلديرين يبدو أن النسيم يهب لقد بردت احمله إلى الجنرال واسأل هناك قل لهم إنني وجدته وأرسلته وقل لهم أيضا ألا يخرجوه إلى الشارع فهو كلب ربما غال ، وإذا أخذ كل خنزير يلسعه بالسيجارة في وجهه فمن السهل إتلافه الكلب حيوان مهم وأنت أيها الغبي أنزل ذراعك كفاك إبرازا لإصبعك الحمقاء أنت المذنب .

-ها هو ذا طباخ الجنرال قادم، فلنسأله إى ، يا برو خور تعال هنا يا عزيزى انظر إلى هذا الكلب أهو كلبكم؟ .

-يا سلام لم يكن لدينا أبدا كلاب مثله فيقول أتشو ميلوف :

-ليس هناك داع للسؤال هذا كلب ضال لا داعي للكلام الكثير.

إذا قلت إنه ضال فهو ضال ينبغي إعدامه وكفى واستطرد الطباخ :

-ليس كلبنا، إنه كلب شقيق الجنرال الذي وصل من مدة جنرالنا لا يحب كلاب الصيد أما أخوه فيحبها ويسأل أتشو ويفيض وجهه بابتسامة تأثر :

-أحقا وصل شقيق الجنرال؟ فلاديمير إيفانتش؟ آه يا ربي وأنا لاأعلم هل جاء للزيارة؟ . - للزيارة .

-آه ياربي أوحشه شقيقه وأنا لا أعلم؟ إذن فهذا كلبه؟ سعيد جداً خذه ياله من كلب شقي هبش هذا من إصبعه ها ها ها .

مالك ترتعش؟ أوه إنه غاضب هذا الماكر يالك من صغير ويدعو بروخور الكلب ويمضي معه مبتعدا عن مخزن الحطب ويقهقه الجمع سخرية بخريوكين .

ويقول له أتشوميلوف متوعدا : - مهلاً، سوف أفرغ لك ويمضي في طريقه عبر ميدان السوق متدثرا بالمعطف.

حلة النقيب

عبست الشمس الصاعدة فوق المدينة الإقليمية، وبدأت الديوك تتمطى التوها، بينما كان الزبائن جالسين في حانة العم ريلكين كانوا ثلاثة : الخياط ميركولوف، والشرطى جراتفا وساعي الخزينة سميخونوف وكانوا ثلاثتهم سكارى .

وقال ميركولوف وهو يمسك بأحد أزرار سترة الشرطى :- لا تقل ذلك، لا تقل ذلك المرتبة في المؤسسات المدنية، إذا أخذنا العليا منها، تفوق رتبة الجنرال من ناحية الخياطة خذ مثلا وصيف البلاط من هو هذا الشخص؟ من أي رتبة؟ لكن خذ احسب أربعة أذرع من أعلى أنواع الجوخ، إنتاج فابريقة بروندل وأبنائه، وأزرار، وياقة ذهبية، وسراويل بيضاء بأشرطة ذهبية، والصدر كله بالذهب، القبة والأكمام والعراوي كله يلمع لو أنك الآن خيطت حللا لسادة كبار من مدراء المراسم ورجال البلاط ومختلف الوزراء كيف تظن؟ أذكر أننا خيطنا الواحد من هؤلاء السادة، الكونت أندريه سيميونيتش فونلياريفسكى حلة لا تقترب منها إذا أمسكتها بين يديك وجدت النبض في عروقك ينفض تسيك تسيك .

السادة الحقيقيون عندما تخيط لهم إياك أن تزعجهم خذ المقاس وخبط على طول، أما أن تتردد عليهم لعمل بروفات وضبط التفصيل

فهذا مستحيل إن كنت خياطا قديرا فخيط بعد أخذ المقاس على طول اقفز من أعلى البرج بشرط أن تدخل بقدميك في الحذاء مباشرة، أرأيت .

وكانت بجوارنا يا أخي كما أذكر الآن ثكنة شرطة فكان رئيسنا أوسيب باكليتش يختار من رجال الشرطة الرجال الذي تتفق أجسامهم مع أجسام الزبائن لكى نعمل البروفات عليهم وبعدين، يعنى اخترنا يا أخي شرطيا مناسبا لحلة الكونت استدعيناه هيا البس يا أحمق وتبختر ولبس هذه ال الحلة ويا له من منظر مضحك ما إن نظر إلى صدره حتى ارتعش، أتعرف، سقط مغشيا عليه واستفهم سيمخونوف :وهل فصلتم لمأموري المراكز؟ .

-وهل هؤلاء شخصيات؟ في بطرسبرج هؤلاء المأمورون كالكلاب الضالة هنا ينزعون أمامهم القبعات وينحنون، أما هنالك فيقولون لهم: أفسح الطريق، لا تزاحم كنا نفصل الحلل للسادة العسكريين وللشخصيات من المراتب الأربع الأولى وكل شخصية تختلف عن الأخرى فإذا كنت مثلا من الرتبة الخامسة فأنت تافه تعال بعد أسبوع وتكون البدلة جاهزة، لأنه ليس هناك ما تفعله غير الباقة والأساور أما إذا كنت من الرتبة الرابعة أو الثالثة، أو مثلاً الثانية، عندئذ ينهال علينا صاحب المحل، ونسرع إلى ثكنة الشرطة في مرة فصلنا يا أخي بدلة للقنصل الفارسي وطرزنا له على الصدر والظهر قصباً ذهبياً بألف وخمسمائة روبل وظننا أنه لن يدفع، ولكن لا لقد دفع في بطرسبرج حتى التتر تجدهم نبلاء الطباع.

وظل ميركولوف يتحدث طويلاً وفي الساعة التاسعة، وتحت تأثير الذكريات، بكى وراح يشكو بحرقة حظه الذى رماه في هذه المدينة الصغيرة المليئة بالتجار والبرجوازيين فقط وكان الشرطي في هذه الفترة قد ساق اثنين إلى قسم البوليس، وذهب الساعي مرتين إلى البريد والخزينة وعاد، بينما كان ميركولوف لايزال يشكو وفي الظهر وقف أمام الشماس وأخذ يضرب صدره بقبضته ويتذمر :

لا أريد أن أفصل للأوغاد أنا أرفض في بطرسبرج فصلت بنفسي اللبارون شبوتسيل وللسادة الضباط ابتعد عني يا قفطان ولائم الموتى، إياك أن تراك عيناى ابتعد؟ .

فأكد الشماس للخياط - : إنك تضع نفسك في مكانة عالية يا تريفون بانتليتش صحيح أنت فنان في عملك، ولكن لا يجوز أن تنسى الله والدين آري أيضاً وضع نفسه عالياً، مثلك، ولكنه مات من الإسهال أوه، وأنت أيضاً ستموت .

-سأموت الأفضل أن أموت من أن أفصل معاطف فلاحية هل شيطانى هنا؟ - تردد فجأة صوت نسائي خلف الباب، ودخلت الحانة أكسينيا زوجة ميركولوف، وهي امرأة كهلة، مشمرة الأكمام، ومحزومة البطن - أين هو هذا الصنم؟ - وطافت على الرواد بنظرة غاضبة - اذهب إلى البيت، إن شاء الله تخطفك مصيبة هناك ضابط يسأل عنك .

فدهش ميركولوف - :أي ضابط؟ -وما أدرانى يقول إنه جاء ليفصل بدله جك مير كولوف أنفه الكبير براحته كلها، وهو ما كان يفعله دائما عندما يريد أن يعبر عن دهشته البالغة، ودمدم :هذه المرأة أصابتها لوثة منذ خمسة عشر عاما لم أر وجها نبيلا، وفجأة يأتي الآن، وفي يوم الصيام، ضابط ليفصل بدلة هم فلأذهب الأرى وخرج مير كولوف من الحانة ومضى إلى البيت وهو يترنح ولم تكذب عليه زوجته فقد رأى أمام عتبة داره النقيب أورتشايف، سكرتير قائد الحامية المحلية .

وقال له النقيب - :أين كنت تتسكع؟ أنتظرك منذ ساعة هل تستطيع أن تفصل لى بدلة؟ .

-يا صاحب المعال يا إلهى - دمدم ميركولوف وهو يتحشرج، ونزع من على رأسه القبعة مع خصلة شعر - يا صاحب المعالي وهل هذا جديد على؟ آه يا إلهى فصلت للبارون شبوتسيل إدوارد كارليتش والسيد الملازم زيمبولاتوف مدين لي حتى الآن بعشرة روبلات آه يا امرأة ، هاتي لصاحب المعالى كرسيا، آه يا ربى هل تأمرون بأخذ مقاسكم أم تسمحون أن أفصل بمجرد النظر؟ .

-طيب القماش من عندك، وتكون جاهزة بعد أسبوع كم تريد؟ .

-العفو يا صاحب المعالي ماذا تقولون - وضحك مير كولوف ضحكة ساخرة قصيرة - وهل أنا تاجر؟ إننا نعرف كيف نتعامل مع السادة حتى عندما وصلنا للقنصل الفارسي فصلنا بدون كلام .

وبعد أن أخذ مير كولوف مقاييس النقيب وودعه، ظل واقفا ساعة كاملة في وسط الغرفة وهو يحدق في زوجته ببلاهة لم يكن يصدق .

وأخيراً تمتم - : يا لها من مفاجأة، يا سلام من أين أحصل على النقود للقماش؟ يا أكسينيا، أقرضينى، يا أختي، ذلك المبلغ الذي حصلت عليه من بيع البقرة.

أخرجت له أكسينيا لسانها ثم بصقت وبعد فترة وجيزة بدأت تتعامل مع زوجها بالبشكور وتكسر على رأسه الصحاف الفخارية وتسحبه من الحيته، وتخرج إلى الشارع وتصيح: «انظروا يا عباد الله قتلنى ولكن هذه الاحتجاجات لم تأت بنتيجة وفي اليوم التالى رقدت في الفراش وهى تخفى عن صبيان الخياط الكدمات الزرقاء، بينما كان ميركولوف يطوف بالدكاكين ويتشاجر مع التجار وهو ينتقى الجوخ المناسب .

وحل عهد جديد بالنسبة للخياط فبعد أن يستيقظ ويطوف بنظراته الغائمة على عالمه الصغير لم يعد يبصق بحقد أما أغرب شيء فهو أنه كف عن الذهاب إلى الحانة وانهمك في العمل وبعد أن يصلي بصوت خافت ، يضع النظارة الحديدية ويقطب جبينه، ويفرش القماش على الطاولة بخشوع .

وبعد أسبوع كانت الحلة جاهزة وبعد أن كواها مير كولوف، خرج إلى الشارع وعلقها على السياج الجدول من الأغصان وراح ينظفها ينزع منها وبرة، ثم يبتعد لمسافة ذراع، ويحدق في الحلة طويلا بعينين مزرورتين، ثم يعود فينزع وبرة أخرى، وهكذا لمدة ساعتين .

وكان يقول للمارة :

ما أشق العمل مع هؤلاء السادة لم أعد أطيق، خارت قواى قوم مثقفون، مهذبون، فلتحاول أن تنال رضاهم .

وفي اليوم التالي، وبعد أن نظف مير كولوف الحلة، دهن رأسه بالزيت وصفف شعره، ولف البدلة في قطعة من قماش شيت جديد، وتوجه إلى النقيب.

وكان يستوقف كل من يقابله قائلاً :

-لا وقت عندى للكلام معك أيها الأحمق ألا ترى أنني أحمل البدلة للنقيب؟

وبعد نصف ساعة عاد من عند النقيب واستقبلته أكسينيا وهي تبتسم ابتسامة عريضة، وقالت بخجل :

-مبروك المكسب يا تريفون بانتليفتش فأجابها زوجها - : يا لك من حمقاء أتظنين السادة الحقيقيين يدفعون فورا؟ ليسوا كالتجار الذين ما إن تعطيهم حتى يدفعوا فورا يا لك من حمقاء .

رقد مير كولوف يومين على الفرن ولم يشرب أو يأكل واستسلم لمشاعر الرضا عن النفس، تماما مثل هرقل بعد أن انتهى من تحقيق كل بطولاته وفي اليوم الثالث ذهب ليحصل على النقود

وقال هامساً لجندي المراسلة وهو يتسلل زاحفاً إلى المدخل: - هل استيقظ صاحب المعالى؟ وعندما تلقى الإجابة بالنفي وقف كالعمود بجوار الباب وراح ينتظر .

-اطرده من هنا قل له يوم السبت - سمع ميركولوف بعد انتظار طويل صوت النقيب الأبح وسمع نفس الشيء يوم السبت، وفي السبت الذي تلاه، وفي السبت الثالث شهرا كاملا قضاه في التردد على النقيب، والانتظار في المدخل ساعات طويلة، وبدلا من النقود كان يحصل على دعوة بالذهاب إلى الشيطان والمجيء يوم السبت ولكنه لم ييأس ولم يتذمر، بالعكس لقد سمن أعجبه الانتظار الطويل في المدخل وكانت «اطرده من هنا» تنساب في أذنيه كاللحن العذب .

وعندما يعود إلى البيت من عند النقيب كان يقول بإعجاب - : هذا هو السيد النبيل عندنا في بيتر كانوا كلهم كذلك .

وكان ميركولوف مستعدا حتى آخر أيام عمره أن يتردد على النقيب وينتظر في المدخل لولا أكسينيا التي كانت تطالبه بإعادة النقود، ثمن البقرة .

كانت تلقاه كل مرة بالسؤال - : هل جئت بالنقود؟ كلا؟ ما الذي تفعله بي أيها الوحش الكاسر؟ .

هه؟ يا ميتكا، أين البشكور؟ .

وذات مساء كان مير كولوف عائدا من السوق، حاملاً على ظهره جوال فحم ومن خلفه سارت أكسينيا بعجلة كانت تدمدم وهي تفكر في النقود ثمن البقرة - : مهلاً سوف أريك عندما نصل إلى البيت .

وفجأة توقف ميركولوف وتسمر في مكانه وصاح بفرح فمن حانة المرح التي كانا يمران بجوارها، انطلق مندفعا سيد ما في قبعة أسطوانية ، بوجه أحمر وعينين ثملتين وجرى خلفه النقيب أورتشايف بلا قبعة، مشعث الشعر والثياب وفي يده عصا البلياردو وكانت حلته الجديدة ملوثة بالطباشير ، وإحدى الكتافيات قد مالت جانباً .

وصاح النقيب وهو يلوح بجنون بالعصا ويمسح العرق من جبينه :

-سأرغمك على اللعب أيها المحتال سأعلمك أيها الغشاش كيف تلعب مع الشرفاء .

وهمس مير كولوف لزوجته وهو يلكزها في كوعها ويه أهيء :

-انظرى يا حمقاء هذا هو السيد النبيل فالتاجر إذا فصل لسحنته الفلاحية بدلة فإنها لا تبلى، بلبسها عشر سنين، أما هذا فانظرى كيف جعل البدلة خرقة ليس غريبا لو احتاج لواحدة جديدة .

فقالت أكسينيا - :اذهب واطلب منه النقود - ماذا تقولين يا حمقاء في الشارع؟ لا يمكن أبدا .

ورغم مقاومة مير كولزوف فقد أرغمته زوجته على الذهاب إلى النقيب الهائج ومفاتحته في أمر النقود فأجابه النقيب :

-امش من هنا أضجرتنى .

-أنا فاهم يا صاحب المعالي فاهم أنا لا أريد لكن زوجتي حمقاء لا تفهم حضرتكم تعرفون أي عقل يمكن أن يكون في رأس هؤلاء النسوة .

فزأر النقيب وهو يحملق فيه بعينين ثملتين زائغتين : قلت لك أضجرتنيامش من هنا .

-مفهوم يا صاحب المعالي ولكني بخصوص زوجتي لأن النقود، إذا أردتم سيادتكم أن تعرفوا، هي نقود البقرة بعنا البقرة للأب يهوذا .

-آه وتجسر على الكلام أيها الحشرة .

وطوح النقيب ذراعه و طراخ وتساقط الفحم من على ظهر مير كولوف، ومن عينيه تطاير الشرار، ومن يديه سقطت القبعة وتملك الذهول أكسينيا ووقفت متصلبة حوالي دقيقة، مثل زوجة لوط عندما تحولت إلى عمود ملح، ثم خطت إلى الأمام ونظرت بوجل إلى وجه زوجها ولدهشتها البالغة كان وجه ميركولوف يتهلل بابتسامة غبطة ، بينما اغرورقت عيناه الضاحكتان بالدموع

ودمدم :

هؤلاء هم السادة الحقيقيون أناس مهذبون، مثقفون بالضبط كما حدث وفي نفس المكان عندما حملت المعطف إلى البارون شبوتسيل، إدوارد كارليتش طوح بده وطراخ والسيد الملازم زيمبولاتوف أيضا جئت إليه فهب واقفا وبكل قوته أوه راح ذلك الزمن يا زوجتى أنت لا تفهمين شيئا راح زمنى وأشاح ميركولوف بيده، ثم جمع الفحم، ومضى إلى البيت .

المصيبة

يحمل الخراط جريجورى بتروف، المعروف منذ زمن بعيد كأسطى رائع، وفي الوقت نفسه كواحد من أكثر الرجال ضلالا في مقاطعة جالتشينسك كلها، زوجته العجوز المريضة إلى المستشفى المحلى كان عليه أن يقطع حوالي ثلاثين فرسخا، بينما الطريق فظيع لا يقوى عليه حتى حوذى البريد الحكومي، لا هذا الكسول، الخراط جريجورى ففي الوجه مباشرة تضرب ريح حادة باردة وفي الهواء، حيثما نظرت تدور سحب كاملة من ندف الثلج، حتى إن الناظر لا يعرف هل يسقط الثلج من السماء أم يصعد من الأرض ومن خلف الضباب الثلجي لا يبين الحقل ولا أعمدة البرق ولا الغابة ،وعندما تهب على جريجورى دفقة ريح قوية بشكل خاص لا يعود يرى حتى قوس الحصان والفرس العجوز المتهالكة تجر قوائمها بالكاد فقد تبددت كل طاقتها في سحب القوائم من الثلج العميق وفي هز الرأس كان الخراط متعجلا وراح يقفز فوق مقعده بقلق وينهال بالسوط كثيرا على ظهر الفرس، وهو يدمدم :

-لا تبكى يا متريونا اصبري قليلا إن شاء الله نصل إلى المستشفى، وعلى الفور يذهب منك هذا اله سيعطيك بافل إيفانيتش قطرات، أو يأمر بحجمك أو ربما يتفضل فيدلكونك بالكحول، وعندئذ يذهب عن جنبك هذا ال سيبذل بافل إيفانيتش جهده سيصيح بنا، ويضرب الأرض بقدميه، لكنه سيبذل جهده إنه سيد عظيم، عطوف، ربنا يعطيه الصحة

عندما نصل سيخرج على الفور من مسكنه ويبدأ قبل كل شيء .في السباب والصياح كيف؟ ما هذا؟ لماذا؟ لماذا لم تأت في الوقت المناسب؟ وهل أنا كلب حتى أضيع اليوم كله في مشاكلكم أيها الشياطين؟ لماذا لم تأت في الصباح؟ امش من هنا إياك أن تراك عيناى تعال غداً فأقول له: ياحضرة الدكتور يا بافل إيفانيتش يا صاحب السعادة هيا سيرى، سيري عليك اللعنة هيا

وينهال الخراط على الفرس، ودون أن ينظر إلى زوجته العجوز يستطرد وهو يدمدم لنفسه :يا صاحب السعادة الله شاهد على ما أقول بحق الصليب لقد خرجت مع الفجر ولكن كيف تصل في الموعد إذا كان الرب قد غضب وأرسل هذه العاصفة؟ ها أنتم ترون بأنفسكم حتى الفرس الأصيلة لا تقوى على السير، أما أنا فكما ترون ليس ما عندى فرس بل مصيبة فيعبس بافل إيفانيتش ويصيح: أنا أعرفكم دائما تجدون لكم مخرجا خاصة أنت يا جريشكا أعرفك من زمان تراك عرجت على الحانة خمس مرات فأقول له يا صحاب السعادة هل تظنونني عربيداً أم كافراً العجوز تلفظ أنفاسها، تموت، وأنا أعرج على الحانات ماذا تقولون فليحل بها الخراب هذه الحانات عندئذ يأمر بافل إيفانيتش بنقلك إلى المستشفى أما أنا فأرتمي على قدميه يا بافل إيفانيتش يا صاحب السعادة نشكركم من صميم القلب سامحنا نحن الحمقى، الملاعين، لا تؤاخذنا نحن الفلاحين نستحق منكم الطرد، وبدلاً من ذلك تهتمون بنا وتلوثون أقدامكم في الثلج وينظر بافل إيفانيتش إلى وكأنه يريد أن يضربني

ويقول: «بدلا من الارتماء على قدمي كان من الأفضل، أيها الأحمق، ألا تشرب الفودكا، وتعطف على عجوزك إنك تستحق الجلد عين الحقيقة يا بافل إيفانيتش، أستحق الجلد، أي والله أستحقه؟ وكيف لا نرتمي على قدميكم إذا كنت راعينا وأبانا؟ يا صاحب السعادة أقول لكم الحق والله شاهد أبصقوا في عيني لو كنت أكذب عليكم .

بمجرد أن تشفي زوجتي متريونا، وتقف يعنى على قدميها سأفعل كل ما أمرتم، جنابكم، به لو أردتم صنعت لكم علبة سجائر من خشب البتولا الكاريلية أو كرات للكروكيت، وأستطيع أن أخرط كيلا مثل الأجنبية بالضبط سأصنع من أجلكم أي شيء ولن آخذ منكم كوبيكا في موسكو يأخذون أربعة روبلات مقابل مثل هذه العلبة، أما أنا فلن آخذ كوبيكا فيضحك الدكتور ويقول: «طيب ، طيب مفهوم إنما من المؤسف أنك سكير إنني أعرف يا أختي العجوز كيف أتعامل مع السادة لا يوجد سبد لا أستطيع التفاهم معه المهم أن يلطف ربنا ولا نضل الطريق أوه يا للعاصفة تعمى العيون؟ .

ويمضي الخراط في دمدمته بلا توقف يتحرك لسانه آليا لكي يكبت ولو إلى حد ما إحساسه المرهق والكلمات على طرف اللسان كثيرة، ولكن الأفكار والتساؤلات في الرأس أكثر لقد دهمته المصيبة على غرة، بلا توقع أو انتظار، وها هو ذا الآن لا يستطيع أن يفيق ويثوب إلى رشده ويفهم كان يعيش حتى الآن بلا هموم، عيشة ساكنة، في غيبوبة ثملة ، لا يدري ما الحزن وما الفرحة، وفجأة أصبح يحس الآن في صدره بألم رهيب

لقد وجد هذا الكسول اللا مكترث والسكير نفسه فجأة وبلا مقدمات في وضع رجل مشغول، مهموم، متعجل، بل رجل يصارع الطبيعة .

ويذكر الخراط أن مصيبته بدأت بالأمس مساء فعندما عاد مساء الأمس إلى البيت، ثملاً كالعادة، وراح بحكم العادة القديمة يسب ويلوح بقبضته ، نظرت العجوز إلى زوجها الهائج كما لم تنظر إليه أبدا من قبل كانت نظرة عينيها الهرمتين في العادة معذبة، مستكينة، كنظرة الكلب الذي يضربونه كثيراً ويطعمونه قليلاً، أما الآن فكانت نظرتها صارمة وثابتة كنظرة القديسين في الأيقونات أو الأموات ومن هاتين العينين الغريبتين اللتين لا تبشران بخير بدأت المصيبة وأسرع الخراط المصعوق إلى جاره .

يسأله حصانه، وها هو ذا الآن يحملها إلى المستشفى، على أمل أن يعيد بافل إيفانيتش بمساحيقه ومراهمه إلى العجوز نظرتها السابقة ويدمدم الخراط - :اسمعى يا متريونا إذا سألك بافل إيفانيتش هل ضربتك أم لا، قولي : أبدا ولن أضربك بعد أقسم لك بالصليب وهل كنت أضربك عمداً؟ أبداً، هكذا، بلا داع أنا أعطف عليك يا متريونا ولو كان غيري في مكاني لما اهتم، أما أنا فها أنا ذا أحملك وأبذل جهدي أوه، يا لها من عاصفة حكمتك يا رب اللهم الطف بنا حتى لا نضل الطريق ماذا هل جنبك يؤلمك؟ لماذا لاتردين يا متريونا؟ إنني أسألك : هل جنبك يؤلمك؟ .

ويبدو له غريباً أن الثلج لا يذوب على وجه العجوز، والغريب أيضاً أن وجهها ذاته قد استطال بصورة خاصة واكتسب لوناً رمادياً شاحباً عكراً كالشمع، وأصبح صارماً، جاداً ويدمدم الخراط :

-يا لك من حمقاء أنا أحدثك من صميم قلبى، يشهد الله، وأنت هذا يا لك من حمقاء اسمعي وإلا فلن أحملك إلى بافل إيفانيتش .

ويرخي الخراط اللجام ويستغرق في التفكير ولا يجرؤ على النظر إلى العجوز هذا مخيف ومن المخيف أيضاً أن يوجه إليها سؤالاً فلا يتلقى الجواب وأخيراً، ولكي يقطع الشك باليقين، يتلمس ذراع العجوز الباردة دون أن يلتفت إليها وتسقط الذراع المرفوع كجلدة السوط إذن فقد ماتت يا للمصيبة.

ويبكي الخراط لا من الأسي بقدر ما هو من الحنق ويفكر : ما أسرع ما يجري كل شيء في هذه الدنيا ما إن بدأت مصيبته حتى حلت النهاية .

لم يكد يعيش مع عجوزه، ويصارحها بما في قلبه، ويعطف عليها حتى ماتت لقد عاش معها أربعين عاماً، ولكن هذه الأعوام الأربعين مرت وكأنها ملفعة بالضباب ومن خلف سحب السكر والعراك والفاقة لم يكن ثمة إحساس بالحياة وكأنما نكاية به ماتت العجوز في تلك اللحظة التي أحس فيها أنه يعطف عليها، ولا يقوى على العيش بدونها، ومخطئ في حقها بصورة رهيبة .

ويتذكر الخراط :

لقد كانت تتسول أنا الذي أرسلتها تسأل الناس خبزاً، يا للمصيبة هذه الحمقاء كان ينبغي أن تعيش عشر سنوات أخرى، وإلا فربما تظن أنني هكذا بالفعل يا إلهى، إلى أي شيطان أمضى الآن؟ ينبغي الآن دفنها لا علاجها هيا، دورى .

ويدير الخراط الزحافة عائداً بها، وينهال بكل قوته على الفرس بالسوط ومع كل لحظة يزداد الطريق سوءاً الآن لم يعد قوس الحصان مرئياً على الإطلاق وأحياناً تدوس الزحافة على شجرة شوح صغيرة، فيخدش هذا الشيء المظلم أيدي الخراط، ويمرق أمام عينيه، ثم يصبح مجال الرؤية من جديد أبيض مدوماً ويفكر الخراط: آه لو تبدأ الحياة من جديد.

ويتذكر أن متريونا كانت منذ أربعين عاماً شابة جميلة مرحة، من بيت غني وقد زوجوها منه إذ أغرتهم مهارته كأسطى وكانت كل المقومات متوفرة لحياة طيبة، ولكن المصيبة أنه منذ أن شرب حتى ثمل بعد حفلة العرس، وتمدد فوق الفرن، فكأنما لم يستيقظ حتى الآن إنه يذكر حفلة العرس، أما ما حدث بعد العرس فلا يذكر منه شيئاً على الإطلاق ، اللهم إلا أنه كان يشرب ويرقد ويتعارك وهكذا ضاعت الأعوام الأربعون .

وتبدأ السحب الثلجية البيضاء في التحول شيئاً فشيئاً إلى اللون الرمادي ويحل الغسق وفجأة يستدرك الخراط

-إلى أين أنا ذاهب؟ ينبغي دفنها بينما أذهب بها إلى المستشفى كأنما جننت يدير الخراط الزحافة مرة أخرى، وينهال من جديد على الفرس وتستجمع الفرس كل قواها، وتركض بخبب قصير وهي تشخر ويضربها الخراط بالسوط على ظهرها المرة تلو المرة ومن خلفه تتردد دقات ما، ورغم أنه لا يتلفت إلا أنه يعرف أن ذلك صوت ارتطام رأس المرحومة بالزحافة بينما الجو يزداد ظلاماً، وتصبح الريح أكثر حدة وبرودة .

ويفكر الخراط : لو تبدأ الحياة من جديد لحصلت على عدة جديدة ، ولتلقيت الطلبات ولأعطيت النقود للعجوز نعم وها هو يفلت اللجام من يديه ويبحث عنه ، ويريد أن يرفعه، ولكنه لا يستطيع يداه لا تستجيبان له ويفكرs يان ستمضى الفرس بنفسها، فهي تعرف الطريق فلأنهم قليلاً فإلى أن تحين الجنازة والقداس، فلأنهم قليلاً ويغمض الخراط عينيه وينعس وبعد قليل يسمع أن الفرس توقفت ويفتح عينيه فيرى أمامه شيئاً مظلماً يشبه المنزل أو كوم الدريس .

ومن المفروض أن ينزل من الزحافة ليعرف ما الأمر، ولكن خدراً شديداً يستولي على جسده كله ، حتى إنه يفضل أن يتجمد على أن يتحرك من مكانه ويغيب في سبات قرير .

ويستيقظ في غرفة كبيرة، بجدران مطلية من النوافذ ينساب ضوء الشمس الساطع ويرى الخراط أمامه أناساً، وأول ما يفكر فيها أن يبدو أمامهم رجلاً رزيناً، حصيفاً، فيقول - :ينبغي إقامة قداس العجوز يا إخوان فلتخبروا أبانا. لكن صوتاً ما يقاطعه : طيب ، طيب ارقد فيدهش الخراط حين يرى الدكتور أمامه - : يا مولانا بافل إيفانيتش يا صاحب السعادة يا راعينا .

ويود أن يقفز ويرتمي على قدمي الطبيب، ولكنه يشعر أن ساقيه ويديه لا تستجيب له - يا صاحب السعادة أين ساقاى؟ أين يداى؟ ودع يديك وساقيك تجمدت مهلاً، مهلاً لم تبكى؟ عشت حياتك فاحمد الله ، تراك عشت ستين سنة يكفيك هذا؟ مصيبة مصيبة يا صاحب السعادة أرجو المعذرة والسماح لو خمس أو ست سنوات أخرى لماذا؟ .

-الفرس ليست لى، يجب أن أردها وأدفن العجوز ما أسرع ما يجرى كل شيء في هذه الدنيا يا صاحب السعادة بافل إيفانيتش علبة سجاير ممتازة من خشب البتولا الكاريلية كرة كوركيت أخرطها ويشيح الدكتور بيده ويخرج من الغرفة وعلى الخراط السلام .

جهاز العروس

رأيت في حياتى بيوتاً كثيرة، كبيرة وصغيرة، حجرية وخشبية، قديمة وجديدة، ولكن واحداً منها هو الذي انطبع في ذاكرتي بصفة خاصة كان منزلاً صغيراً، من طابق صغير واحد وثلاث نوافذ، يشبه إلى حد كبير عجوزة حدباء صغيرة بقلنسوة كان مطلياً بالجير الأبيض، بسطح قر ميدى ومدخنة متساقطة الطلاء، وكان غارقاً كله في خضرة أشجار التوت والأكاسيا والحور التي غرسها أسلاف وأجداد أصحابه الحاليين لم يكن يرى من وراء الخضرة وعموماً فلم تمنعه وفرة الخضرة هذه من أن يكون بيتاً حضرياً ويقف فناؤه الواسع في صف واحد مع الأفنية الأخرى، الواسعة والخضراء أيضاً، ويدخل في نطاق شارع موسكوفسكايا

وشيش النوافذ في هذا البيت مغلق دائماً، فسكانه لا يحتاجون إلى الضوء إنهم في غنى عنه والنوافذ لا تفتح أبدا، لأن سكان البيت لا يحبون الهواء المنعش فالناس المقيمون دائماً وسط أشجار التوت والأكاسيا وأحراش الأرقطيون لا مبالون تجاه الطبيعة المصطافون وحدهم هم الذين حباهم الله القدرة على فهم جمال الطبيعة، أما بقية البشرية فتغط في جهل عميق فيما يخص هذا الجمال لا يقدر الناس ما لديهم من ثروة ما نملكه لا نحافظ عليه، بل والأكثر من ذلك أن ما تملكه اليد تزهده النفس وحول المنزل جنة دنيوية : خضرة، وطيور مغردة، أما في المنزل فيا اه .

للأسف في الصيف يكون الجو فيه قائظاً خانقاً، وفي الشتاء حاراً كما في الحمام، مكتوماً، وملا، ملا .

زرت هذا المنزل أول مرة منذ زمن بعيد، زيارة واجب فقد جئت حاملاً التحية من صاحب البيت العقيد تشيكماسوف إلى زوجته وابنته وأذكر جيداً تلك الزيارة الأولى، إذ يستحيل أن أنساها تصوروا امرأة صغيرة رخوة، في حوالي الأربعين، تنظر إليك برعب ودهشة وأنت تدلف من المدخل إلى الصالة فأنت غريب، ضيف، شاب وفي هذا الكفاية لكي تثير الدهشة والرعب وليس في يدك هراوة أو فأس أو مسدس بل تبتسم بود، ولكنهم يلقونك بارتياب .

وتسألك بصوت متهدج امرأة كهلة، فتعرف صاحبة البيت تشيماسوفا :

-من الذي يشرفني ويسرني أن أراه؟ ؟

فتقول لها من أنت، وتشرح سبب مجيئك، فتحل صيحة آه الفرحة المدوية واتساع العيون محل الرعب والدهشة وتنتقل هذه الآه كالصدى من المدخل إلى الصالة، ومن الصالة إلى غرفة الجلوس، ومن غرفة الجلوس إلى المطبخ وهكذا حتى القبو نفسه وسرعان ما يمتلئ البيت الصغير بالآهات الفرحة المتعددة النبرات وبعد حوالي خمس دقائق تجد نفسك جالساً في غرفة الجلوس على كنبة كبيرة وثيرة ساخنة، وتسمع شارع موسكوفسكايا وقد راح يتأوه كله .

فاحت رائحة مسحوق العثة وحذاء جديد من جلد العنز كان ملفوفاً في منديل وموضوعا على مقعد بجوارى وعلى النوافذ نبات الجيرانيوم وستائر حقيرة من قماش الموسلين وعليها ذباب شبعان وعلى الحائط صورة مطران مرسومة بالزيت ومغطاة بزجاج إحدى زواياه مكسورة ومن المطران يمتد عدد من الأجداد بوجوه غجرية صفراء ليمونية وعلى الطاولة كستبان وبكرة خيط وجورب حريمى لم تكتمل حياكته، وعلى الأرض بترونات تفصيل وبلوزة سوداء بخيوط تسريج وفي الغرفة المجاورة امرأتان عجوزان بدا عليهما الاضطراب والذهول وهما تلتقطان من الأرض البترونات وقطع الأقمشة القطنية .

وقالت تشيكماسوفان - عفواً، عندنا فوضى فظيعة .

كانت تشيكماسوفا تتحدث معي وهي تتطلع شزراً وبحرج إلى الباب الذي كانوا لا يزالون خلفه يرفعون البترونات وكان الباب أيضاً تارة ينفرج بحرج مقدار شبر، وتارة يوصد .

وقالت تشيكماسوفا مخاطبة الباب : حسناً، وماذا تريدين؟ فسأل صوت نسائي من وراء الباب اسألي لوكيريا وقرأت في عيني تشيكماسوفا المتضجرة من المتعة : انظر كيف نتحدث الفرنسية جيداً أين رابطة عنقى التي أرسلها لي أبى من كورسك؟ بالفرنسية في عندنا شخص لا نعرفه إلا قليلاً جداً

وسرعان ما فتح الباب فرأيت فتاة طويلة نحيلة، في حوالي التاسعة عشرة، في فستان طويل من الموسلين وحزام مذهب، أذكر أنه كانت تتدلى منه مروحة صدفية دخلت الغرفة، وجلست وتضجرت في البداية تضجر أنفها الطويل المجدور قليلاً، ومن أنفها انتقلت الحمرة إلى عينيها، ومن عينيها إلى صدغيها .

وقالت تشيكماسوفا بصوت منغم : ابنتي وهذا يا مانيتشكا هو الشاب الذي تعرفت به وأعربت عن دهشتي بصدد البترونات الكثيرة وخفضت الأم وابنتها بصرهما وقالت الأم في عيد الصعود أقيمت هنا سوق ونحن دائمًا نشتري من السوق قماشاً، ونقضي السنة كلها في خياطته حتى السوق التالية إننا لا نخيط عند أحد أبداً فزوجى بيوتر سيميونتش لا يكسب كثيراً، لذلك لا نسمح لأنفسنا بالبذخ نضطر إلى الخياطة بأنفسنا ولكن من لديكم يلبس كل هذه الثياب ؟ ألستما اثنتين فقط؟ آه وهل هذا يمكن لبسه؟ هذا ليس للبس إنه جهاز العروس فقالت الابنة وهي تتضجر :

-آه يا ماذا تقولين؟ حضرته قد يظن بالفعل لن أتزوج أبداً أبداً قالت ذلك، بينما توقدت عيناها وهي تنطق كلمة أتزوج ثم جاءوا بالشاي والخبز المقدد والمربى والزبد، وبعد ذلك أطعمونى توت العليق بالقشدة وفي الساعة السابعة مساء قدموا العشاء من ستة أطباق وأثناء العشاء سمعت تثاؤباً عالياً ففي الغرفة المجاورة تثاءب أحد ما بصوت عال ونظرت إلى الباب بدهشة، إذ لا يمكن أن يتثاءب هكذا إلا رجل .

وأوضحت تشيكما سوفا وقد لا حظت دهشتى - : هذا أخو بيوتر سيميونتش يجور سيميونتش إنه يعيش معنا من العام الماضي اعذره، فهو لا يستطيع الخروج لمقابلتك إنه خجول يتجنب الغرباء ينوي الاعتزال في دير اساءوا إليه في الخدمة ولهذا قرر من الأسى وبعد العشاء أرتني تشيكماسوفا وشاحاً طرزه يجور سيميونتش بنفسه ، لكي يتبرع به للكنيسة وطرحت مانيتشكا عنها الخجل لحظة وأرتنى كيس تبغ طرزته لأبيها وعندما تظاهرت بأنني مبهور بمهارتها تضجرت وهمست في أذن أمها بشيء ما فتهللت أسارير الأم وعرضت على أن أذهب معها إلى غرفة المخزن وهناك رأيت حوالي خمسة صناديق كبيرة وكثرة من الصناديق الصغيرة والعلب وهمست لي الأم: - إنه جهاز العروس خيطناه بأنفسنا وبعد أن تفرجت على هذه الصناديق الجهمة رحت أودع أصحاب الدار الكرماء وأخذو على عهد بأن أزورهم مرة أخرى في وقت ما وقد وفيت بعهدي هذا بعد حوالي سبع سنوات من زيارتي الأولى، عندما أرسلت إلى هذه المدينة كخبير قانوني في إحدى القضايا وعندما دلفت إلى البيت المألوف سمعت نفس الآهات وعرفوني وكيف لا؟ لقد كانت زيارتي الأولى حدثاً كبيراً في حياتهم، وحيث تكون الأحداث قليلة تبقى في الذاكرة طويلاً وعندما دخلت قاعة الجلوس رأيت الأم، التي أصبحت أكثر بدانة وأبيض شعرها، تزحف على الأرض وهي تفصل قماشاً أزرق، وكانت الابنة جالسة على الكنبة تطرز نفس البترونات ونفس رائحة مسحوق العتة، ونفس اللوحة بزاويتها المكسورة

ومع ذلك كان هناك بعض التغيير فبجوار صورة المطران علقت صورة بيوتر سيميونتش، وارتدت السيدات ثياب الحداد لقد مات بيوتر سيميونتش بعد أسبوع من ترقيته إلى رتبة جنرال وبدأت الذكريات وأجهشت زوجة الجنرال وهي تقول :

-حلت بنا فاجعة كبيرة بيوتر سيميونتش - هل تعلم؟ - لم يعد على قيد الحياة أصبحنا أنا وهي يتامى، وعلينا أن نعتنى بشئوننا بأنفسنا أما يجور سيميونتش فلا نستطيع أن نقول عنه أي شيء طيب لم يقبلوه في الدير بسبب مشروباته القوية والآن أصبح يشرب أكثر من جراء الحزن إنني أنوي الذهاب إلى رئيس النبلاء للشكوى تصور إنه فتح الصناديق عدة مرات واستولى على جهاز مانيتشكا وتبرع به للسائلين بدد محتويات صندوقين وإذا استمر الحال هكذا فستبقى أبنتى مانيتشكا بدون جهاز اطلاقاً فقالت مانيتشكا وهي تشعر بالخجل - : ماذا تقولين حضرته قد يتصور الله يعلم ماذا أنا لن أتزوج أبداً، أبداً .

وتطلعت مانيتشكا إلى السقف بإلهام وأمل، ويبدو أنها لم تكن تؤمن بما تقولهوفي المدخل مرق ظل لرجل صغير بصلعة كبيرة وفي سترة بنية، ينتعل خفاً بدلاً من الحذاء، وخشخش هناك كالفأر وقلت لنفسي: لابد أنه يجور سيميونتش ونظرت إلى الأم و ابنتها معا لقد هرمنا كلتاهما بشدة وهزلتا وتموج رأس الأم بلون فضى، أما ابنتها فانطفأ لونها وذبلت، وبدا وكأن الأم لا تكبرها إلا بخمس سنوات لا أكثر .

-إني أنوي الذهاب إلى رئيس النبلاء قالت العجوز وقد نسيت أنها تحدثت عن ذلك من قبل أريد أن أشتكى له يجور سيميونتش يستولى منا على كل ما نخيطه، ويتبرع به في مكان ما للتكفير عن ذنوبه ابنتي مانيتشكا أصبحت بدون جهاز .

وتضجرت ما نيتشكا ولكنها لم تنبس بكلمة .

-نضطر إلى خياطة كل شيء من جديد، ونحن والله يعلم لسنا أغنياء .

أنا وهي يتامى ورددت مانيتشكا - :نحن يتامى في العام الماضي ألقت بي المقادير مرة أخرى إلى البيت المعهود وعندما دلفت إلى غرفة الجلوس رأيت العجوز تشيكماسوف كانت جالسة على الكنبة تخيط شيئا ما، وكانت ترتدي فستاناً أسود بحواشي الحداد وجلس بجوارها رجل عجوز في سترة بنية وخف بدلاً من الحذاء وعندما رآني قفز واقفا وركض خارجاً من الغرفة وابتسمت العجوز ردا على تحيتي . وسألتها بعد قليل : ماذا تخيطين؟ فقالت هامسة : سعيدة جدا برؤيتكم ثانية ياسيدى بالفرنسية في الأصل .

هذا قميص سأخيطه وأحمله إلى أبينا لأخبئه عنده، وإلا أخذه يجور سيميونتش أصبحت الآن أخبي كل شيء عند أبينا ثم نظرت إلى صورة ابنتها الموضوعة أمامها على الطاولة، وتنهدت ثم قالت :إننا يتامى

ولكن أين ابنتها؟ أين مانيتشكا؟ لم أسألها لم أشأ أن أسأل هذه العجوز المجللة بسواد الحداد وطوال مكوثي في البيت وأثناء انصرافى لم تخرج مانيتشكا للقائي، ولم أسمع لا صوتها ولا خطواتها الخافتة الوجلة كان كل شيء واضحاً، وتملكني انقباض شديد .

دموع لا يراها العالم

-آه يا سادة يا كرام لو نتعشى الآن

قال القائد العسكري القدم ريبروتيوسوف، وهو رجل طويل نحيف عمود البرق، وكان خارجاً من النادي مع جماعة من أصحابه ذات ليلة مظلمة من شهر أغسطس ومضى يقول - :في المدن المحترمة، مثل ساراتوف، يمكنك دائماً أن تتعشى في النادى، أما هنا، في مدينتنا العفنة تشيرفيانسك، فبخلاف الفودكا والشاي بالذباب لا تحصل على شيء ليس هناك ما هو أسوأ من أن تشرب ولا تجد ما تمر به .

-نعم، لا بأس الآن بشيء ما، هكذا يعني - أمن مفتش المعهد الديني إيفان إيفانيتش دفويتوتشيف وهو يلتف بمعطفه الأصفر اتقاء للريح - الساعة الآن الثانية، والحانات مغلقة، آه لو يعني فسيخة مملحة أو فطر مخلل أو يعنى شيء ما هكذا .

وحرك المفتش أصابعه في الهواء، ورسم على وجهه أكلة، يبدو أنها شهية جداً، لأن كل من نظروا إلى وجهه لعقوا شفاههم وتوقفت الجماعة عن السير وأخذت تفكر وفكرت طويلاً، ولكن تفكيرها لم يتفتق عن شيء يؤكل واضطرت إلى الاكتفاء بالأحلام فقط .

وتنهد نائب مأمور المركز بروجينا - بروجينسكى

وقال - : ياله من ديك رومى عظيم ذلك الذي أكلته بالأمس عند جولوبيسوف بالمناسبة يا سادة ، ألم يزر أحد منكم وارسو؟ هناك يفعلون هكذا يأخذون سمك الشبوط العادي، وهو حي يتلوى، ويلقون به في اللبن ويظل هذا الوغد يعوم في اللبن يوماٍ، وبعد ذلك يغمسونه في القشدة ويقلونه في مقلاة تطشطش وعند ذلك لاحاجة يا أخي لأناناسك أي والله خاصة إذا شربت كأسا أو كأسين تأكل ولا تحس كأنك في غيبوبة الرائحة وحدها تجنن .فأردف ريبروتيوسوف بنبرة مشاركة قلبية :

فإذا أضفت إليه خياراً مملحاً عندما كنا معسكرين في بولندا كان يحدث أن تحشر في جوفك حوالى المائتين من البيلميني مرة واحدة تملأ بها طبقاً كاملاً، وترش عليها الفلفل والشبت والبقدونس ولا أستطيع أن أعبر لكم .

وتوقف ريبروتيوسوف فجأة واستغرق في التفكير تذكر حساء السمك الذي أكله عام ١٨٥٦ في دير الثالوث الأقدس وكانت ذكرى هذا الحساء لذيذة إلى درجة أن القائد العسكرى شم فجأة رائحة السمك وحرك فكيه لا إراديا ولم يلحظ تسرب الوحل إلى خف حذائه وقال - : كلا، لا أستطيع، لا أستطيع أن أصبر أكثر؟ .

سأذهب إلى البيت وأمتع نفسي اسمعوا يا سادة ، فلتأتوا معي أي والله لنشرب كأساً، ونمز بما رزقنا به الله خيار، مرتدلة ونشعل السماور هه؟ لنمز، ونتحدث عن الكوليرا، ونتذكر ما مضى زوجتي نائمة الآن، لن نوقظها سنجلس في هدوء هيا بنا .

ولا حاجة لوصف الإعجاب الذي قوبل به هذا العرض يكفي فقط أن اقول إنه لم يكن لدي ريبروتيوسوف في أي وقت مضى مثل هذه الكثرة من الخيرين كما كان لديه في هذه الليلة .

-سأقطع أذنيك قال القائد العسكري لجندي المراسلة وهو يدخل بالضيوف إلى غرفة الجلوس المظلمة - قلت لك ألف مرة يا حيوان أن تشعل البخور عندما تنام في المدخل اذهب ياغبي وأشعل السماور، وقل لإيرينا أن تحضر أن تحضر من القبو خياراً وفجلاً ونظف بعض الفسيخ وقطع البطاطس دوائر والبنجر أيضاً وكل هذا صب عليه الخل والزيت، يعنى، والمسطردة أيضاً ورش الفلفل فوقه باختصار طبق مزة مفهوم؟ .

وحرك ريبروتيوسوف أصابعه مصورا الخلطة، وأضاف إلى المزة بتعابير وجهه ما لم يستطع أن يضيفه بالكلمات وخلع الضيوف أخفافهم ودلفوا إلى القاعة المظلمة وأشعل صاحب البيت عود ثقاب ففاحت رائحة الكبريت، وأضاء الجدران المزينة بهدايا مجلة نيفا ومناظر البندقية وصورتين للكاتب لاجيتشنيكوف وجنرال ما بعينين مدهوشتين للغاية .

حالا، حالا - همس رب الدار وهو يوسع المنضدة بهدوء سأعد المائدة ثم نجلس ماشا زوجتي مريضة اليوم ارجو المعذرة إذن عندها مرض نسائى ما الدكتور جوسين يقول إن ذلك بسبب أكل الصيام جائز جدا

ولكني أقول لها: يا روحي، ليست المسألة في الأكل ليست المسألة فيما يدخل الفم بل فيما يخرج من الفم فأنت تأكلين أكل الصيام، ولكنك عصبية كما كنت وبدلاً من أن تتعبى جسدك، الأفضل ألا تغضبى، وألا تتفوهي بكلمات ولكنها لا تريد حتى أن تسمع تقول: لقد تعودنا على ذلك منذ الصغر

ودخل جندى المراسلة، ومد عنقه وأسر بشىء ما في أذن رب الدار ولعب ريبروتيوسوف حاجبيه ودمدم بصوت كالخوار : هم نعم هم هكذا عموماً بسيطة حالاً سأعود دقيقة واحدة ماشا أوصدت القبو والخزائن في وجه الخدم وأخذت المفاتيح ينبغي أن أذهب لإحضارها وصعد ريبروتيوسوف على أطراف أصابعه، وفتح الباب بهدوء، ودخل على زوجته كانت نائمة وقال وهو يقترب بحذر من السرير : - با ماشا استيقظي دقيقة واحدة يا ماشا من؟ أهو أنت؟ ماذا تريد؟ .

-أنا يا ماشنكا بخصوص الأكل أعطينى يا ملاكي المفاتيح ولا تقلقي نامى مطمئنة أنا سأهتم بهم سأعطى كلاً منهم خيارة، ولن أبدد أكثر من ذلك شيئاً أقسم لك هناك دفويتوتشيف، أتدرين، وبروجينا - بروجينسكي وآخرون كلهم أشخاص رائعون محترمون في المجتمع أتدرين بروجينسكى يحمل وسام فلاديمير من الطبقة الرابعة أوه، كم يحترمك - أين سكرت إلى هذا الحد؟ .

ها أنت ذي تغضبين يا سلام عليك سأعطى كلاً منهم خيارة ، وهذا كل شيء وسينصرفون أنا سأهتم بهم ولن نزعجك أبدًا نامى يا لعبتى هه ، وكيف صحتك؟ هل جاء جوسين فى غيابى؟ انظري، ها أنا ذا أقبل يدك والضيوف كلهم، كم يحترمونك دفويتوتشيف رجل متدين، أتدرين وبروجينا، والصراف أيضاً كلهم يكنون لك أطيب المشاعر يقولون: ماريا بتروفنا ليست امرأة بل شيء عسير على الفهم إنها كوكب إقليمنا.

-ارقد كفاك هذرا يسكر هناك في النادي مع صعاليكه ثم يروح يغلى طول الليل ألا تخجل عندك أولاد .

-أنا عندي أولاد، ولكن أرجوك ألا تغضبى يا ماشا لا تحزني إنني أقدرك وأحبك والأولاد إن شاء الله سأدبر أمورهم ميتيا سأدخله المدرسة لا أستطيع أن أطردهم لا يليق جاءوا ورائي وطلبوا أن يتعشوا قالوا: نريد أن نأكل، أطعمنا دفويتوتشيف وبروجينا بروجينسكى ناس ظرفاء جداً كم يقدرونك ويعطفون عليك فلنعط كلاً منهم خيارة، وكأساً، وليمضوا في سبيلهم أنا سأتكفل بهم .

-اللعنة ماذا، هل جننت؟ أي ضيوف في هذه الساعة؟ ألا يخجلون، هؤلاء الشياطين المتسولون، يزعجون الناس في الليالي من سمع بضيوف يأتون في الليل؟ هل يظنون بيتنا حانة؟ سأكون حمقاء لو أعطيتك المفاتيح فليفيقوا وليعودوا غدا؟ .

هم هلا قلت هذا من البداية إذن لما تذللت أمامك إذن فأنت الست بشريكة العمر، لست سلوى زوجك كما جاء في الكتاب ، بل من العيب أن أقول كنت أفعي وظللت أفعى .

-آه وتشتم أيضاً يا وغد؟ ونهضت الزوجة وحك القائد العسكرى خده، ومضى يقول :

-ميرسى صحيح ما قرأته في إحدى المجلات : بين الناس قديس، ومع زوجها إبليس عين الحقيقة كنت إبليس، وظللت إبليس خذ، خذ

-اضربى، اضربي اضربى زوجك الوحيد ولكني أرجوك، أتوسل إليك يا ماشا سامحيني أعطيني المفاتيح ماشا، يا ملاكى يا معذبتي الشريرة، لا تفضحيني أمام الناس أيتها المتوحشة، إلى متى ستعذبينى؟ اضربي اضربي أرجوك بل أتوسل إليك .

واستمر حديث الزوجين بهذه الصورة طويلا ركع ريبروتيوسوف على ركبتيه، وبكى مرتين، وسب وهو يحك خده بين الحين والحين وانتهى الأمر بأن نهضت زوجته وبصقت وقالت - :يبدو لن تكون نهاية لعذابى أعطني فستانى من على المقعد أيها الكافر .

وقدم لها ريبوتيوسوف الفستان بحرص، وسوى شعره، وذهب إلى ضيوفه كان الضيوف واقفين أمام صورة الجنرال يتطلعون إلى عينيه المندهشتين

وهم يقررون مسألة:من الأكبر الجنرال أم الكاتب الاجيتشنيكوف؟ وكان دفويتوتشيف في صف لاجينشنيكوف، مشدداً على الخلود أما بروجينسكى فقد قال :

-بالطبع هو كاتب جيد، لا شك في هذا ويكتب فيثير الضحك والشفقة، ولكن لو أرسلته إلى الجبهة فلن يستطيع قيادة حتى سرية، أما الجنرال فلتعطه ولو فيلقا كاملاً ، لن يهمه وقال رب الدار وهو يدخل مقاطعاً: - زوجتي ماشا ستأتي الآن حالاً.

لقد أزعجناكم حقا يا فيودر أكيميتش، ماذا حدث لخدك؟ يا إلهي، وتحت عينك كدمة أين حصلت على هذا؟ فقال رب الدار محرجًا

خدى؟ أين خدى؟ آه، نعم لقد ذهبت الآن إلى ماشا متسللاً أردت أن أخيفها، وإذا بي اصطدم في الظلام بالسرير ها ها ها هي ذى ماشا أوه كم أنت مشعثة يا عزيزتنى مثل لويزا ميشيل تماماً.

دخلت ماريا بتروفنا إلى القاعة، مشعثة الشعر، نعسانة، ولكنها متهللة ومرحة وقالت :

-هذا لطيف منكم إذ جئتم إلينا إذا كنتم لا تأتون إلينا في النهار فشكراً لزوجي الذي جاء بكم ولو ليلاً كنت نائمة، وإذا بي أسمع أصواتا فقلت لنفسي : باترى من هؤلاء؟لقد أمرني فيديا أن أرقد وألا أخرج، ولكني لم أطق وهرولت الزوجة إلى المطبخ

وبدأ العشاء وعندما خرجوا بعد ساعة من دار القائد العسكري قال بروجينا- بروجينسكي وهو يتنهد :

-ما أطيب أن تكون متزوجاً تأكل عندما تريد، وتشرب وقتما تشاء وتعلم أن هناك مخلوقا يحبك ويلعب لك على البيانو شيئاً ما، هكذا ما أسعد ريبروتيوسوف .

أما دفويتوتشيف فلزم الصمت كان يتنهد ويفكر وعندما وصل إلى البيت وراح يخلع ملابسه، تنهد بصوت عال حتى أنه أيقظ زوجته .

-لا تدق بحذائك أيها الرحى - قالت زوجته - تمنعني من النوم يشرب حتى السكر في النادي ثم يثير الضجة، هذا المسخ فتنهد المفتش قائلاً :

-لا تعرفين سوى السباب لو أنك رأيت كيف يعيش آل ريبروتيوسوف ما أروع حياتهم عندما ينظر المرء إليهم يود لو يبكى من التأثر أنا وحدى التعيس إذ بليت بشمطاء مثلك أفسحي .

وتغطى المفتش بالبطانية ، ونام وهو يشكو في سره حظه البائس .

مع سبق الإصرار

أمام المحقق يقف فلاح صغير، نحيف للغاية، في قميص مخطط وسروال مرقع ويبدو على وجهه الذي غطاه الشعر وأكله النمش، وعينيه اللتين لا تكادان تظهران من تحت حاجبيه الكثيفين المتهدلين، تعبير صرامة عابسة وعلى رأسه كومة من الشعر الملبد الذي لم يمشط منذ زمن طويل، مما يضفي عليه مزيداً من الصرامة العنكبوتية وهو حافي القدمين .

ويبدأ المحقق :

-دينيس جريجوريف اقترب وأجب عن أسئلتي في السابع من يوليو الجاري كان حارس السكة الحديدية إيفان سيميونوف أكينفوف يقوم بالتفتيش صباحاً على الخط فوجدك عند الكيلو ١٩١ متلبساً بفك صامولة من الصواميل التي تثبت بها القضبان على الفلنكات وها هي ذي الصامولة وقد قبض عليك ومعك هذه الصامولة هل هذا هو ما حدث؟ .

-آه ؟ -هل حدث هذا كما ذكر أكينفوف؟ -معلوم، حصل - طيب، ولأي غرض فككت الصامولة؟

-آه؟ - دعك من آهك هذه وأجب عن السؤال : لأي غرض فككت الصامولة؟

يقول دينيس بصوت أبح وهو يتطلع إلى السقف : - لو لم أكن بحاجة إليها

ما فككتها - وما حاجتك إلى الصامولة؟ - الصامولة؟ نحن نصنع منها ثقالات السنانير - ومن هؤلاء نحن؟ - نحن، الناس فلاحو الناحية يعنى اسمع يا أخانا، لا تتظاهر بالغباء وتكلم بصراحة كفاك كذباً بخصوص الثقالات .

فيدمدم دينيس وهو يطرف بعينيه :

أنا عمري ما كذبت، فلماذا أكذب الآن وهل يمكن يا صاحب السعادة أن تصيد بدون ثقالة؟ لو وضعت حشرة أو دودة في السنارة فهل يمكن أن تغوص إلى القاع بدون ثقالة؟ - ويضحك دينيس ضحكة قصيرة - أكذب قال وأي فائدة من الطعم إذا بقي طافياً على سطح الماء؟ الفرخ والكراكي والبربوط دائماً تعوم قرب القاع، وإذا عام شيء عند السطح فليس إلا الشيليشبيور وحتى هذا نادر الشيليشبيور لا يعيش في نهرنا هذه السمكة تحب الوسع ولماذا تحدثني عن الشيليشيور؟ - أه؟ طيب، حضرتك سألتني السادة أيضاً عندنا يصطادون بهذه الطريقة حتى أصغر عيل لن يصطاد بدون ثقالة طبعاً الذي لا يفهم هو الذي سيصطاد بدون ثقالة العبيط لا عتب عليه .

-إذن أنت تعترف بأنك فككت هذه الصامولة لكي تصنع منها ثقالة؟ - مضبوط وهل لألعب بها ولكنك تستطيع أن تستخدم للثقالة الرصاص، أو الرش أو أي مسمار .

-الرصاص لن تجده ملقى على الطريق، لازم تشتريه، والمسمار لا ينفع ليس هناك أحسن من الصامولة فهي ثقيلة وبها خرم .

-كيف يتظاهر بالغباء كأنه ولد بالأمس أو هبط من السماء ألا تفهم أيها الأحمق إلى أي شيء يؤدي فك الصواميل؟ لو لم يكتشف الحارس ذلك لكان من الممكن أن يخرج القطار عن القضبان ولمات الناس كنت ستتسبب في قتل الناس .

أعوذ بالله يا صاحب السعادة لماذا أقتلهم؟ وهل نحن لا نعرف ربنا أم أننا أشرار؟ الحمد لله يا صاحب السعادة، أنا عشت حياتي ولم أقتل أحداً ولم أفكر حتى في ذلك يا ساتر يارب ارحمنا كيف تقول ذلك .

-وما رأيك، لماذا تقع حوادث انقلاب القطارات؟ إذا فككت صامولتين أو ثلاثاً وقع الحادث .

ويضحك دينيس ضحكة سخرية قصيرة ويزر عينيه محدقاً في المحقق بارتياب - لا من سنين وكل أهل القرية يفكون الصواميل، وربنا سترها، وحضرتك تقول: انقلاب القطارات .

قتل الناس لو أني خلعت القضيب، أو وضعت مثلاً جذع شجرة بعرض القضبان فيمكن ساعتها ينقلب القطار .

ولكن هذه مجرد صامولة شيء بسيط؟ .

ألا تفهم أن الصواميل تثبت بها القضبان في الفلنكات .

-نحن نفهم هذا إننا لا نفك كل الصواميل نأخذ البعض ونترك الباقى عندنا نظر فاهمين طبعاً ويتثاءب دينيس ويرسم علامة الصليب على فمه ويقول المحقق :

-في العام الماضي خرج قطار عن القضبان هنا مفهوم الآن لماذا - ماذا تقول حضرتك؟ .

-أقول مفهوم الآن لماذا خرج قطار عن القضبان في العام الماضي الآن فهمت أنا السبب؟ .

-سعادتكم من أهل العلم ولذلك تفهمون ربنا أعلم لمن يعطى المفهومية حضرتك عرفت وقدرت، لكن الحارس مثله مثل الفلاح، ليس عنده أي مفهومية، يمسك الواحد من قفاه ويشده طيب الأول عرف وبعدين شد الفلاح فلاح، ومخه فلاحى اكتب أيضاً يا صاحب السعادة، إنه ضربنى مرتين في وجهى وفي صدرى .

-عند إجراء التفتيش وجد عندك صامولة أخرى فأين ومتى فككت هذه الصامولة؟ - حضرتك تقصد الصامولة التي كانت تحت الصندوق الأحمر؟ لا أعرف أين كانت هذه الصامولة، لكنهم وجدوها لديك متى فككتها؟ .

أنا لم أفككها أعطاني اياها إيجناشكا، ابن سيميون الأعور أنا أقصد الصامولة التي تحت الصندوق، أما تلك في الزحافة، في الحوش، فككتها أنا ومتروفان - أي متروفان؟ .

-متروفان بتروف ألم تسمع عنه؟ إنه يصنع الشباك ويبيعها للسادة وهو يحتاج إلى صواميل كثيرة مثل هذه كل شبكة تحتاج إلى حوالي عشر صواميل - اسمع المادة ١٠٨١ من قانون العقوبات تنص على أن كل تخريب متعمد للسكك الحديدية يكون من شأنه تعريض سلامة وسيلة النقل المارة بها للخطر، وفي حالة معرفة الجاني بالعواقب الوخيمة التي سيؤدي إليها فعله فاهم؟ ولابد أنك تعرف إلى أي شيء يؤدي فك الصواميل يعاقب مرتكبه بالنفي والأشغال الشاقة .

طبعا حضرتك أدرى نحن ناس جهلة وهل نحن نفهم؟.

أنت فاهم كل شيء لكنك تكذب، وتتظاهر بالغباء .

ولماذا أكذب؟ اسأل أهل القرية إن كنت لا تصدقني بدون الثقالة لا يصطاد إلا السمك الأبيض، وهل هناك أسوأ من القوبيون، ومع ذلك فلا يمكن صيده بدون الثقالة فيبتسم المحقق قائلا - :أظنك ستحدثني الآن عن الشيلشبيور .

-الشليشبيور لا يعيش في نواحينا نرمي الخيط بدون ثقالة على سطح الماء، والطعم فراشة، ونصطاد الشبوط، وحتى هذا نادر طيب، اسكت .

ويسود الصمت يقف دينيس متململاً، ويحدق في الطاولة ذات المفرش من الجوخ الأخضر ويطرف بشدة وكأنه لا يري أمامه جوخاً بل شمساً والمحقق يدون بسرعة وبعد فترة صمت يسأل دينيس - : هل أنصرف؟ .

-لا، ينبغي أن أرسلك تحت الحراسة إلى السجن يكف دينيس عن الطرف، ويرفع حاجبيه الكثيفين، وينظر إلى المحقق متسائلاً :

-كيف إلى السجن؟ يا صاحب السعادة أنا مستعجل، لازم أروح للسوق ولى عند يجور ثلاثة روبلات ثمن الشحم لازم استلمها .

-اسكت، لا تشوش على .

-إلى السجن لو كنت فعلت ما يستحق السجن لذهبت، ولكن هكذا بدون ذنب ماذا فعلت؟ لم أسرق، وأظن لم أتعارك أما إذا كنت تشك في بخصوص الدين، فلا تصدق العمدة يا صاحب السعادة أرجوك اسأل السيد عضو اللجنة العمدة لا يعرف ربنا . اسكت فيدمدم دينيس :

-أنا ساكت طيب أنا مستعد أحلف اليمين إن العمدة يغالط في الحساب نحن ثلاثة إخوة : كوزما جريجورييف، وبعدين يجور جريجورييف، وأنا دينيس جريجوريف - أنت تشوش على ويصيح المحقق : يا سيميون خذه ويدمدم دينيس بينما يقتاده جنديان قويان خارج غرفة التحقيق :

نحن ثلاثة إخوة والأخ لا يحاسب على ذنب أخيه كوزمالا يدفع وأنا المسئول يا لكم من قضاة مات السيد الجنرال، عليه الرحمة، وإلا لأراكم الويل، أيها القضاة إذا حكمتم فلتحكموا بالعدل، بالمفهومية وليس هكذا بلا ذنب حتى لو حكمتم بالجلد فليكن المهم بالحق، بالأمانة.

الكبش والآنسة

كانت سحنة السيد المحترم الشبعانة اللامعة تنطق بالملل القاتل كان قد غادر لتوه أحضان مورفيوس بعد الظهر ولا يدري ماذا يفعل لم تكن به رغبة في التفكير أو التثاؤب أما القراءة فملها منذ عهد سحيق، وكان الوقت لا يزال مبكرا للذهاب إلى المسرح، ومنعه الكسل من الذهاب للتزحلق فما العمل؟ بم يسلي نفسه؟ .

وأبلغه الخادم يجور هناك آنسة جاءت تسأل عنكم - .آنسة؟ هم ..ترى من هي؟ على العموم سيان، ادعها .

ودخلت غرفة المكتب بهدوء فتاة وسيمة، سوداء الشعر، ترتدى ملابس بسيطة بل وبسيطة جدا وعندما دخلت حيت بانحناءة وأخذت تقول بصوت مرتعش :

-أرجو المعذرة أنا قالوا لي إن حضرتكم إنه من الممكن أن أجدكم في الساعة السادسة فقط .

أنا أنا ابنة مستشار القصر بالتسيف .

(رتبة مدنية في الدرجة السابعة في روسيا القيصرية تعادل رتبة المقدم العسكرية

-تشرفنا تفضلى اجلسى أية خدمة؟ اجلسي لا تخجلي .

-لقد جئتكم في طلب مضت الآنسة تقول وهي تجلس في ارتباك وتعبث بأزرارها بيدين مرتعشتين - لقد جئت لكي أطلب منكم بطاقة سفر مجانية إلى موطني سمعت أنكم تعطون وأنا أريد أن أسافر، وليس معي أنا لست غنية بطاقة من بطرسبرج إلى كورسك.

هم هكذا ولماذا تريدين السفر إلى كورسك؟ ألا يعجبك الحال هنا؟

-لا، هنا يعجبني، ولكن أهلي أريد أن أسافر إلى أهلى لم أرهم منذ مدة طويلة كتبوا لي أن ماما مريضة .

-هم وأنت هنا موظفة أم طالبة؟.

وأخبرته الآنسة بالمكان الذي كانت تعمل فيه وعند من، وكم كانت تتقاضى، وبحجم العمل الذي كانت تؤديه.

-هكذا كنت تعملين نعم، لا يمكن القول إن مرتبك كان كبيراً لا يمكن القول ليس من الإنسانية ألا تصرف لك بطاقة مجانية هم إذن فأنت مسافرة إلى أهلك حسنا، وربما كان لديك في كورسك حبيب، هه؟ حبوب، هيء، هيء، هوء خطيب؟ آه ، تخجلين؟ أوه، لا داعى هذا شيء محمود فلتسافر حان الوقت لكي تتزوجي ومن هو؟ موظف.

-شيء محمود سافري إلى كورسك يقال إنه على بعد مائة فرسخ من كورسك تنتشر رائحة حساء الكرنب وتزحف الصراصير هيء، هيء، هوء لا بد أن الحياة مملة في كورسك هذه؟ لا تخجلى، انزعى القبعة نعم، هكذا يا يجور، هات شايا لا بد أن الحياة مملة في ام و هذه ال أم ما اسمها كورسك؟ .

لم تكن الآنسة تتوقع مثل هذا الاستقبال الرقيق فشع وجهها بالسرور، ووصفت للسيد المحترم كل ما في كورسك من ألوان التسلية وأخبرته أن لديها أخا موظفا، وعمها مدرس، وأبناء أخيها تلاميذ وقدم يجور الشاي وتناولت الآنسة الكوب بوجل، وراحت ترشفه وهي تخشى أن تصدر عنها مصمصة وكان السيد المحترم يتطلع إليها وهو يبتسم بسخرية ولم يعد يشعر بالملل وسألها - :هل خطيبك وسيم؟ وكيف تعرفتما على بعض؟.

وأجابت الآنسة بخجل على هذين السؤالين واقتربت بمجلسها من السيد المحترم في ثقة، وروت له وهي تبتسم كيف تقدم الخطاب هنا في بطرسبرج لخطبتها فرفضتهم تحدثت طويلاً وأنهت حديثها بأن أخرجت من جيبها رسالة من والديها وقرأتها على السيد المحترم ودقت الساعة الثامنة .

-والدك خطه لا بأس به بأية زخارف ينمق الحروف هي، هي حسنا، لقد حان وقت انصرافى لا بد أن المسرح بدأ عرضه وداعا يا ماريا يفيموفنا .

فسألت الآنسة وهي تنهض - : إذن أستطيع أن آمل؟ - ماذا؟ - بأن تعطوني بطاقة مجانية - بطاقة؟ هم ليس لدى بطاقات يبدو أنك أخطأت يا سيدتي .

هي هي، هي أخطأت العنوان، دخلت غير المدخل بالقرب منى يسكن، حقا، أحد العاملين في السكك الحديدية أما أنا فأعمل في بنك يا يجور، مرهم أن يعدو العربة وداعا يا ماريا سيميونوفنا سعيد جداً سعيد جداً.

ارتدت الآنسة معطفها وخرجت وعند المدخل الآخر قيل لها إنه سافر إلى موسكو في السابعة والنصف .

ابنة ألبيون

اقتربت من دار الإقطاعي جريابوف عربة رائعة ذات عجلات من المطاط وحوذى سمين ومقعد من المخمل وقفز من العربة رئيس نبلاء الناحية فيودور أندريتش أتسوف وفي المدخل استقبله خادم نعسان .

وسأل رئيس النبلاء - :السادة في البيت؟ .

-لا يا سيدى السيدة ذهبت مع الأولاد في زيارة ، أما السيد فذهب مع المدموزيل المربية لصيد السمك منذ الصباح .

وقف أتسوف قليلا وفكر، ثم توجه إلى النهر ليبحث عن جريابوف ووجده على بعد فرسخين من البيت حين اقترب من النهر وعندما تطلع أتسوف من الشاطئ المرتفع إلى أسفل ورأى جريابوف ندت عنه ضحكة فقد كان جريابوف، وهو رجل ضخم، ذو رأس كبير جدا، جالسا على الرمل متربعا على الطريقة التركية، يصطاد السمك .

وكانت قبعته منزلقة على قفاه، ومالت رابطة عنقه جانباً وبجواره وقفت إنجليزية طويلة نحيفة بعينين جاحظتين كعينى سرطان البحر وأنف كبير كمنقار الطيور، يبدو أشبه بالشص منه بالأنف وكانت ترتدي فستانا أبيض من الموسلين بدت من خلال نسيجه الشفاف بوضوح كتفاها الصفراوان النحيلتان ومن حزامها الذهبي تدلت ساعة ذهبية

وكانت هي أيضا تصطاد ومن حولهما خيم صمت كصمت القبور كانا كلاهما ساكنين كالنهر الذي طفت عليه عوامتا سنارتيهما.

وضحك أتسوف قائلاً :

-الرغبة كبيرة والنتيجة مريرة مرحبا يا إيفان كوزمنش فقال جريابوف دون أن يحول عينيه عن الماء :

آه أهو أنت؟ وصلت؟ -كما ترى وأنت مازلت تزاول التفاهات لم تتخل عنها بعد؟ .

-يا للشيطان طول النهار أصيد، منذ الصباح الصيد اليوم سيئ لا أدري لماذا لم أصطد شيئاً لا أنا ولا هذه البعبع نجلس ونجلس ولا نمسك حتى بشيطان واحد كارثة . -ابصق على ذلك، هيا نشرب فودكا؟ .

-انتظر ربما اصطدناً شيئا قرب المساء يتحسن الصيد إنني جالس هنا يا أخي منذ الصباح ملل فظيع لا أستطيع أن أصفه لك يا للشيطان الذي جعلني أتعلق بهذا الصيد إنني أعرف إنه هراء، ومع ذلك أجلس أجلس مثل أحد الأوغاد، مثل المحكوم بالأشغال الشاقة، وأحدق في الماء كالأحمق ينبغي أن أذهب للمحصد ولكني أصيد السمك بالأمس في خابونيفو أقام البطريرك قداسا ولم أذهب، بل جلست هنا مع هذه الحفشة مع هذه الشيطانة

-ما هذا هل جننت؟ -قال أتسوف بخجل وهو ينظر ناحية الإنجليزية - تسب في حضرة سيدة بل تسبها هي.

-فلتذهب إلى الشيطان سيان، فهي لا تفقه حرفاً بالروسية سواء بالنسبة لها أن تمدحها أم تسبها انظر إلى أنفها إنه وحده يجعلك تسقط به فاقد الوعى نجلس أياماً طويلة معا فلا تتفوه بكلمة تقف كفزاعة الطيور، وتبحلق في الماء بعيونها الجاحظة .

تثاءبت الإنجليزية وغيرت الطعم، ثم ألقت بالسنارة في الماء ومضى جريابوف يقول :

-إنى أدهش كثيراً يا أخي تعيش في روسيا منذ عشر سنوات ولا تعرف كلمة واحدة بالروسية بينما يذهب أى إقطاعي صغير من عندنا إليهم وعلى الفور يبدأ يرطن بلغتهم أما هم فالشيطان يدري ما هذا؟ انظر إلى أنفها إلى أنفها انظر . حسنا، كفاك هذا محرج ماذا فعلت هذه المرأة حتى تنهال عليها؟.

-إنها ليست امرأة بل آنسة لا بد أنها تحلم بالعرسان هذه الدمية الملعونة تفوح منها رائحة عطن كم أمقتها يا أخي لا أستطيع أن أنظر إليها دون انفعال ما إن تحدق في بعينيها الكبيرتين حتى ينتفض بدنى كله كأن مرفقى ارتطم بالدرابزين إنها أيضا تحب صيد السمك، انظر : إنها تصطاد وتتعبد وتنظر إلى كل شيء باحتقار تقف هذه الماكرة وتحس نفسها إنسانا، أي سيد الطبيعة فهل تدري ما اسمها؟ ويلكا تشارلزوفنا تفايس تفو لا يمكن نطقه .

وعندما سمعت الإنجليزية اسمها حولت أنفها ببطء صوب جريابوف وقاسته بنظرة احتقار ورفعت عينيها عن جريابوف إلى أتسوف وغمرته بالاحتقار أيضا وجرى كل ذلك في صمت وعظمة وبطء .

فقال جريابوف وهو يقهقه :

-هل رأيت؟ كأنها تقول : ها كم آه أيتها البعبع إنني لا أبقى على هذه الدودة إلا من أجل الأطفال ولولاهم لما سمحت لها بالاقتراب من ضيعتي لعشرة فراسخ أنفها بالضبط كمنقار الصقر وخصرها؟ هذه الدمية تذكرني بمسمار طويل أود لو أمسكتها ودققتها في الأرض مهلا يبدو أن سنارتي تغمز.

وقفز جريابوف وشد السنارة وتوتر الخيط وشدها جريابوف مرة أخرى فلم يخرج الشص .

فقال وهو يتأفف : يا للشيطان اشتبكت يبدو اشتبكت بحجر وارتسمت المعاناة على وجه جريابوف وراح يزفر ويتحرك بقلق وهو يدمدم باللعنات ويشد الخيط ولكن الشد لم يعد بنتيجة وامتقع جريابوف، وقال -يا للأسف ينبغي أن أنزل إلى الماء - دعك من هذا

لا يمكن قرب المساء يتحسن الصيد ..يا لها من مهزلة ، فليسامحنى الله . سأضطر إلى نزول الماء، سأضطر وآه لو تعلم كم أنني لا أود نزع ثيابي يجب أن نطرد الإنجليزية من المحرج أن أخلع ملابسي أمامها فهي مع ذلك سيدة

ونزع جريابوف القبعة ورابطة العنق وقال مخاطبا الإنجليزية :

-يا ميس ..يا ميس تفاس جو فو برى كيف أوضح لها؟ كيف أقول لك لكي تفهمى؟ اسمعى إلى هناك أذهبي إلى هناك أتسمعين؟

وغمرت ميس نفايس جريابوف بالاحتقار وصدر عنها صوت أنفى .

-ماذا؟ لا تفهمين؟ أقول لك امشي من هنا أريد أن أخلع ملابسي أيتها المصيبة امشي إلى هناك إلى هناك

وشد جريابوف الميس من ذراعها وأشار لها إلى الخمائل وجلس ، يريد بذلك أن يقول لها : أذهبي إلى الخمائل واختبئى هناك ولعبت الإنجليزية حاجبيها بحيوية وقالت بسرعة جملة إنجليزية طويلة وانفجر الإقطاعيان ضاحكين .

-هذه أول مرة في حياتي أسمع صوتها يا له من صوت إنها لا تفهم ماذا أفعل معها؟ .

-دعك منها هيا بنا نشرب فودكا .

-لا يمكن الصيد الآن سيكون أحسن في المساء ولكن ما العمل؟ يالها من مهزلة سأضطر أن أخلع ملابسي في حضورها .

وألقى جرابوف بالسترة والصديرى، وجلس على الرمل ليخلع حذاءه .

فقال رئيس النبلاء وهو يكتم ضحكة في قبضته - : اسمع يا إيفان كوزميتش، إن هذا يا صديقي تهكم وامتهان - لم يطلب منها أحد ألا تفهم فليكن درساً لهم، لهؤلاء الأجانب؟ .

نزع جريابوف حذاءه ، وتجرد من ملابسه الداخلية وأصبح كما ولدته أمه. وأمسك أتسوف ببطنه واحمر من الضحك والخجل ولعبت الإنجليزية حاجبيها وطرفت عيناها وعلى وجهها الأصفر طافت ابتسامة احتقار متعالية .

وقال جريابوف وهو يربت على فخذيه :

-ينبغي أن أبرد جسمي قليلاً قل لي يا فيودور أندريتش من فضلك، لماذا يظهر الطفح على صدرى كل صيف؟ .

-أسرع بالنزول يا حيوان، أو استر نفسك بشيء، فقال جريابوف وهو ينزل إلى الماء راسماً علامة الصليب :

-لو أنها تخجل هذه الفاجرة برر الماء بارد انظر كيف تلعب حاجبيها ولا تبتعد تتعالى على الغوغاء هي هي هي ولا تعتبرنا بشراً .

وعندما غاص في الماء إلى ركبتيه، شد قامته الهائلة وغمز بعينه قائلا :
-دعها تعلم يا أخي أننا لسنا في إنجلترا .

وغيرت ميس تفايس الطعم ببرود، وتثاءبت، وألقت بالسنارة وحول أتسوف نظره وفك جريابوف الشص المشتبك وغطس في الماء، ثم خرج وهو يشهق، وبعد دقيقتين كان جالساً على الرمل يصطاد من جديد .

المغفلة

منذ أيام دعوت إلى غرفة مكتبي مربية أولادى يوليا فاسيلفنا لكي أدفع لها حسابها .

قلت لها :ـ اجلسى يا. يوليا فاسيليفنا هيا نتحاسب أنت في الغالب بحاجة إلى النقود، ولكنك خجولة إلى درجة أنك لن تطلبيها بنفسك حسنا لقد اتفقنا على أن أدفع لك ثلاثين روبلا في الشهر .

-أربعين .

-كلا، ثلاثين هذا مسجل عندي كنت دائما أدفع للمربيات ثلاثين روبلا حسنا، لقد عملت لدينا شهرين .

-شهرين وخمسة أيام .

-شهرين بالضبط هكذا مسجل عندي إذن تستحقين ستين روبلا نخصم منها تسعة أيام آحاد فأنت لم تعملي كوليا في أيام الآحاد بل كنت تتنزهين معه فقط ثم ثلاثة أيام أعياد .

تضجر وجه يوليا فاسيليفنا، وعبثت أصابعها بأهداب الفستان ولكن لم تنبس بكلمة

-نخصم ثلاثة أعياد، إذن المجموع اثنا عشر روبلاً وكان كوليا

مريضا أربعة أيام ولم تكن دروس كنت تدرسين لفاريا فقط وثلاثة أيام كانت أسنانك تؤلمك فسمحت لك زوجتي بعدم التدريس بعد الغداء إذن اثنا عشر زائد سبعة - تسعة عشر نخصم، الباقى هم واحد واربعون روبلا مضبوط؟ احمرت عين يوليا فاسيليفنا اليسرى وامتلأت بالدمع، وارتعش ذقنها .

وسعلت بعصبية وتخطت، ولكن لم تنبس بكلمة .

-قبيل رأس السنة كسرت فنجانا وطبقا نخصم روبلين الفنجان أغلى من ذلك، فهو موروث، ولكن فليسامحك الله علينا العوض نعم، وبسبب تقصيرك تسلق كوليا الشجرة ومزق سترته نخصم عشرة وبسبب تقصيرك أيضا سرقت الخادمة من فاريا حذاء ومن واجبك أن ترعى كل شىء، فأنت تتقاضين مرتبا .وهكذا نخصم أيضا خمسة وفي ١٠ يناير أخذت مني عشرة روبلات فهمست يوليا فاسيليفنا :

-لم آخذ ولكن ذلك مسجل عندى -طيب، ليكن من واحد وأربعين نخصم سبعة وعشرين الباقى أربعة عشر.

امتلأت عيناها الاثنتان بالدموع. وطفرت حبات العرق على أنفها الطويل الجميل يا للفتاة المسكينة .

وقالت بصوت متهدج - : أخذت مرة واحدة أخذت من حرمكم ثلاثة روبلات لم آخذ غيرها .

حقا؟ انظر، وأنا لم أسجل ذلك نخصم من الأربعة عشر ثلاثة ، الباقي أحد عشرها هي ذي نقودك يا عزيزتي ثلاثة ثلاثة ثلاثة ثلاثة واحد، واحد تفضليمددت لها أحد عشر روبلا فتناولتها ووضعتها في جيبها بأصابع مرتعشة وهمست :

- Merci فانتفضت واقفاً وأخذت أروح وأجيء في الغرفة واستولى على الغضب .

سألتها Merci - : على ماذا؟ - على النقود - يا للشيطان، ولكني نهبتك، سلبتك لقد سرقت منك فعلام تقولين Merci

-في أماكن أخرى لم يعطوني شيئا .

- لم يعطوك؟ ليس هذا غريبا لقد مزحت معك ، لقنتك درسا قاسيا سأعطيك نقودك، الثمانين روبلا كلها ها هي ذي في المظروف جهزتها لك ولكن هل يمكن أن تكوني عاجزة إلى هذه الدرجة؟ لماذا لا تحتجين؟ لماذا تسكتين؟ هل يمكن في هذه الدنيا ألا تكونى حادة الأنياب؟ هل يمكن أن تكوني مغفلة إلى هذه الدرجة؟

ابتسمت بعجز فقرأت على وجهها: يمكن سألتها الصفح عن هذا الدرس القاسي وسلمتها، لدهشتها البالغة ، الثمانين روبلا كلها فشكرتنى بخجل وخرجت وتطلعت في إثرها وفكرت : ما أسهل أن تكون قوياً في هذه الدنيا

القناع

أقيم في نادي س الاجتماعى حفل تنكرى لغرض خيرى .

كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً وجلس المثقفون غير الراقصين وكانوا خمسة في قاعة المطالعة إلى طاولة كبيرة ودسوا أنوفهم ولحاهم في الجرائد وراحو يقرأون وينعسون، ويفكرون على حد تعبير المراسل المحلى الجرائد العاصمة، وهو سيد ليبرالي جداً .

وتناهت من الصالة العامة أنغام رقصة فيوشكى ومن حين لآخر كان الخدم يهرولون بجوار الباب وهم يدقون عاليا بأقدامهم ويثيرون رنين الأواني بينما كان الصمت العميق يسود قاعة المطالعة .

وفجأة تردد صوت غليظ مكتوم بدا وكأنه صادر من المدفأة يبدو أن المكان هنا سيكون مناسباً تعالوا هنا يا أولاد تعالوا، تعالوا

وفتح الباب، ودخل قاعة المطالعة رجل عريض، ربعة، يرتدي حلة حوذي وقبعة بريش طاووس وقناعاً وتبعته سيدتان مقنعتان وخادم يحمل صينية وكان على الصينية زجاجة ليكير منبعجة وثلاث زجاجات نبيذ أحمر وبضعة أكواب .

وقال الرجل - :تعالوا الجو هنا أبرد ضع الصينية على الطاولة اجلسن يا مود موزيلات جى فو برى، أما أنتم يا سادة فلتفسحوا هيا من هنا وتمايل الرجل وأزاح بيده عدة مجلات من على الطاولة .

ضع هنا أما أنتم أيها السادة القراء فلتفسحوا لا وقت هنا لقراءة الجرائد والسياسة دعوا عنكم هذا فقال أحد المثقفين وهو ينظر إلى صاحب القناع من خلال نظارته :

-الزم الهدوء من فضلك هذه قاعة مطالعة وليس بوفيه ليس هذا مكاناً للشرب .

-ولماذا ليس مكاناً؟ هل الطاولة تتأرجح أم رجماً السقف يتساقط؟ شيء عجيب حسناً لا وقت عندي للحديث اتركوا الجرائد يكفيكم ما قرأتم أنتم هكذا أذكياء أكثر من اللازم، كما أنكم تتلفون أبصاركم وأهم ما في الأمر أنني لا أريد انتهينا.

ووضع الخادم الصينية على الطاولة، وطوى الفوطة على ذراعه ووقف بجوار الباب وشرعت السيدتان فوراً في تناول النبيذ الأحمر .

وقال الرجل ذو ريش الطاووس وهو يصب لنفسه ليكيرا :

-كيف يوجد أناس أذكياء يعتبرون الجرائد أفضل من هذه المشروبات أما أنا فأرى أيها السادة المحترمون أنكم تحبون الجرائد لأنكم لا تملكون ما تشربون به، أليس كذلك؟ ها ها إنهم يقرأون حسنا وما هو المكتوب هناك؟ أيها السيد ذو النظارة ، أية وقائع تقرأ؟ ها ها دعك من ذلك كفاك تمنعاً اشرب أفضل .

ونهض الرجل ذو ريش الطاووس وانتزع الجريدة من يدى السيد ذى النظارة، فامتقع هذا، ثم تضجر ونظر بدهشة إلى بقية المثقفين، ونظر هؤلاء إليه .

وانفجر قائلاً :

-إنك تتجاوز حدودك يا سيدي المحترم إنك تحول قاعة المطالعة إلى حانة أنك تسمح لنفسك بالعربدة واختطاف الجرائد من الأيدي لن أسمح لك أنت لا تعرف مع من تتحدث يا حضرة المحترم أنا جيستياكوف، مدير البنك

-طظ، فلتكن جيستياكوف أما جريدتك فها هي ذي قيمتها ورفع الرجل الجريدة ومزقها قطعاً ودمدم جيستياكوف مصعوقاً - :ما هذا يا سادة؟ هذا شيء غريب هذا هذا غير معقول فضحك الرجل قائلاً :

-سيادته زعلان آى، آي، أخفتنى أقدامى ترتعش، اسمعوا أيها السادة المحترمون كفى مزاحا أنا لا أرغب في الحديث معكم ولما كنت أريد أن أبقى هنا مع المدموزيلات على انفراد وأريد أن أمتع نفسي

لذلك أرجوكم ألا تحزنوا ولتخرجوا تفضلوا من هنا يا سيد بيليبوخين اخرج من هنا في ألف داهية ما لك تقلب سحنتك؟ أقول لك اخرج يعنى تخرج هيا عجل وإلا أهويت على قفاك فتساءل بيليبوخين صراف المحكمة وهو يحمر ويهز كتفيه :

كيف؟ ما معنى هذا؟ أنا حتى لا أفهم شخص وقح يقتحم علينا المكان وفجأة يتفوه بهذه الأشياء .

فصاح الرجل ذو ريش الطاووس غاضباً، ودق بقبضته على المائدة حتى تراقصت الأكواب على الصينية :

ماذا تقول؟ وقح؟ لمن تقولها؟ أتظن أنني ما دمت في القناع فبوسعك أن توجه لى مختلف الكلمات؟ بالك من مشاغب اخرج من هنا أقول لك يا مدير البنك، انكشح من هنا بالمعروف اخرجوا جميعاً إياكم أن يبقى منكم لئيم هنا غوروا في ألف داهية .

فقال جيستياكوف الذي غامت نظارته من شدة الانفعال : حسنا، سنرى الآن سأريك إيه، استدع الشاويش المناوب .

وبعد دقيقة دخل شاويش صغير أحمر الشعر بشريط أزرق على باقة سترته وهو يلهث من الرقص، وقال - : تفضلوا بالخروج ليس هذا مكاناً للشرب تفضلوا في البوفيه وسأل الرجل ذو القناع: - من أين جئت أنت؟ هل أنا دعوتك؟ - أرجو أن تخاطبني باحترام، وتفضل بالخروج؟ .

- اسمع يا عزيزى سأمهلك دقيقة وطالما أنت شاويش وشخصية مهمة، فلتسحب هؤلاء الممثلين من أيديهم مدموزيلاتي لا يعجبهن وجود غرباء هنا يشعرن بالخجل، وأنا أريد مقابل نقودي أن يكن في حالتهن الطبيعية .

وصاح جيستياكوف :

-يبدو أن هذا المأفون لا يفهم أنه ليس في حظيرة استدعوا يفسترات سبيريدونتش .

وترددت في النادي - : يفسترات سبيريدونتش أين يفسترات سبيريدر نتش؟ وسرعان ما ظهر بفسترات سبيريدونتش، وهو عجوز يرتدي حلة شرطى وصاح بصوت مبحوح وهو يبحلق بعينيه المرعبتين ويحرك شواربه المصبوغة :

- تفضل بالخروج من هنا فقال الرجل وهو يقهقه من المتعة :

آه، لقد أرعبتنى أي والله أرعبتنى أقسم لكم إنني لم أر شيئاً رهيباً كهذا شواربه كشوارب القط، وعيناه جاحظتان ها ها ها ها ها ها فصاح يفسترات سبيريدونتش بكل قوته واهتز بدنه :

-ممنوع الكلام اخرج من هنا سأمر بطردك وارتفع في قاعة المطالعة صخب لا مثيل له كان يفسترات سبيريدونتش يصرخ ويدق بقدميه وقد احمر كسرطان البحر وكان جسيتياكوف يصرخ

وكان يبلويبوخين يصرخ كان جميع المثقفين يصرخون، ولكن غطى على أصواتهم جميعاً صوت الرجل ذي القناع، الغليظ الأجش وبسبب الهرج العام توقف الرقص، وتقاطر الناس من الصالة إلى قاعة المطالعة .

ولكي يظهر بفسترات سبيريدونتش هيبته استدعى جميع رجال الشرطة الموجودين في النادي، وجلس ليكتب محضراً .

فقال ذو القناع وهو يدس أصبعه تحت القلم :

-اكتب، اكتب يالى من مسكين، ترى ماذا سيحدث لي الآن؟ يالحظي البائس حرام عليكم ما تفعلونه بيتيم مثلي ها ها ها حسناً، ماذا؟ هل محضرك جاهز؟ هل وقع الجميع؟ فلتنظروا الآن إذن واحد اثنان ثلاثة ونهض الرجل ومد قامته بطولها ونزع القناع عن وجهه وبعد أن كشف وجهه الثمل وطاف بنظرة على الجميع مستمتعاً بما أحدثه من تأثير ، تهاوى على الكرسي وقهقه بفرح وبالفعل كان التأثير الذي أحدثه غير عادى تبادل المثقفون النظرات في ارتباك وامتنعت وجوههم، وحك بعضهم قفاه وتحشرج يفسترات سبيريدونتش كالشخص الذي ارتكب عفواً حماقة كبيرة .

لقد عرف الجميع في هذا الرجل الهائج المليونير المحلى صاحب المصانع والمواطن العريق المحترم بينيجوروف، المعروف بفضائحه وبأعماله الخيرية، وكما ذكرت الجريدة المحلية غير مرة، بحبه للمعرفة .

وبعد دقيقة من الصمت سأل بيتيجوروف: - حسناً هل ستنصرفون أم لا؟ وخرج المثقفون من غرفة المطالعة على أطراف أصابعهم في صمتدون أن يتفوهوا بكلمة، فأوصد بيتيجوروف الباب خلفهم .

وبعد دقيقة كان يفسترات سبيرودونتش يفح هامساً وهو يهز كتف الخادم الذي حمل الخمر إلى قاعة المطالعة :

-لقد كنت تعلم أنه بينيجوروف، لماذ سكت؟ - أمرني ألا أقول .

-أمره ألا يقول سأسجنك أيها الملعون شهراً وعندئذ ستعرف ما معنى أمرني ألا أقول، اخرج وقال مخاطباً المثقفين وأنتم أيضا يا سادة ما أحلاكم أعلنوا العصيان لم يكن في استطاعتكم أن تخرجوا من قاعة المطالعة لعشرة دقائق حسنا، تحملوا إذن مسئولية ما صنعتم آه يا سادة، يا سادة هذا لا يجوز وسار المثقفون في النادي مقهورين، ضائعين، مذنبين يتهامسون ويتوقعون شراً وعندما عرفت زوجاتهم وبناتهم بالحادث أخلدن إلى السكون وتفرقن عائدات إلى بيوتهن وتوقف الرقص .

وفي الساعة الثانية خرج بيتيجوروف من قاعة المطالعة ؛ كان ثملاً يترنح وعندما دخل الصالة جلس بقرب الأوركسترا ونعس على أنغام الموسيقى ثم أمال رأسه بحزن وعلا شخيره .

وأشاح الشاويشيه بأيديهم للعازفين : - لا تعزفوا هس يجور نيليتش نائم وسأل بيليبوخين وهو ينحني على أذن المليونير : - هل تأمرون بتوصيلكم إلى البيت يا يجور نيليتش؟ وندت عن شفتى بيتيجوروف حركة وكأنه يريد أن ينفخ ذبابة عن خده وعاد بيليبوخين يسأل : - هلا تأمرون بتوصيلكم إلى البيت؟ أم باستدعاء العربة؟ .

- هه؟ من؟ أنت ماذا تريد؟ - أريد أن أوصلكم حان وقت النوم - أريد أن أذهب أوصلني.

وتهلل بيليبوخين من الرضا وشرع ينهض بيتيجوروف وأسرع إليه بقية المثقفين، وأنهضوا المواطن الأصيل المحترم وهم يبتسمون بسرور، وساروا به بحذر إلى العربة . وقال جيستياكوف مرح وهو يجلسه :

-لا يستطيع أن يضحك على جماعة كاملة إلا ممثل موهوب أنا مأخوذ حقاً يا يجور نيليتش حتى الآن مازلت أضحك ها ها كنا نغلي ونتلمظ ها ها هل تصدقون؟ لم أضحك أبداً في المسرح مثلما ضحكت اليوم فكاهة بلا حدود سأظل طول عمري أذكر هذه الأمسية التي لا تنسى .

وبعد أن أوصل المثقفون بيتيجوروف عاودهم المرح والاطمئنان وقال جيستياكوف وهو سعيد جداً :لقد مد لى يده عند الوداع إذن فليس غاضباً فتنهد يفسترات سبير ويدونتش :

-يسمع منك ربنا إنه رجل وغد، حقير، ولكنه محسن.. لا يصح.

الصول بريشيبييف

-الصول بريشيبييف أنت متهم بأنك في الثالث من سبتمبر الجاري أهنت بالقول والفعل الدركى جيجين وشيخ الناحية اليابوف وشيخ الخفراء بفيموف، والشاهدين إيفانوف وجافريلوف، وستة آخرين من الفلاحين، علماً بأنك اعتديت على الثلاثة الأول أثناء قيامهم بأداء مهامهم الرسمية مذنب أم غير مذنب؟ .

يقف الصول بريشيبييف، وهو رجل مكرمش، بوجه شائك، شاداً يديه إلى جنبيه في وقفة انتباه، ويجيب بصوت أبح مخنوق، مشدداً على كل كلمة وكأنما يصدر الأوامر :

-يا صاحب السعادة، يا سيادة قاضي الناحية معلوم أن القانون في جميع مواده ينظر في تكييفه للحوادث انطلاقا من حجج الطرفين لست أنا المذنب بل هم جميعاً وكل ذلك حدث بسبب تلك الجثة الميتة، عليها الرحمة كنت سائراً في الثالث من الشهر مع زوجتي أنفيسا في هدوء ووقار وإذا بى أرى مجموعة من مختلف الناس متجمهرة على الشاطئ فتساءلت: بأى حق اجتمع الناس هنا؟ لأي غرض؟ وهل ينص القانون على أن يسير الناس كالقطيع؟ وصحت: تفرقوا وأخذت أدفع الناس لكى ينصرفوا إلى بيوتهم، وأمرت شيخ الخفراء أن يفرقهم بالقوة

عفواً، ولكنك لست الدركى ولا العمدة فهل من شأنك تفريق الناس؟ .

وتردد أصوات من شتى أنحاء القاعة :

-ليس شأنه ليس شأنه سمم علينا حياتنا يا صاحب السعادة خمس عشرة سنة ونحن نتحمله من يوم أن جاء من الخدمة والحياة لا تطاق عذب الجميع ويقول الشاهد العمدة :

صحيح يا صاحب السعادة ، كل الناس يشكون منه الحياة معه مستحيلة سواء في الأعياد الدينية، أم في الأعراس، أم عندما يحدث حادث ما، تجده دائماً يصيح ويزمجر ويفرض علينا نظامه ويشد الأولاد من آذانهم، ويتلصص على النساء خشية أن يحدث شيء وكأنه حمو كل زوجة منذ فترة قريبة طاف بالبيوت وأمرنا بألا نغني الأغاني أو نشعل الضوء ويقول إنه لا يوجد قانون ينص على غناء الأغاني .

فيقول قاضي الناحية :

-انتظر، سيأتي دورك في الشهادة ، أما الآن فليكمل بريشيبيف أكمل يا بريشيبيف .

فيقول الصول بصوته الأبح حاضر يا أفندم حضرتك تقول إنه ليس من شأنى تفريق الناس طيب وإذا حدث اضطراب؟ هل من المعقول أن نسمح للناس بالعبث؟ أين هو القانون الذي ينص على إطلاق أيدي الناس؟

أنا لا أستطيع أن أسمح بذلك وإذا لم أقم أنا بتفريقهم وتغريمهم فمن الذي سيفعل ذلك؟ لا أحد يعرف النظام المضبوط أنا وحدي في القرية كلها يا صاحب السعادة الذي يعرف كيف يتعامل مع الناس البسطاء، أنا وحدي أستطيع أن أفهم كل الأمور يا صاحب السعادة أنا لست فلاحاً، أنا صف ضابط، صول متقاعد، كنت أخدم في وارسو، في هيئة الأركان، وبعد ذلك، لما أحالوني إلى التقاعد، عملت في المطافئ، ثم عملت بواباً لمدة سنتين في مدرسة ثانوية للبنين أنا أعرف كل النظم أما الفلاح فشخص بسيط، لا يفهم شيئا وينبغي أن يطيعنى، لأن ذلك من مصلحته خذ مثلاً هذه القضية كنت أفرق الناس، وعلى الشاطئ، على الرمال، جثة غريق ميت إني أتساءل بأى حق ترقد هذه الجثة هنا؟ وهل هذا يتفق والنظام؟ لماذا لم يتحرك الدركى؟ قلت له : لماذا لم تخطر الرؤساء؟ ربما كان المرحوم الغريق غريقاً، وربما تفوح في الجو رائحة سيبيريا ربما كانت هذه جريمة قتل ولكن الدركى جيجين لا يبالي أبداً، بل يدخن فقط ويقول: من هذا الأمر عندكم؟ من أين جئتم به؟ أم إننا بدونه لانعرف كيف نؤدى عملنا؟ فقلت له : إذن فأنت لا تعرف أيها الأحمق طالما تقف هكذا ولا تبالي فقال : منذ أمس أخطرت رئيس الشرطة المحلية فسألته: ولماذا أخطرت رئيس الشرطة المحلية؟ حسب أية مادة في القوانين؟ ألا تعرف أنه في مثل هذه الأحوال، في حالة الغرق أو الخنق وغيرها من الأحوال لا يستطيع رئيس الشرطة المحلية أن يتصرف؟

القضية هنا جريمة قانون مدني القضية هنا تستدعى إخطار السيد وكيل النيابة والقضاة وقبل كل شيء عليك أن تكتب محضراً وترسله إلى السيد قاضي الناحية ولكنه أخذ يسمع ويضحك والفلاحون أيضاً كلهم ضحكوا ياصاحب السعادة أقسم على ذلك هذا ضحك أيضاً، وذلك الواقف هناك ، وجيجين ضحك فقلت لهم: ما لكم تسخرون؟ فقال الدركى :قاضى الناحية لا يفصل في هذه القضايا هذه الكلمات جعلتني أرتعش كالمحموم - وقال الصول مخاطبا الدركي: ألم تقل ذلك؟ .

-قلت - الجميع سمعك وأنت تقولى أمام العامة: قاضي الناحية لا يفصل.

في هذه القضايا سمعك الجميع وأنت تقولها ارتعشت كالمحموم يا صاحب السعادة، بل إني تجمدت رعباً قلت له : أعد أيها الوغد ما قلت فأعاد هذه الكلمات نفسها فاقتربت منه وقلت له : كيف تجرؤ على قول هذا عن حضرة قاضي الناحية؟ أنت دركى شرطة وتقف ضد السلطة؟ هه؟ ألا تعرف أن سيادة قاضي الناحية إذا شاء يستطيع أن يحيلك إلى إدارة شرطة المحافظة جزاء على هذه الكلمات وبسبب عدم ولائك؟ ألا تعرف إلى أين يستطيع سيادة قاضي الناحية أن يرسل بك جزاء على مثل هذا الكلام السياسي؟ فإذا العمدة يقول: قاضي الناحية لا يستطيع أن يتجاوز حدوده هو يفصل في القضايا الصغيرة فقط هكذا قال ، وقد سمعه الجميع فقلت له : كيف تجرؤ على تحقير السلطة؟ إياك أن تمزح معي وإلا كانت عاقبتك سيئة فأيام كنت أخدم في وارسو

وأيضاً عندما كنت بواباً في مدرسة البنين الثانوية، كنت ما إن أسمع كلمات غير مناسبة حتى أتطلع إلى الشارع بحثاً عن شرطي ثم أدعوه: تعال هنا يا فارس، وأخبره بكل شيء أما هنا في القرية فمن الذي تقول له؟ استبد بى الغضب أحنقني أن ناس هذه الأيام تمادو في التصرف على هواهم والخروج عن الطاعة فرفعت قبضتى وضربته طبعا ليس بقوة، بل هكذا، على خفيف، حتى لا يجرؤ على التفوه بهذه الكلمات عن معاليكم وتدخل الدركى دفاعا عن العمدة وطبعا ضربت الدركى ثم تطورت الأمور لم أضبط أعصابى يا صاحب السعادة ولكن كيف يمكن للمرء ألا يضرب؟ إذا لم تضرب الشخص الغبي فأنت ترتكب ذنبا خاصة إذا كان يستحق إذا كان هناك اضطراب .

عفوا، هناك أشخاص مسئولون عن منع الاضطرابات هناك الدركى والعمدة وشيخ الخفراء .

-الدركي لا يستطيع أن يحيط بكل شيء، كما أنه لا يفهم ما أفهمه أنا .

-فلتفهم أن هذا ليس من شأنك . ماذا؟ كيف ليس من شأنى؟ غريب .

الناس يثيرون الفوضى وهذا ليس من شأنى حسنا، هل أمتدحهم على ذلك؟ ها هم يشكون لكم من أنني منعت الغناء أي فائدة من هذه الأغانى؟ بدلاً من القيام بعمل مفيد يغنون الأغاني ثم هذه الموضة التي ساروا عليها: الجلوس في المساء وإشعال الضوء ينبغي أن يناموا ولكنهم يجلسون وهم يتحدثون ويتضاحكون لقد سجلت عندي .

-ماذا سجلت عندك؟ ـ أسماء الذين يجلسون مشعلين الضوء ويخرج بريشبييف من جيبه ورقة مجعدة، ويضع النظارة على عينيه ويقرأ :

-الفلاحون الذين يجلسون مشعلين الضوء: إيفان بروخروف، سافا ميكيفوروف، بيوتر بتروف زوجة الجندى شوستروفا، أرملة، تعاشر في الحرام سميون كيسلوف أجنات سفيرتشوك يزاول السحر، وزوجته مافرا ساحرة، تحلب في الليل أبقار الجيران .

كفي يقول القاضي ويشرع في استجواب الشهود .

فيرفع الصول بريشيبييف نظارته إلى جبينه ويتطلع بدهشة إلى قاضى الناحية الذي يبدو واضحاً أنه لا يقف في صفه وتبرق عينا الصول الجاحظتان، ويصطبغ أنفه بلون أحمر قان يتطلع إلى قاضي الناحية، وإلى الشهود ولا يستطيع أبداً أن يفهم لماذا يبدو القاضي منفعلاً إلى هذا الحد، ولماذا يتردد من كل زوايا القاعة الهمهمات تارة، والضحك المكتوم تارة أخرى والحكم أيضاً يبدو له غير مفهوم : الحبس شهراً فيقول مشيحا بذراعيه في استغراب ـ :لماذا؟ بأي قانون؟ .

ويبدو له واضحاً أن الدنيا تغيرت، وأن الحياة فيها أصبحت مستحيلة وتنتابه أفكار سوداء مقبضة ولكن عندما يخرج من القاعة ويرى الفلاحين المتجمهرين يتحدثون عن شيء ما، يشد يديه إلى جنبيه في وضع انتباه بحكم العادة المتسلطة عليه، ويصرخ بصوت أبح غاضب :تفرقوا جميعاً ممنوع التجمهر انصراف.

الصبي الشرير

هبط إيفان إيفانيتش لابكين، الشاب اللطيف الهيئة، وآنا سيميونوفنا زامبلينسكايا، الشابة ذات الأنف الصغير المقعى ، على الشاطىء المنحدر، وجلسا على أريكة وكانت هذه الأريكة تقوم قرب الماء تماماً وسط خمائل الصفصاف اليافعة الكثيفة مكان ساحر ما إن تجلس هنا حتى تختفي عن العالم، فلا تراك إلا الأسماك والعناكب المائية الراكضة كالبرق فوق صفحة المياه وكان الشاب والشابة مزودين بالسنانير والشباك وعلب ديدان الطعم وغيرها من أدوات الصيد وما إن جلسا حتى شرعا على الفور في صيد السمك .وبدأ لابكين يقول وهو يتلفت :

-كم أنا سعيد بأننا أخيراً أصبحنا وحدنا أريد أن أقول لك الكثير يا آنا سيميونوفنا الكثير جداً عندما رأيتك أول مرة سنارتك تغمز دركت عندها لأي غرض أحيا، أدركت أين معبودي الذي ينبغي أن أكرس له كل حياتي الكادحة الشريفة يبدو أنها سمكة كبيرة تغمز ما إن رأيتك حتى أحببتك، لأول مرة، أحببت حباً جارفاً انتظرى لا تجذبى، دعيها تغمز خبريني ياعزيزتي، أستحلفك، هل أستطيع أن آمل - لا بأن تبادليني الحب، كلا - فأنا لا أستحق، أنا حتى لا أجرؤ على التفكير في ذلك هل أستطيع أن أطمع في اسحبي .

رفعت آنا سيميونوفنا يدها عالياً بالسنارة وشدتها وصرخت ولمعت في الهواء سمكة فضية خضراء .

يا إلهي، فرخ آى، آه أسرع أفلتت أفلتت السمكة من السنارة ، وتلوت على العشب قافزة نحو محيطها وغاصت في الماء .

وبينما كان لا بكين يطارد السمكة أمسك عفوا بذراع آنا سيميونوفنا بدلاً من السمكة، وعفواً ضمها إلى شفتيه وشدت هي ذراعها، ولكن بعد فوات الأوان : فقد اطبقت الشفتان عفواً في قبلة حدث ذلك عفواً وتلت القبلة قبلة أخرى، ثم الأيمان والتأكيدات يا لها من لحظات سعيدة ولكن ليس هناك شيء سعيد بصورة مطلقة في هذه الحياة الدنيوية فالشيء السعيد عادة يحمل في طياته السم، أو يسممه شيء ما خارجى وهذا ما كان في هذه المرة أيضاً فبينما كان الشاب والشابة يتبادلان القبلات سمعا فجأة ضحكاً نظرا إلى النهر وأصابهما الذهول : فقد كان هناك صبي يقف في الماء عارياً مغموراً حتى وسطه كان ذاك هو التلميذ كوليا، شقيق آنا سيميونوفنا كان واقفاً في الماء ينظر إلى الشاب والشابة وهو يبتسم بخبث .وقال - : آه تتبادلان القبل؟ طيب سأقول لماما فدمدم لابكين وهو يتضجر بالحمرة :

-آمل أنك كإنسان شريف إن التلصص شيء وضيع، والوشاية شيء منحط، حقير، كريه أعتقد أنك كإنسان شريف ونبيل.

فقال الإنسان النبيل - :هات روبلاً وعندئذ لن أقول وإلا فسأقول.

وأخرج لابكين من جيبه روبلاً وأعطاه لكوليا، وضم هذا قبضته المبللة على الروبل، وصفر، ثم سبح مبتعداً ولم يعد العاشقان الشابان إلى تبادل القبل بعد ذلك في هذا اليوم .

وفي اليوم التالى جلب لابكين أصباغا وكرة من المدينة لكوليا، وأهدته أخته كل علب الأدوية الفارغة التي كانت تمتلكها ثم اضطرا إلى إهدائه أزرار أكمام قميص بسحن كلاب ويبدو أن هذا كله أعجب الصبى الشرير، ولكي يحصل على المزيد مضى يراقبها وأينما ذهب لابكين وآنا سيميونوفنا كان يذهب . ولم يتركهما دقيقة واحدة .

وصر لابكين على أسنانه وقال :

-وغد ما أصغره ومع ذلك فياله من وغد كبير ترى كيف سيصبح فيما بعد؟ وطوال شهر يونيو نغص كوليا على العاشقين المسكينين حياتهما كان يهددهما بالوشاية ، ويراقبهما ويطالب بالهدايا ولم يكن يكفيه ما يحصل عليه، وفي آخر الأمر بدأ يتحدث عن ساعة جيب فماذا؟ اضطرا أن يعداه بساعة.

وذات مرة، أثناء الغداء، عندما قدموا البسكوت المحشو بالحلوى، قهقه كوليا فجأة، وغمز بعينه وسأل لابكين :

أقول؟ هه؟ .

واحمر لابكين بشدة، وبدلاً من البسكوت راح يمضغ الفوطة وهبت آنا سيميونوفنا واقفة من أمام المائدة وركضت إلى غرفة أخرى .

وظل العاشقان في هذا الوضع حتى آخر أغسطس، حتى ذلك اليوم الذي طلب فيه لابكين أخيراً يد آنا سيميونوفنا أوه، كم كان يوماً سعيداً فبعد أن تحدث لابكين مع والدي العروس وحصل على موافقتهما، كان أول ما فعله أن انطلق إلى الحديقة ومضى يبحث عن كوليا وعندما وجده كاد يعول من الفرحة وأمسك بهذا الولد الشرير من أذنه وجاءت آنا سيميونوفنا ركضاً، فقد كانت هي الأخرى تبحث عن كوليا، وأمسكت بأذنه الثانية كان ينبغي أن تروا أيه متعة ارتسمت على وجهي العاشقين عندما راح كوليا يبكي ويضرع إليهما :

-يا أحبائي ، يا أعزائي، لن أعود إلى ذلك آى، آى، سامحانى .

وبعد ذلك اعترفا بأنهما لم يشعرا أبداً طوال فترة حبهما بمثل هذه السعادة، بمثل هذه المتعة الغامرة، التي أحسا بها عندما كان يشدان أذنى هذا الولد الشرير .

وحشة

لمن أشكو حزني؟ غسق المساء ندف الثلج الكبيرة الرطبة تدور بكسل حول مصابيح الشارع التي أضيئت لتوها، وتترسب طبقة رقيقة لينة على أسطح المنازل وظهور الخيل، وعلى الأكتاف والقبعات والحوذى أيونا بوتابوف أبيض تماماً كالشبح انحنى متقوساً بقدر ما يستطيع الجسد الحي أن يتقوس وهو جالس على المقعد بلا حراك ويبدو أنه لو سقط عليه كوم كامل من الثلج فربما ما وجد ضرورة لنفضه وفرسه أيضاً بيضاء، تقف بلا حراك وتبدو بوقفتها الجامدة، وعدم تناسق بدنها، وقوائمها المستقيمة كالعصي حتى عن قرب أشبه بحصان الحلوى الرخيص وهي على الأرجح مستغرقة في التفكير فمن انتزع من المحراث، من المشاهد الريفية المألوفة وألقى به هنا في هذه الدوامة المليئة بالأضواء الخرافية، والصخب المتواصل والناس الراكضين، لا يمكن إلا أن يفكر.

لم يتحرك أيونا وفرسه من مكانهما منذ وقت طويل كان قد خرجا من الدار قبل الغداء ولكنهما لم يستفتحا حتى الآن وها هو ذا ظلام السماء يهبط على المدينة ويتراجع شحوب أضواء المصابيح مفسحاً مكانه للألوان الحية، وتعلو ضوضاء الشارع . ويسمع أيونا - :يا حوذى إلى فيبورجسكايا يا حوذى ينتفض أيونا، ويرى من خلال رموشه المكللة بالثلج رجلاً عسكرياً في معطف بقلنسوة.

ويردد العسكرى :إلى فيبورجسكايا ، ماذا، هل أنت نائم؟ إلى فيبورجسكايا.

ويشد أيونا اللجام علامة الموافقة، فتتساقط أثر ذلك طبقات الثلج من على ظهر الفرس ومن على كتفيه ويجلس العسكري في الزحافة ويطقطق الحوذى بشفتيه، ويمد عنقه كالبجعة، وينهض قليلاً، ويلوح بالسوط بحكم العادة أكثر مما هو بدافع الحاجة وتمد الفرس أيضاً عنقها، وتعوج قوائمها العصوية وتتحرك من مكانها بتردد.

وما إن يمضي أيونا بالزحافة حتى يسمع صيحات من الحشد المظلم المتحرك جيئة وذهاباً :

-إلى أين تندفع أيها الأحمق أى شيطان ألقي بك؟ الزم يمينك ويقول العسكرى بانزعاج - : أنت لا تعرف كيف تسوق الزم يمينك .

ويسب حوذى عربة حنطور، ويحدق بغضب أحد المارة، وكان يعبر الطريق فاصطدمت كتفه بعنق الفرس، وينفض الثلج عن كمه ويتململ أيونا فوق المقعد وكأنه جالس على جمر، ويضرب بمرفقيه في كلا الجانبين، ويدور بنظراته كالممسوس، وكأنما لا يفهم أين هو ولماذا هو هنا .

ويسخر العسكري - :يا لهم جميعا من أوغاد كلهم يسعون إلى الاصطدام بك أو الوقوع تحت أرجل الفرس إنهم متأمرون ضدك .

يتطلع أيونا إلى الراكب ويحرك شفتيه يبدو أنه يريد أن يقول شيئا ما، ولكن لا يخرج من حلقه شيء سوى الفحيح

فيسأله العسكرى - :ماذا؟ يلوى أيونا فمه بابتسامة ويوتر حنجرته ويفح: - أنا يا سيدي هذا الأسبوع يعنى ابني مات .

ومم مات إذن؟ يستدير أيونا بجسده كله نحو الراكب ويقول - :ومن يدري؟ الظاهر من الحمى رقد في المستشفى ثلاثة أيام ومات .. مشيئة الله .

ويتردد في الظلام - : حاسب يا ملعون هل عميت أيها الكلب العجوز؟ افتح عينيك ويقول الراكب - : هيا، هيا سر بهذه الطريقة لن نصل ولا غداً عجل ويمد الحوذي عنقه من جديد، وينهض قليلاً ويلوح بالسوط بحركة رشيقة متثاقلة ويلتفت إلى الراكب عدة مرات، ولكن الأخير كان قد أغمض عينيه ويبدو غير راغب في الإنصات وبعد أن ينزله في فيبورجسكايا يتوقف عند إحدى الحانات، وينحني متقوساً وهو جالس على مقعد الحوذي، ويجمد بلا حراك مرة أخرى ومن جديد يصبغه الثلج الرطب هو وفرسه باللون الأبيض وتمر ساعة، وأخرى.

على الرصيف يسير ثلاثة شبان وهم يقرقعون بأحذيتهم في صخب ويتبادلون السباب اثنان منهم طويلان نحيفان، والثالث قصير أحدب .

ويصبح الأحدب بصوت مرتعش :

-يا حوذي، إلى جسر الشرطة ثلاثة ركاب بعشرين كوبيكا

يشد أيونا اللجام ويطقطق بشفتيه ليست العشرون كوبيكا بسعر مناسب

ولكنه في شغل عن السعر فسواء لديه روبل أم خمسة كوبيكات المهم أن يكون هناك ركاب يقترب الشبان من الزحافة وهم يتدافعون بألفاظ نابية، ويرتمي ثلاثتهم على المقاعد دفعة واحدة وتبدأ مناقشة قضية : من الاثنين اللذين سيجلسان ، ومن الثالث الذي سيقف؟ وبعد سباب طويل ونزق وعتاب يصلون إلى حل : الأحدب هو الذي ينبغي أن يقف باعتباره الأصغر .

فيقول الأحدب بصوته المرتعش وهو يثبت أقدامه ويتنفس في قفا أيونا : هيا عجل اضربها بالسوط يا لها من قبعة لديك يا أخي لن تجد في بطرسبرج كلها أسوأ منها فيقهقه أيونا :

-هي هي هي هي هذا هو الموجود .

اسمع أنت، أيها الموجود، عجل هل ستسير هكذا طول الطريق؟ .

نعم؟ ألا تريد صفعة على قفاك ؟.

ويقول أحد الطويلين :

-رأسي يكاد ينفجر بالأمس شربت أنا وفاسكا عند آل دو كماسوف أربع زجاجات كونياك نحن الاثنان .

ويقول الطويل الآخر بغضب - :لا أدري ما الداعي للكذب يكذب كالحيوان على اللعنة إن لم يكن حقيقة أنها حقيقة مثلما أن القملة تسعل فيضحك أيونا

-هي هي سادة ظرفاء.

ويقول الأحدب بسخط :

-فلتخطفك الشياطين هل ستعجل أيها الوباء العجوز أم لا؟ هل هذا سير؟ ناولها بالسوط هيا أيها الشيطان هيا ناولها جيداً .

ويحس أيونا خلف ظهره بجسد الأحدب المتململ ورعشة صوته ويسمع السباب الموجه إليه ، ويرى الناس فيبدأ الشعور بالوحدة ينزاح عن صدره شيئاً فشيئاً ويظل الأحدب يسب حتى يغص بسباب منتقى فاحش وينفجر في السعال ويشرع الطويلان في الحديث عمن تدعىناديجدا بتروفنا ويتطلع أيونا نحوهم وينتهز فرصة الصمت فيتطلع نحوهم ثانية ويدمدم : أصل أنا هذا الأسبوع يعنى ابني مات فيتنهد الأحدب وهو يمسح شفتيه بعد السعال :

-كلنا سنموت هيا عجل، عجل يا سادة، أنا لا يمكن أن أمضى بهذه الطريقة متى سيوصلنا؟ .

حسنا، فلتشجعه قليلا في قفاه .

-هل سمعت أيها الوباء العجوز؟ سأكسر لك عنقك التلطف مع جماعتكم معناه السير على الأقدام هل تسمع أيها الثعبان الشرير؟ أم أنك تبصق على كلماتنا؟ ويسمع أيونا أكثر مما يحس بصوت الصفعة على قفاه فيضحك :

-هي هي سادة ظرفاء ربنا يعطيكم الصحة

ويسأل أحد الطويلين :

-يا حوذي، هل أنت متزوج؟ - أنا؟ هي هي سادة ظرفاء لم يعد لدي الآن إلا زوجة واحدة : الأرض الرطبة هئ هوء هوء القبر يعني ها هو ذا ابني قد مات وأنا أعيش حاجة غريبة، الموت غلط في الباب بدلا من أن يأتيني ذهب إلى ابنى.

ويلتفت أيونا لكي يروى كيف مات ابنه، ولكن الأحدب يتنهد بارتياح ويعلن أنهم أخيراً، والحمد لله، وصلوا ويحصل أيونا على العشرين كوبيكا ويظل ينظر طويلاً في أثر العابثين وهم يختفون في ظلام المدخل وها هو ذا وحيد ثانية، ومن جديد يشمله السكون والوحشة التي هدأت قليلاً تعود تطبق على صدره بأقوى مما كان وتدور عينا أيونا بقلق وعذاب على الجموع المهرولة على جانبي الشارع : ألن يجد في هذه الآلاف واحدا يصغي إليه؟ ولكن الجموع تسرع دون أن تلاحظه أو تلاحظ وحشته وحشة هائلة، لا حدود لها لو أن صدر أيونا انفجر، وسالت منه الوحشة فربما أغرقت الدنيا كلها، ومع ذلك لا أحد يراها لقد استطاعت أن تختبئ في صدفة ضئيلة فلن ترى حتى في وضح النهار.

يلمح أيونا بواباً يحمل قرطاساً فينوى أن يتحدث إليه ويسأله - : كم الساعة الآن يا ولدى؟ - التاسعة .

لماذا تقف هنا؟ امش .

يتحرك أيونا عدة أمتار، ثم ينحني متقوساً، ويستسلم للوحشة ويرى أنه لا فائدة بعد من مخاطبة الناس ولكن ما إن تمر بضع دقائق حتى يعتدل، وينفض رأسه كأنما أحس بوخزة ألم حادة، ويشد اللجام لم يعد قادرا على التحمل .

ويقول لنفسه: إلى البيت إلى البيت.

وكأنما فهمت الفرس أفكاره فتبدأ في الركض بخبب وبعد حوالى ساعة ونصف يكون أبونا جالساً بجوار فرن كبير قذر وفوق الفرن، وعلى الأرض، وعلى الأرائك يتمدد أناس يشخرون والجو مكتوم خانق يتطلع أيونا إلى النائمين ويحك جلده ويأسف لعودته المبكرة إلى البيت.

ويقول لنفسه: لم أكسب حتى حق الشعير ولهذا أشعر بالوحشة الرجل الذي يعرف عمله الذي هو نفسه شبعان وفرسه شبعى، وهو دائماً مطمئن البال .

في إحدى الزوايا ينهض حوذى شاب، ويزحر بصوت ناعس، ويمد يديه إلى الدلو .

فيسأله أيونا - :أردت أن تشرب؟ - كما ترى.

-طيب بالهنا والشفا أما أنا يا أخي فقد مات ابنى هل سمعت؟ هذا الأسبوع، في المستشفى حكاية

ويتطلع أيونا ليرى أي تأثير تركته كلماته، ولكنه لا يرى شيئاً فقد تغطى الحوذي الشاب حتى رأسه وغط في النوم ويتنهد العجوز ويحك جلده فمثلما رغب الحوذى الشاب في الشرب يرغب هو في الحديث عما قريب يمر أسبوع منذ أن مات ابنه، بينما لم يتمكن حتى الآن من الحديث عن ذلك مع أحد كما يجب ضروري أن يتحدث بوضوح،

على مهل ينبغي أن يروى كيف مرض ابنه، وكيف تعذب ، وماذا قال قبل وفاته، وكيف مات ينبغي أن يصف جنازته وذهابه إلى المستشفى ليتسلم ثياب المرحوم وفي القرية بقيت ابنته ينبغي أن يتحدث عنها أيضاً وعموما، فما أكثر ما يستطيع أن يرويه الآن ولا بد أن يتأوه السامع ويتنهد، ويرثى والأفضل أن يتحدث مع النساء فهؤلاء وإن كن حمقاوات، يعولن من كلمتين .

ويقول أيونا لنفسه فلأذهب لأتفقد الفرس أما النوم فبعدين سأشبع نوماً .

يرتدي ملابسه ويذهب إلى الإصطبل حيث تقف فرسه ويفكر في الشعير، والدريس والجو فعندما يكون وحده لا يستطيع أن يفكر في ابنه يستطيع أن يتحدث عنه مع أحد ما، أما أن يفكر فيه ويرسم لنفسه صورته فشيء رهيب لا يطاق . ويسأل أيونا فرسه عندما يرى عينيها البراقتين :

تمضغين؟ حسنا، امضغى، امضغى ما دمنا لم نكسب حق الشعير فسنأكل الدريس نعم أنا كبرت على السواقة كان المفروض أن يسوق ابني لا أنا كان حوذيا أصيلاًً لو أنه فقط عاش

ويصمت أيونا بعض الوقت ثم يواصل :

هكذا يا أختي الفرس لم يعد كوزما أيونيتش موجوداً رحل عنا فجأة مات خسارة فلنفرض مثلاً أن عندك مهراً، وأنت أم لهذا المهر ولنفرض أن هذا المهر رحل فجأة أليس مؤسفاً؟ وتمضغ الفرس وتنصت وتزفر على يدي صاحبها ويندمج أيونا فيحكي لها كل شيء .

مزحة

ساعة الظهر في يوم شتائي صحو الصقيع شديد قارس، وحبات الجليد الفضية تكسو خصلات فودى نادنكا والزغب فوق شفتها العليا إنها تتأبط ذراعي، ونحن واقفان فوق تل مرتفع ويمتد من أقدامنا حتى الأرض شريط منحدر تشرق عليه الشمس كأنما تطل في مرآة وبجوارنا زحافة صغيرة، مكسوة بالجوخ الأحمر القاني .

وأتوسل إليها :

-فلتتزحلقى إلى أسفل يا ناديجدا بتروفنا مرة واحدة أرجوك أؤكد لك أننا سنصل سالمين دون أذى .

ولكن نادنكا خائفة وتبدو لها المسافة من قدميها الصغيرتين حتى نهاية التل الجليدي هوة مرعبة لا قرار لها وتحتبس أنفاسها وتلهث بمجرد أن تنظر إلى أسفل، بمجرد أن أعرض عليها الجلوس في الزحافة، فماذا سيحدث إذن لو أنها غامرت بالقفز إلى الهوة ستموت فوراً أو جن .

وأقول لها - :أتوسل إليك لا داعي للخوف فلتفهمي، إن هذا ضعف، جبن وأخيراً ترضخ نادنكا، فأرى في وجهها أنها ترضخ مخاطرة بحياتها .

فانكا

في ليلة عيد الميلاد لم ينم الصبى فانكا جوكوف ابن الأعوام التسعة والذي أعطوه منذ ثلاثة أشهر للإسكافي ألياخين ليعمل صبيا لديه وانتظر حتى انصرف أصحاب البيت والأسطوات إلى الصلاة فأخرج من صوان الإسكافي محبرة وقلما بسن صدئ، وفرش أمامه ورقة مجعدة وراح يكتب وقبل أن يخط أول حرف نظر إلى الباب والنوافذ بحذر، وتطلع بطرف عينه إلى الأيقونة الداكنة التي امتدت عن جانبيها أرفف محملة بالنعال، وزفر زفيراً متقطعاً كانت الورقة مبسوطة على الأريكة، أما هو فقد جثا على ركبتيه أمامها وكتب : جدي العزيز قسطنطين مكاريتش أنا أكتب إليك خطاباً أهنئكم بعيد الميلاد وأرجو لك من الله كل الخير أنا ليس لدى أب أو أم، ولم يبق لى غيرك وحدك.

وحول فانكا بصره إلى النافذة المظلمة التي عكست ضوء شمعته المتذبذب، وتخيل بوضوح جده قسطنطين مكاريتش الذي يعمل حارساً ليلياً لدى السادة آل جيفارف وهو عجوز صغير نحيل إلا أنه خفيف الحركة بصورة غير عادية وفي حوالي الخامسة والستين، ذو وجه باسم دائماً وعينين ثملتين كان نهاراً ينام في مطبخ الخدم أو يثرثر مع الطاهيات

أما في الليل فيطوف حول بيت السادة متدثراً بمعطف فضفاض من جلد الحمل ويدق على صفيحة ومن خلفه يسير مطأطئ الرأسين الكلبة العجوز اشتانكا، والكلب فيون الذي سمى هكذا للونه الأسود وجسده الطويل كالنمس.كان هذا الفيون مهذباً ورقيقاً بصورة غير عادية ، وكان ينظر بنفس الدرجة من التأثر سواء لأصحابه أم للغرباء، لكنه لم يكن يحظى بالثقة كان يخفي تحت تهذيبه واستكانته خبثاً غادراً إلى أقصى حدt لم يكن هناك من هو أحسن منه في التلصص في الوقت المناسب لبعض الساق، أو التسلل إلى المخزن، أو سرقة دجاجة من بيت فلاح وقد حطموا له ساقيه الخلفيتين غير مرة، وعلقوه مرتين، وكانوا يضربونه كل أسبوع حتى الموت، ولكنه كان يبعث من جديد .

وربما يقف الجد الآن أمام البوابة ويزر عينيه وهو يتطلع إلى نوافذ كنيسة القرية الساطعة الحمرة، ويثرثر مع الخدم وهو يدق الأرض بحذائه اللباد والصفيحة التي يدق عليها معلقة إلى خصره ويشيح بيديه ثم يتململ من البرد، ويضحك ضحكة عجوز ويقرص الخادم تارة والطاهية تارة أخرى.

ويقول وهو يقدم للفلاحات كيس تبغه - :ألا ترغبن في استنشاق التبغ؟ .وتستنشق الفلاحات ويعطسن، ويستولي على الجد إعجاب لا يوصف ويقهقه بمرح ويصيح - :بقوة وإلا لزقت

ويقدمون التبغ للكلاب لتشمه وتعطس كاشتانكا، وتلوى بوزها وتبتعد مغضبة أما فيون فلا يعطس تأدبا ، بل يهز ذيله والجو رائع الهواء هادى وشفاف ومنعش والليل حالك ومع ذلك تلوح القرية كلها بأسقف منازلها البيضاء وأعمدة الدخان المنبعثة من المداخن، والأشجار وقد كساها الثلج ثوبا فضياً، وأكوام الثلج، والسماء كلها مرصعة بنجوم تتراقص بمرح، ويبدو درب التبانة واضحاً كأنما غسلوه قبل العيد ودعكوه بالثلج .

وتنهد فانكا، وغمس الريشة في الحبر ومضى يكتب :بالأمس ضربونى علقة شدني المعلم من شعري إلى الحوش وضربني بقالب الأحذية لأني كنت أهز ابنه في المهد فنعست غصباً عني وفي هذا الأسبوع أمرتني المعلمة أن أقشر فسيخة، فبدأت أقشرها من ذيلها فشدت مني الفسيخة وأخذت تحك رأسها في وجهى والأسطوات يسخرون مني ويرسلونني إلى الخمارة لشراء الفودكا ويأمرونني أن أسرق الخيار من بيت المعلم، والمعلم يضربني بكل ما يقع في يده وليس هناك أي طعام في الصباح يعطوننى خبزاً، وفي الغداء عصيدة ، وفي المساء أيضاً خبزاً، أما الشاي أو الحساء فالسادة وحدهم يشربونه ويأمرونني أن أنام في المدخل، وعندما يبكي ابنهم لا أنام أبداً وأهز المهد يا جدي العزيز ، اعمل معروف لله وخذني من هنا إلى البيت في القرية لم أعد أحتمل أبداً أتوسل إليك وسوف أصلى لله دائماً، خذني من هنا وإلا سأموت .

وقلص فانكا شفتيه ومسح عينيه بقبضته السوداء وأجهش . ومضى يكتب: سأطحن لك التبغ، وأصلى لله، وإذا بدر منى شىء اضربنى كما يضرب الكلب وإذا كنت تظن أنه ليس لى عمل فسأرجو الخولي بحق المسيح أن يأخذني ولو لتنظيف حذائه، أو أعمل راعياً بدلا من فيدكا يا جدي العزيز، لم أعد أحتمل أبداً، لا شيء سوى الموت أردت أن أهرب إلى القرية ماشيا ولكن ليس لدي حذاء وأخشى الصقيع وعندما أصبح كبيراً فسوف أطعمك مقابل هذا ولن أسمح لأحد أن يمسك، وإذا مت يا جدي فسأصلي من أجل روحك كما أصلى من أجل أمى بلاجيا .

وموسكو مدينة كبيرة والبيوت كلها بيوت أكابر، والخيول كثيرة، وليس هناك غنم، والكلاب ليست شريرة والأولاد في العيد لا يطوفون بالبيوت منشدين ولا يسمح لأجد بالذهاب للترتيل في الكنيسة ومرة رأيت في أحد الدكاكين، في الشباك، سنانير تباع بخيوطها لصيد كل أنواع السمك، عظيمة جدا، بل وتوجد سنارة تتحمل قرموطا وزنه بود(ورأيت دكاكين فيها مختلف أنواع البنادق التي تشبه بنادق السادة ، ويمكن الواحدة منها أن تساوى مائة روبل وفي دكاكين اللحوم يوجد دجاج الغابة وأرانب، ولكن الباعة لا يقولون أين يصطادونها .

يا جدي العزيز، عندما يقيم السادة شجرة عيد الميلاد خذلى جوزة مذهبة وخبئها في الصندوق قل للآنسة أولجا أجناتيفنا إنها من أجل فانك

وتنهد فانكا وسمر عينيه في النافذة من جديد وتذكر أن جده كان دائما يذهب للغابة لإحضار شجرة عيد الميلاد ويصحب معه حفيده ياله من عهد سعيد كان الجد يتنحنح والثلج يتنحنح وفانكا يتنحنح مثلهما وكان يحدث أن الجد، قبل أن يقطع الشجرة، يجلس ليدخن الغليون، ويشم التبغ طويلاً وهو يضحك من فانكا المقرور وشجيرات عيد الميلاد الشابة تقف ملفعة بالثلج وساكنة وهي تنتظر أيها التي ستموت؟ وفجأة يمرق أرنب كالسهم عبر أكوام الثلج ولا يستطيع الجد أن يمسك نفسه عن الصياح :

-أمسك، أمسك امسك آه، يا شيطان يا ملعون .

ثم يسحب الجد الشجرة المقطوعة إلى منزل السادة، حيث يشرعون في تزيينها وكانت الآنسة أولجا أجناتيفنا التي يحبها فانكا، هي التي تنشغل أكثر الجميع وعندما كانت أم فانكا بيلاجيا على قيد الحياة وتعمل خادما لدى السادة ، كانت أولجا أجناتيفنا تعطى لفانكا الحلوى، ولما لم يكن لديها ما تعمله فقد علمته القراءة والكتابة والعد حتى مائة ، بل وحتى رقصة الكادريل ولما ماتت بيلاجيا، أرسلوا فانكا اليتيم إلى جده في المطبخ مع الخدم، ومن المطبخ إلى موسكو عند الإسكافي ألباخين .

ومضى فانكا يكتب: احضر يا جدي العزيز استحلفك بالمسيح الرب أن تأخذني من هنا أشفق على أنا اليتيم المسكين، لأن الجميع يضربوننى، وأنا جوعان جداً، ولا أستطيع أن أصف لك وحشتي، وأبكى طول الوقت

ومن مدة ضربني المعلم بالنعل على رأسي حتى وقعت ولم أفق إلا بصعوبة ما أضيع حياتي، أسوأ من حياة أي كلب تحياتي لأليونا ويجوركا الأحول، والحوذي، ولا تعط الهارمونيكا لأحد حفيدك دائماً إيفان جوكوف، احضر يا جدي العزيز .

وطوى فانكا الورقة المكتوبة أربع مرات ووضعها في مظروف كان قد اشتراه من قبل بكوبيك وفكر قليلاً ثم غمس الريشة وكتب العنوان :إلى قرية جدي وحك رأسه وفكر، ثم أضاف: قسطنطين مكاريتش وارتدي غطاء الرأس وهو سعيد لأن أحداً لم يعقه عن الكتابة، ولم يضع المعطف على كتفيه ، بل انطلق إلى الخارج بالقميص فقط .

كان الباعة في دكان الجزار الذي سألهم من قبل قد أخبروه أن الرسائل تلقى في صنادق البريد، ومن الصناديق تنقل إلى جميع أنحاء الأرض على عربات بريد بحوذية سكارى وأجراس رنانة وركض فانكا إلى أول صندوق بريد صادفه، ودس الرسالة الغالية في فتحة الصندوق .

وبعد ساعة كان يغط في نوم عميق وقد هدهدت الآمال الحلوة روحه وحلم بالفرن كان جده جالساً على الفرن مدلياً ساقيه العريانتين وهو يقرأ الرسالة للطاهيات وبجوار الفرن يسير فيون ويهز ذيله .

هرج

ما إن عادت ماشنكا بافلينسكايا، الفتاة الشابة، التي أنهت دورة المعهد النسائى مؤخراً، من نزهتها إلى دار آل كوشكين، حيث كانت تقطن وتعمل مربية، حتى رأت هرجاً لم يسبق له مثيل وكان البواب ميخايلو ، الذي فتح لها الباب منفعلاً وأحمر الوجه كسرطان البحر ومن أعلى تناهى ضجيج .

وفكرت ماشا: لابد أن السيدة أصيبت بنوبة أو أنها تشاجرت مع زوجها .

والتقت في المدخل ثم في الطرقة بالخادمات، وكانت إحداهن تبكى ثم رأت ماشنكا كيف خرج من باب غرفتها هي رب الدار نفسه نيقولاى سيرجييتش، وهو رجل صغير، لم يهزم بعد، ذو وجه متقزز وصلعة كبيرة كان محمراً، يرتعد ومر بجوار المربية دون أن يلاحظها، وصاح هاتفاً وهو يرفع يديه إلى أعلى :

-أوه، ما أفظع هذا بالانعدام اللباقة ما أغبي هذا، ما أشنعه ما أحطه .

دخلت ماشنكا غرفتها، وهنا كابدت لأول مرة في حياتها وبكل حدة ، ذلك الإحساس المعروف جيداً لمن هم في وضع التبعية لغير القادرين على الرد، لمن يعيشون في كنف الأغنياء والأكابر كانت غرفتها تتعرض للتفتيش وكانت ربة الدار فيدوسيا فاسيليفنا، وهي امرأة بدينة، عريضة الكتفين، ذات حاجبين أسودين كثيفين وشعر مسترسل، حادة التقاطيع

بشارب خفيف لا يكاد يلحظ وذراعين حمراوين، تشبه بوجهها وحركاتها طاهية من عامة النساء، كانت تقف إلى جوار مكتب ماشنكا وتعيد إلى حقيبة يدها لفائف صوف وقطع قماش، وأوراقاً ما ويبدو أن مجيء المربية كان مفاجأة لها، لأنها عندما التفتت ورأت وجهها الشاحب المندهش، ارتبكت قليلاً وغمغمت Pardon :، أنا أنا سقطت منى عفواً اشتبكت بكم .

وبعد أن دمدمت مدام كوشكينا بكلمات ما، هفهفت بذيل فستانها وخرجت وطافت ماشنكا بنظرات مندهشة على غرفتها، وهزت كتفيها وهي لا تفهم شيئاً ولا تدري ماذا تظن وتثلجت أطرافها خوفاً عم كانت فيدوسيا فاسيليفنا تفتش في حقيبة يدها؟ لو كان صحيحاً ما قالت بأن كمها اشتبك عفواً بالحقيبة فتبعثرت محتوياتها، فلماذا إذن انفلت نيقولاي سرجييتش من الغرفة محمراً ومنفعلاً بتلك الصورة؟ ولماذا يبرز قليلاً أحد أدراج المكتب والحصالة التي كانت المربية تخبئ فيها قطع النقود والطوابع القديمة كانت مفتوحة لقد فتحوها ولكنهم لم يتمكنوا من إغلاقها رغم أنهم ملأوا القفل بالخدوش وكان رف الكتب وسطح المكتب، والفراش كل ذلك كان يحمل آثار التفتيش القريب وكذلك سلة الملابس كانت الملابس مرتبة بعناية، ولكن ليس بنفس الترتيب الذي وضعته بها ماشنكا قبل أن تغادر المنزل إذن فقد جرى تفتيش حقيقى تفتيش بمعنى الكلمة، ولكن ما الداعي له، ولماذا؟ ماذا حدث؟ وتذكرت ماشنكا اضطراب البواب، والهرج الذي لا زال مستمراً، والخادم الباكية أليس لكل ذلك علاقة بالتفتيش الذي جرى في غرفتها منذ قليل؟

أتكون متورطة في قضية رهيبة؟ امتنعت ماشنكا وتهالكت فوق سلة الملابس باردة الجسم تماماً

ودخلت الخادم الغرفة فسألتها المربية : - ليزا، ألا تعرفين لماذا فتشونى؟ فقالت ليزا :ضاع من السيدة بروش ثمنه ألفا روبل- طيب، ولكن لماذا يفتشوننى؟ فتشوا الجميع يا آنسة وأنا فتشونى كلى جردونا من ملابسنا تماماً وفتشونا إنني يا آنسة يشهد الله لم ألمس بروش السيدة، بل لم اقترب حتى من تسريحتها ومستعدة أن أقول ذلك حتى للشرطة .

ومضت المربية تقول بدهشة :ولكن لماذا يفتشونني؟ قلت لك إن البروش قد سرق السيدة نفسها فتشت بيديها كل شيء حتى البواب ميخايلو فتشته بنفسهايا للعار ونيقولاى سجرييتش لا يستطيع أن يفعل إلا أن ينظر ويقوقي كالدجاجة أما أنت يا آنسة فعبثا ترتعدين لم يجدوا شيئاً لديك ما دمت لم تأخذى البروش فيلس هناك ما تخشينه فقالت ماشنكا وهي تختنق من الغضب :ولكن هذا يا ليزا وضع مهين إنها خسة، وضاعة بأي حق تشك في وتفتش أغراضى ؟ فتنهدت ليزا قائلة :

-أنت تعيشين عند الغير يا آنسة ورغم أنك آنسة فمع ذلك أنت كالخادم ليس هذا مثل العيش عند بابا وماما .

ارتمت ماشنكا على السرير وانتحبت بحرقة لم يحدث أبداً من قبل أن تعرضت لمثل هذا القهر، ولم يحدث أبدا من قبل أن أهينت بهذه الصورة

كما حدث الآن هي الفتاة الحساسة، المؤدبة، ابنة مدرس، يرتابون فيها كسارقة، ويفتشونها كامرأة من الشارع لا يمكن، فيما يبدو أن تكون هناك إهانة أكبر من هذه واقترن بهذا الإحساس بالإهانة خوف ثقيل : ترى ماذا سيحدث ؟ وطافت برأسها شتى الخواطر الخرقاء فإذا كانوا قد ارتابوا في أنها سارقة، فهذا يعني أنه من الممكن أن يعتقلوها ويجردوها من ملابسها ويفتشوها، ثم يسوقوها في الشارع تحت الحراسة، ويضعوها في زنزانة مظلمة باردة مع الفئران والصراصير، زنزانة تشبه بالضبط تلك التي وضعت فيها الأميرة تراگانوفا فمن ذا الذي سيدافع عنها؟ أهلها يعيشون بعيداً في الأرياف، وليس لديهم نقود ليأتوا إليها وهي وحيدة في العاصمة، كأنما في حقل خاو، بلا أهل أو معارف يستطيعون أن يفعلوا بها كل ما يريدون .

وفكرت ماشنكا وهي ترتعش: سألجأ إلى كل القضاة والمحامين سأشرح لهم الأمر، وسأقسم وسيصدقون أنني لا يمكن أن أكون سارقة وتذكرت ماشنكا أن لديها في سلة الملابس، تحت الملاءات ، بعض الحلوى، التي كانت تخبئها حسب عادتها القديمة أيام المعهد في أثناء الغداء ، ثم تحملها إلى غرفتها وارتجفت من فكرة أن سرها الصغير هذا أصبح معروفاً لأصحاب الدار ، وشعرت بالخجل، وبسبب هذا كله: بسبب الخوف والخجل والإهانة راح قلبها يدق بعنف، وتتردد دقاته في صدغيها ويديها وفي أعماق أحشائها

وسمعت صوتاً يدعوها - :تفضلى للغداء أذهب أم لا؟ سوت ماشنكا شعرها، ومسحت وجهها بمنشفة مبللة ، وذهبت إلى غرفة الطعام وكانوا هناك قد بدأوا الغداء وعلى أحد طرفي المائدة جلست فيدوسيا فاسيليفنا، بعظمة، بوجه بليد جاد، وعلى الطرف الآخر جلس نيقولاى سيرجيتش وعلى الجانبين جلس الضيوف والأولاد وقام وصيفان يرتديان حلل الفراء والقفازات البيضاء بتقديم الطعام وكان الجميع يعلمون أن الهرج يعم المنزل، وأن ربة الدار تعاني الفجيعة ، فلزموا الصمت ولم يكن يسمع سوى صوت المضغ ودقات الملاعق على الأطباق وبدأت الحديث ربة الدار نفسها فسألت الوصيف بصوت فاتر معذب :

-ماذا لدينا للطبق الثالث؟ فأجاب الوصيف - :أستورجون ألا روس وأسرع نيقولاى سر جبيتش يقول - :أنا الذي طلبته با فينيا رغبت في السمك إذا كان لا يعجبك دعيه لا يقدمه أنا طلبته هكذا بالمناسبة .

لم تكن فيدوسيا فاسيليفنا تحب الأكلات التي لا توصي هي بطلبها، وها هما عيناها الآن تغرورقان بالدموع .

-ما هذا، لا ينبغي أن تنفعلي، قال ماميكوف، طبيبها المنزلي بصوت معسول، وهو يلمس ذراعها برقة ويبتسم أيضاً ابتسامة معسولة - نحن بدون ذلك عصبيون بما فيه الكفاية فلننس البروش الصحة أغلى من ألفي روبل

فأجابت ربة الدار بينما انحدرت دمعة كبيرة على خدها :

-أنا لا آسف على الألفي روبل إن ما يستفزني هو الواقعة بحد ذاتها لن أصبر في بيتي على اللصوص أنا لا أبخل، لا أبخل بشيء، ولكن أن يسرقوني يا له من جحود أهكذا يكافئونني على طيبتي .

كان الجميع ينظرون في أطباقهم، بيد أنه خيل لماشتكا أنهم جميعا تطلعوا إليها بعد كلمات ربة الدار. وفجأة أطبقت الغصة على زورها، فبكت وضغطت بالمنديل على وجهها .

ودمدمت Pardon - : أنا لا أستطيع أشعر بصداع سأذهب ونهضت من المائدة فأثارت جلبة بكرسيها وازدادت ارتباكاً فأسرعت بالانصراف .

وقال نيقولاى سر جيينش ممتعضاً - :الله يعلم ما هذا ما كان ينبغي تفتيشها هذا في الحقيقة غير مناسب .

فقالت فيدوسيا فاسيليفنا :

أنا لا أدعي أنها أخذت البروش، ولكن هل تستطيع أن تضمنها؟ أنا بصراحة لا أميل إلى تصديق هؤلاء الفقيرات المثقفات .

حقا يا فينيا هذا غير مناسب عفواً يا فينيا، ولكنك لا تملكين قانونياً أي حق في إجراء تفتيش

أنا لا أعرف قوانينكم، أنا أعرف فقط أنه قد ضاع منى بروش، وهذا كل ما هنالك وسوف أجد هذا البروش - وضربت الطبق بالشوكة، ولمعت عيناها بغضب - أما أنت فلتأكل، ولا تتدخل في شئونى .

خفض نيقولاي سرجييتش بصره باستكانة وتنهد أما ماشنكا، فبعد أن وصلت إلى غرفتها، ارتمت على الفراش لم تعد تشعر بالخوف أو الخجل، بل راحت تعذبها رغبة قوية في أن تذهب وتصفع تلك المرأة القاسية المتغطرسة البليدة السعيدة على خديها .

وأخذت، وهي راقدة تتنفس في الوسادة، تحلم بأنه كم يكون جميلاً لو استطاعت أن تذهب الآن وتشترى أغلى بروش وتلقى به في وجه هذه الحمقاء المستبدة لو أن الله يشاء فينزل الخراب بفيدوسيا فاسيليفنا فتمضي تتسول، لتدرك كل فظاعة الفقر ووضع التبعية، ولو أن ماشنكا المهانة تمد لها عندئذ يدها بحسنة أوه لو أنها تحصل على ميراث كبير، فتشترى عربة وتمر بها في جلبة من أمام نوافذ فيدوسيا فاسيلفنا لكى تحسدها.

بيد أن كل ذلك كان مجرد أحلام، أما في الواقع فلم يكن أمامها إلا شيء واحد: أن تذهب من هنا بسرعة، ألا تبقى هنا ولا ساعة واحدة صحيح أنه من المخيف أن تفقد الوظيفة ، لتعود مرة أخرى إلى أهلها الذين لا يملكون شيئاً، ولكن ما العمل؟ لم تعد ماشنكا تطيق رؤية ربة الدار ولا غرفتها الصغيرة.

كانت تشعر هنا بالاختناق والرعب ضاقت بفيدوسيا فاسيليفنا، المهووسة بأمراضها وارستقراطيتها المزعومة إلى درجة بدا لها معها أن كل شيء في العالم أصبح فظاً وقميئاً بسبب وجود هذه المرأة وقفزت ماشنكا من السرير وراحت تجمع حاجياتها .

-هل أستطيع الدخول؟ - سأل نيقولاى سر جيبتش من وراء الباب كان قد اقترب من الباب بخطوات لا تسمع، وقال بصوت خافت لين ممكن؟ ادخل .

ودخل ووقف إلى جوار الباب كانت تطل من عينيه نظرة كئيبة، ولمع أنفه الصغير الأحمر لقد شرب البيرة بعد الغداء، وظهر ذلك واضحاً من مشيته ويديه الضعيفتين الذابلتين .

وسأل وهو يشير إلى السلة : - ما معنى هذا؟ .

-أجمع أغراضي اعذرنى يا نيقولاي سرجيبيتش، ولكني لا أستطيع البقاء في داركم لقد كان هذا التفتيش إهانة بالغة لي مفهوم ولكن عبثاً تفعلين هذا لماذا؟ ليكن أنهم فتشوك أما أنت ماذا يضيرك؟ لن ينقص هذا التفتيش منك شيئاً .

لزمت ماشنكا الصمت ومضت تجمع أغراضها وشد نيقولاى سرجيبيتش شعر شاربه وكأنما يفكر فيما يمكن أن يضيفه ، ومضى يقول بصوت متملق

-أنا طبعا مقدر، ولكن ينبغي أن تكوني متسامحة أنت تعرفين أن زوجتى عصبية ، غير متزنة، ولكن لا داعي للقسوة في الحكم وصمتت ماشنكا .

واستطرد نيقولاى سرجييتش :

-إذا كنت تشعرين بأنك قد أهنت إلى هذه الدرجة، حسناً إنني مستعد أن أعتذر لك أرجو المعذرة .

لم تجب ماشنكا بشيء، بل انحنت أكثر فوق حقيبتها لم يكن لهذا الرجل الهزيل الضعيف الإرادة أي وزن في المنزل كان يلعب دوراً بائساً الشخص عالة وزائد حتى عند الخدم ولم يكن لاعتذاره أيضاً أي وزن .

هم تصمتين؟ تعتبرين هذا غير كاف؟ إذن فأنا أعتذر عن زوجتي .

باسم زوجتي لقد تصرفت بعدم لباقة، وأنا أعترف بذلك كنبيل وتمشي نيقولاي سرجيتش قليلاً، وتنهد، ثم أضاف - ذن فأنت تريدين أن أشعر بالوخز هنا، تحت القلب أنت تريدين أن يعذبني ضميري .

فقالت ماشنكا وهي تنظر في وجهه مباشرة بعينيها الواسعتين الباكيتين :
-أنا أعرف يا نيقولاى سرجييتش أنك لست مذنباً فلماذا إذن تتعذب؟ طبعا ولكن مع ذلك لا تفعلى هذا لا تذهبي أرجوك .

فهزت ماشنكا رأسها بالنفي وتوقف نيقولاى سرجييتش عند النافذة وأخذ ينقر بأصابعه على الزجاج

وقال : بالنسبة لي تعتبر كل هذه المشاكل عذابا حقيقيا. ماذا تريدين أن أفعل، هل أركع على ركبتي أمامك أم ماذا؟ لقد أهينت كرامتك، وها أنت ذي قد له بكيت، وتنوين الرحيل، ولكن أنا أيضا لدى كرامة، وأنت لا ترحمينها أم أنك تريدين أن أقول لك ما لن أقوله على كرسي الاعتراف؟ .

أتريدين؟ اسمعي، أتريدين أن اعترف لك بما لن اعترف به حتى في لحظة الموت؟ ولز مت ماشنكا الصمت .

-أنا الذي أخذت البروش من زوجتى - قال نيقولاي سرجيبيتش بسرعة هل أنت راضية الآن؟ مرتاحة؟ نعم أنا أخذته لكن بالطبع آمل في شهامتك أستحلفك، ولا كلمة لأحد، ولا شبه تلميح . ومضت ماشنكا تجمع أغراضها في دهشة وذعر كانت تلتقط الأشياء وتعصرها بلا نظام في الحقيبة والسلة وبعد الاعتراف الذي أدلى به نيقولاي سرجيتش لم يعد بوسعها أن تبقى دقيقة واحدة ، ولم تعد تفهم كيف استطاعت أن تعيش قبل ذلك في هذا المنزل .

ومضى نيقولاي سرجيبيتش يقول بعد صمت قصير :

ليس هناك ما يدعو للدهشة إنها قصة عادية كنت بحاجة إلى نقود، وهي لا تعطيني إن هذا المنزل وكل ما هنا من ثروة أبي يا ماريا أندرييفنا كل هذا ملكى والبروش كان لأمي و كل هذا ملكى لكنها أخذت كل شىء، استولت عليه ولتوافقينى فليس من المعقول أن أقاضيها أرجوك، بشدة أن تعذرينى وتبقى

هل تبقين؟ فقالت ماشنكا بحزم وبدأت ترتعش : - كلا دعني أرجوك .

طيب، سامحك الله، قال نيقولاى سر جيبتش متنهداً وهو يجلس على الأريكة بجوار الحقيبة - أنا في الحقيقة أحب أولئك الذين مازالوا قادرين على الشعور بالغضب والاحتقار وغيره بودي لو جلست دهرا أتطلع إلى وجهك الغاضب إذن فلن تبقى؟ مفهوم لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك نعم، طبعاً أنت محظوظة أما أنا ف هس ولا خطوة من هذا القبو ولو ذهبت إلى أية ضيعة من ضياعنا فسأجد هناك أذناب زوجتي في كل مكان أولئك الخوليون، والمهندسون الزراعيون، فلتخطفهم الشياطين يرهنون كل شيء ويعيدون رهنه ممنوع صيد السمك، ممنوع دوس الأعشاب، ممنوع تحطيم الأشجار .

وتناهى من الصالة صوت دوسيا فاسيليفنا :نيقولاى سرجيينش يا أجنيا، نادي السيد وسأل نيقولاى سرجييتش وهو ينهض بسرعة ويتجه إلى الباب :إذن لن تبقى؟ ربما تبقين مع ذلك أي والله إذن لجئت إليك في المساء وتحادثنا هه؟ أبقى لو ذهبت فلن يبقى في البيت كله وجه إنساني واحد هذا فظيع. كان وجه نيقولاى سر جييتش الهزيل الشاحب يتوسل، ولكن ماشنكا هزت رأسها نفيا، فأشاح بيده وخرج وبعد نصف ساعة كانت في الطريق.

الذئب

كان الإقطاعى نيلوف، وهو رجل ممتلى، قوي الجسم، مشهور في المحافظة كلها بقوته البدنية الخارقة، عائداً من الصيد ذات مساء مع المحقق كوبريانوف، فعرجا على الطاحونة، عند العجوز مكسيم وكان قد بقى على ضيعة نيلوف حوالى فرسخين فقط، ولكن الصيادين أدركهما التعب فلم يجدا ميلاً إلى مواصلة السير، وقررا التوقف في الطاحونة لاستراحة طويلة وكان لهذا القرار ما يبرره، خاصة وأن مكسيم لديه شاى وسكر ، أما الصيادان فكانا يملكان احتياطياً لا بأس به من الفودكا والكونياك ومختلف الأطعمة المنزلية .

وبعد الأكل أخذ الصيادان يتناولان الشاي، واتصل حبل الحديث وسأل نيلوف مخاطبا مكسيم : - ماذا لديكم من جديد يا جدى؟ فضحك العجوز ضحكة ساخرة قصيرة - :ماذا لدينا من جديد؟ الجديد لدينا هو أنني أريد أن أطلب من جنابكم بندقية.

-وما حاجتك إلى البندقية؟

-ماذا؟ ربما لم أكن بحاجة إليها .هذا مجرد طلب للتظاهر بالأهمية فعلى أية حال أنا لا أرى جيدا حتى أطلق النار الشيطان وحده يعلم من أين جاء هذا الذئب المسعور

يركض هنا لليوم الثاني مساء الأمس عقر مهراً وكلبين قرب القرية، واليوم خرجت في الفجر فإذا به الملعون، جالس تحت الصفصافة يضرب بوزه بكفه وصحت به امش ولكنه ظل يحدق في كالعفريت ضربته بحجر فطقطق بأنيابه وبرقت عيناه كالشموع، وركض نحو غابة الصفصاف الرجراج كدت أموت من الخوف .

فدمدم المحقق : - الشيطان يعلم ما هذا هنا ذئب مسعور يركض، ونحن نتسكع وماذا في ذلك؟ فالبنادق معنا لكنك لن تقتل الذئب بعيار رش ولماذا تطلق النار؟ يمكن الإجهاز عليه بكعب البندقية .

وراح نيلوف يؤكد أنه ليس هناك شيء أسهل من قتل الذئب بكعب البندقية، وروى حادثة قضى فيها بضربة واحدة بعصا عادية على كلب مسعور ضخم هجم عليه .

فتنهد المحقق وهو ينظر بحسد إلى كتفى نيلوف العريضتين :

-من السهل عليك أن تقول ذلك ففيك من القوة، والحمد لله، ما يكفي عشرة تستطيع أن تقتل الكلب لا بالعصا بل بإصبعك أما المسكين من أمثالنا فإلى أن يشرع في رفع العصا، وإلى أن يحدد المكان الذي يوجه إليه الضربة، يكون الكلب قد عضه خمس مرات ياله من شيء مزعج ليس هناك مرض أشد عذاباً وفظاعة من السعار عندما رأيت إنسانا مسعوراً لأول مرة ظللت خمسة أيام أسير ذاهلاً

ويومها كرهت كل أصحاب الكلاب في الدنيا فأولا هذا المرض فظيع بوقعه المفاجئ المرتجل إذ يسير الإنسان سليماً، مطمئناً، لا يفكر في شيء، وفجأة وبلا أيه مقدمات يعضه كلب مسعور وعلى الفور تتملك الإنسان فكرة فظيعة بأنه هالك لا محالة ، ولا منقذ له وبعد ذلك يمكنكم أن تتصوروا الانتظار المرهق المقبض للمرض، والذي لا يترك المعضوض لحظة واحدة وبعد الانتظار يأتي المرض أما أفظع شيء فهو أن هذا المرض لا علاج له إذا مرضت به فقد كتب عليك الهلاك وليس هناك في الطب، على قدر علمى، حتى مجرد إشارة إلى إمكانية الشفاء .

فقال مكسيم - :عندنا في القرية يعالجونه يا سيدى ميرون يستطيع أن يشفى من تريد .

فزفر نيلوف قائلاً :

-هراء كل ما يقال عن ميرون مجرد ثرثرة في العام الماضي عقر كلب مسعور ستيوبكا، ولم يسعفه أي ميرون أصيب بالسعار رغم كل ما سقاه من أشياء كريهة كلا يا جدى، ليس من الممكن عمل شيء لو حدث لى ذلك، لو عضنى كلب مسعور، لأطلقت على رأسى رصاصة .

وكان لهذه الأحاديث الرهيبة عن السعار أثرها إذ كف الصيادان تدريجياً عن الكلام، وواصلا شرب الشاي في صمت وفكر كل منهما لا إرادياً في أن حياة الإنسان وسعادته رهن بالصدف والأشياء التافهة، الضئيلة

فيما يبدو، التي لا تساوي، كما يقال، شروى نقير وخيمت الكآبة والحزن عليهم جميعاً .

وبعد تناول الشاي تمطى نيلوف ونهض وأحس برغبة في الخروج إلى الهواء الطلق وبعد أن تمشى قليلاً بجوار مخزن الغلال، فتح باباً صغيراً وخرج كان الغسق قد غاب منذ وقت بعيد، وحل المساء بكل أبعاده وغاب النهر في سبات عميق هادئ .

وعلى السد المغمور بنور القمر لم تكن هناك قطعة ظل وفي منتصف السد لمعت كنجمة رقبة زجاجة مكسورة وبدت عجلتا الطاحونة، المختفيتان إلى نصفيهما في ظل صفصافة عريضة، غاضبتين وكئيبتين .

وزفر نيلوف بملء رئتيه وتطلع إلى النهر كان كل شيء ساكناً بلا حراك واستغرقت المياه والشاطئان في النوم، وحتى السمك لم يطرطش بيد أنه خيل لنيلوف فجأة أن شيئا يشبه الظل قد تدحرج كالكرة السوداء على الشاطئ الآخر، وراء خمائل الصفصاف وزر عينيه، فاختفى الظل، ثم سرعان ما ظهر وتدحرج نحو السد في خطوط متعرجة .

وهتف نيلوف في سره: الذئب

ولكن قبل أن يجول بخاطره والتفكير في ضرورة العودة ركضاً إلى الطاحونة ، كانت الكرة السوداء قد تدحرجت فوق السد ليس نحوه مباشرة، بل في خطوط متعرجة

وفكر نيلوف وهو يشعر بأن جلد رأسه تحت الشعر يقشعر : إذا جريت هاجمني من الخلف يا إلهي، ليس معي حتى عصا فلأقف في مكانى وسأخنقه وأخذ نيلوف يراقب بانتباه حركات الذئب وتعابير بدنه كان الذئب يجري على حافة السد، وأصبح الآن يحاذيه .

وفكر نيلوف وهو لا يحول نظره عنه: إنه يمر بى .

بيد أن الذئب في تلك اللحظة، ودون أن يتطلع إليه، أصدر كأنما بلا رغبة صوتاً متحشرجاً مستعطفاً، ثم حول وجهه نحوه وتوقف وكأنما كان يفكر : هل يهاجمه أم يتجاهله؟ .

وفكر نيلوف: ينبغي أن أضربه بقبضتي في رأسه أفقده صوابه .

وارتبك نيلوف إلى درجة أنه لم يعرف من الذي بدأ المعركة، هو أم الذئب؟ أدرك فقط أنه قد حلت لحظة رهيبة بصفة خاصة، لحظة حرجة، تتطلب منه تركيز كل قوته في يده اليمنى والإطباق على رقبة الذئب من قفاه وهنا وقع شيء خارق صعب تصديقه، شيء بدا لنيلوف ذاته أنه حلم فقد زأر الذئب الممسوك متشكياً واندفع بقوة حتى إن طبقة جلده الباردة الرطبة، التي أطبقت عليها يد نيلوف، انزلقت من بين أصابعه ووقف الذئب على ساقيه الخلفيتين محاولاً أن يحرر قفاه عندئذ أطبق نيلوف بيده اليسرى على ساقه الأمامية اليمني، وضغط عليها تحت الإبط مباشرة، ثم نزع يده اليمنى بسرعة من قفا الذئب وأطبق بها على إبطه الأيسر

ورفع الذئب في الهواء جرى ذلك كله في طرفة عين ولكى يمنع نيلوف الذئب من عضه في يديه، ولكي لا يمكنه من تحريك رأسه، غرز إبهامى يديه كمهمازين في رقبة الذئب عند عظمة الترقوة وارتكز الذئب بساقية الأماميتين في كتفى نيلوف، وإذ وجد بهذه الصورة نقطة ارتكاز انتفض بقوة رهيبة لم يكن بوسعه أن يعض يدى نيلوف حتى المرفق، كما عاقته عن مد فمه إلى وجه نيلوف وكتفيه الإصبعان المغروزتان في عنقه مسببتين له ألماً شديداً .

وفكر نيلوف وهو يدفع رأسه إلى الخلف إلى أقصى ما يمكن :يا للفظاعة لعابه سقط على شفتي إذن فقد هلكت حتى لو تخلصت منه بمعجزة .

وصاح .

-الحقونى يا مكسيم الحقوني .

كان كل من نيلوف والذئب يحدقان في أعين بعضهما البعض ورأسهما على مستوى واحد وقضقض الذئب بأسنانه، وأصدر أصواتاً متحشرجة، وطرطش لعابه وتخبطت ساقاه الخلفيتان بركبتى نيلوف بحثاً عن نقطة ارتكاز ولمع القمر في عيني الذئب، ولكن لم يبد فيهما أي ظل لغضب كانتا تبكيان، وبدتا أشبه بعيون بشرية .

وصاح نيلوف من جديد - :الحقونى يا مكسيم .

ولكنهم في الطاحونة لم يسمعوه وكان يدرك بغريزته أن الصراخ بصوت عال قد يضعف قوته، لذلك كان يصرخ بصوت غير عال وقرر في نفسه : سوف أتراجع بظهري وعندما أصل إلى الباب سأصرخ .

وبدأ يتراجع، ولكنه لم يكد يقطع ذراعين حتى أحس بأن يده اليمنى تضعف وتتخدر ثم سرعان ما جاءت اللحظة التي سمع فيها هو صراخه اليائس، وأحس بألم حاد في كتفه اليمنى، ولزوجه دافئة تسيل فجأة على يده كلها وصدره ثم سمع صوت مكسيم، وأدرك تعبير الرعب المرتسم على وجه المحقق الذي جاء ركضاً .

ولم يفلت عدوه من قبضته إلا عندما بسطوا أصابعه بالقوة وأكدوا له أن الذئب قد قتل وعاد إلى الطاحونة ذاهلاً تحت وطأة أحاسيس قوية وهو على وشك الإغماء وقد أحس بالدم يسيل على فخذيه وفي حذائه الأيمن وأعادته النار ومنظر السماور وزجاجات الخمر إلى وعيه، وذكرته بكل ما عاناه لتوه من رعب، وبالخطر الذي بدأ الآن فقط يتهدده وجلس على الزكائب شاحباً، بحدقتين متسعتين ورأس مبلل، وأرخى ذراعيه مرهقاً وجرده المحقق ومكسيم من ملابسه وانهمكا في تضميد جرحه كان جرحاً كبيراً فقد مزق الذئب جلد الكتف كلها، بل وأصاب العضلات .

وقال المحقق محتجاً وهو يوقف النزيف - :لماذا لم تلق به في النهر؟ لماذا لم تقذف به في النهر؟ -لم أفطن يا إلهي، لم أفطن .

وأراد المحقق أن يخفف عنه ويؤمله خيراً، ولكن بعد تلك الألوان الصارخة التي أضفاها على السعار بسخاء عندما وصفه من قبل، لم يعد ثمة معنى الكلمات التسرية، فوجد من الأفضل أن يصمت وبعد أن ضمد الجرح كيفما اتفق، أرسل مكسيم إلى الضيعة لإحضار العربة، ولكن نيلوف لم يرغب في انتظارها، ومضى إلى البيت سيراً على الأقدام .

وفي الصباح، في حوالي السادسة، جاء إلى الطاحونة شاحباً، مشعثاً وقد هزل من الألم والسهاد .

وقال مخاطباً مكسيم - :يا جدى، خذني إلى ميرون بسرعة هيا، اجلس في العربة .

وارتبك مكسيم، الشاحب أيضاً، والذي لم ينم طول الليل، وتلفت حوله عدة مرات، ثم قال بهمس :

-لا داعى يا سيدى للذهاب إلى مبرون أنا أيضاً، لا مؤاخذة، أستطيع أن أعالج.

طيب، لكن بسرعة أرجوك .

وراح نيلوف يخطو في مكانه بضيق صدر وأوقفه العجوز مديراً وجهه ناحية الشرق، وتمتم بكلمات ما، وقدم له كوزاً به سائل دافئ كريه طعمه كالشيح ليشربه ودمدم نيلوف

ولكن ستيوبكا مات لنفرض أن هناك أدوية شعبية ولكن ولكن لماذا مات ستيوبكا إذن؟ خذني مع ذلك إلى ميرون .

ومن ميرون، الذي لم يثق به ، توجه إلى المستشفى، إلى الطبيب أفتشينيكوف وبعد أن حصل هنا على حبوب البلادونة وعلى نصيحة ملازمة الفراش، بل الخيول ودون أن يعبأ بالألم الرهيب في ذراعه، انطلق إلى أطباء المدينة .

وبعد حوالي أربعة أيام، وفي ساعة متأخرة من المساء دخل راكضاً على أفتشينكوف، وارتمى على الكنبة .

-يا دكتور قال مختنقاً وهو يمسح العرق من وجهه الشاحب المهزول بكمه .
-يا جريجورى أيفانيتش اصنع بى ما تريد، لكني لا أستطيع أن أبقى هكذا بعد الآن إما أن تعالجني وإما أن تسقيني السم، لكن لا تدعني هكذا أتوسل إليك لقد جننت .فقال أفتشينيكوف. :عليك أن تلازم الفراش .

-أوه فلتذهب بفراشك إلى الشيطان إنني أسألك بوضوح، بلغة روسية : ماذا أفعل؟ أنت طبيب ويجب أن تساعدني إنني أتعذب في كل لحظة يخيل إلى أنني بدأت أنسعر أنا لا أنام ولا آكل، ولا أستطيع أن أزاول عملاً ها هو ذا المسدس في جيبي، وكل لحظة أخرجه لكي أطلق رصاصة على رأسى جريجوري إيفانيتش، عليك أن تهتم بي، أرجوك ماذا أفعل؟ ما رأيك، هل أذهب إلى البروفيسورات؟ .

- الأمر سيان اذهب إذا أردت .

-اسمع، ماذا لو أعلنت مسابقة أعطى فيها خمسين ألف روبل لمن يشفيني؟ ما رأيك، هه؟ ولكن إلى أن أعلن عنها في الصحف، وإلى أن أكون قد انسعرت عشر مرات أنا مستعد الآن أن أهب ثروتى كلها اشفنى وسأعطيك خمسين ألفا عالجني أرجوك أنا لا أفهم هذه اللامبالاة المحنقة من جانبك افهمني، إنني الآن أحسد كل ذبابة أنا تعيس وأسرتي تعيسة .

واختلجت كتفا نيلوف، وشرع يبكى فبدأ أفتشينكوف يطيب خاطره :

-اسمع أنا إلى حد ما لا أفهم انفعالك هذا لماذا تبكي؟ ولماذا تهول من الخطر إلى هذه الدرجة؟ فلتفهم، أن لديك فرصاً لعدم المرض أكثر بكثير من فرص المرض فأولا : من كل مائة معضوض لا يمرض إلا ثلاثون وعلاوة على ذلك، وهذا مهم جداً، فقد عضك الذئب عبر الملابس، وإذن فقد بقى السم في الملابس وحتى لو وصل السم إلى الجرح فلا بد أن يخرج مع الدم لأنك نزفت بشدة إنني مطمئن تماماً بشأن السعار، وإذا كان هناك ما يقلقني فهو جرحك فقط فمع إهمالك هذا من السهل أن تصاب بالحمرة، أو بشيء من هذا القبيل .

- صحيح؟ هل تطيب خاطري أم تتكلم بجد؟ -أقسم بشرفى أتكلم بجد خذ، اقرأ

وتناول أفتشينيكوف كتاباً من الرف، وأخذ، وهو يتجنب المواضع المخيفة، يقرأ لنيلوف فصلاً عن السعار وقال بعد أن فرغ من القراءة :

-إذن فعبثا تقلق زد على ذلك كله أننا لا نعلم ما إذا كان ذلك الذئب مسعورا أم سليما .

هم نعم وافق نيلوف مبتسماً طبعاً، الآن مفهوم إذن فكل ذلك هراء .طبعا هراء .

-أشكرك يا عزيزى وضحك نيلوف بمرح وهو يفرك يديه أنا الآن مطمئن أيها العلامة النابة أنا مسرور، بل سعيد أي والله .

صحيح، بل أقسم بشرفي .

وعانق نيلوف أفتشينيكوف وقبله ثلاث مرات ثم تملكه طيش صبياني، الأمر الذي يميل إليه بطبيعتهم الأشخاص الطيبون الأقوياء البدن فالتقط من على الطاولة حدوة وأراد أن يقومها، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا وقد أنهكته الفرحة والألم في كتفه فاكتفى بأن طوق الدكتور أسفل خصره اليسرى وحمله على كتفه من مكتبه إلى غرفة الطعام وغادر أفتشينيكوف فرحان سعيداً، بل بدا أن الدموع التي لمعت على لحيته السوداء العريضة كانت تفرح معه وعندما هبط على الدرج ضحك بصوت غليظ وهز درابزين الدرج الخارجي بقوة، حتى إن إحدى خشباته انخلعت، بينما اهتز الدرج الخارجي كله تحت أقدام أفتشينيكوف

وقال أفتشينيكوف في سره وهو يحدق في ظهر نيلوف العريض: يا له من عملاق ياله من جدع.

وعندما جلس نيلوف في العربة بدأ يحكي مرة أخرى ومن البداية وبكل التفاصيل صراعه مع الذئب فوق السد .

وأنهى روايته ضاحكاً :

-يا له من صراع سيكون هناك ما أتذكره في الشيخوخة أسرع ياتريشكا؟

عند زوجة رئيس النبلاء

في أول فبراير من كل عام، وفي عيد القديس تريفون، تدب حركة غير عادية في ضيعة أرملة رئيس نبلاء الإقليم السابق تريفون لفوفتش زافزياتوف .

ففي هذا اليوم تقيم أرملة رئيس النبلاء لوبوف بتروفنا قداساً على روح المرحوم، وبعد القداس صلاة شكر للسيد الرب ويأتي الإقليم كله لحضور القداس فهنا ترى رئيس النبلاء الحالي خروموف، ورئيس مجلس الإقليم مارفوتكين وعضو المجلس الدائم بوتراشكوف، ومفتشي لجنة الإقليم، ومأمور المركز كرينولينوف، وشرطيى نقطتي الشرطة ، وطبيب المجلس المحلى دفورنياجين الذي تفوح منه رائحة اليودفورم، وكل الإقطاعيين، كبارهم وصغارهم، وغيرهم وكان عدد الحاضرين يصل إلى حوالي خمسين شخصاً .

وفي تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً يتقاطر الضيوف بوجوه مستطيلة من جميع الغرف إلى الصالة والأرض مغطاة بالسجاد فلا يسمع وقع الخطوات، ولكن جلال الموقف يجعلهم يشبون لا إراديا على أطراف أصابعهم ويحفظون توازنهم بأيديهم أثناء المشي كل شيء جاهز في الصالة

ويقوم الأب يفمينى، ذلك العجوز الصغير، ذو الطاقية العالية الباهتة، بارتداء بدلة القداس السوداء أما الشماس كونكورديف فيقف أحمر كسرطان البحر المسلوق، مرتديا حلته، ويقلب صفحات كتاب الصلوات دون صوت واضعاً بين الصفحات قصاصات ورق. وعند الباب

المفضي إلى المدخل ينفخ القندلفت لوقا في المبخرة وقد انتفخ خداه العريضان وجحظت عيناه وتمتلئ الصالة تدريجيا بدخان البخور الأزرق الشفاف ورائحته أما المدرس الأهلى جيليكونسكى، وهو رجل شاب ، يرتدي حلة جديدة مهدلة، وعلى وجهه المذعور بثور كبيرة، فيوزع الشموع على صينية معدنية وتقف ربة الدار لوبوف بتروفنا في المقدمة بجوار مائدة عليها طبق الكوتيا، وتقرب المنديل من عينيها سلفا والهدوء يعم المكان ولا تتخلله إلا زفرات متفرقة ووجوه الجميع مشدودة، مهيبة ..

ويبدأ القداس من المبخرة يتدفق دخان أزرق متموجا في أشعة الشمس المائلة، والشموع المشتعلة تطقطق بوهن. ويبدأ الغناء حادا مجلجلا، ثم سرعان ما يصبح هادئا منتظما عندما يتكيف المغنون شيئا فشيئا مع الظروف الصوتية للمكان والألحان كلها حزينة ، مكتئبة وشيئا فشيئا ينسجم الضيوف مع المزاج الانطوائي ويستغرقون في التفكير وتتسرب إلى أذهانهم أفكار عن قصر الحياة والفناء وبهرج الدنيا الزائل ويتذكرون المرحوم زافزياتوف، الملىء الجسم الأحمر الخدين، الذي كان يشرب زجاجة الشمبانيا دفعة واحدة ويحطم المرايا بجبهته

وعندما يغنون مع القديسين الرحمة وتسمع شهقات ربة الدار، ويتململ الضيوف في وقفتهم بكآبة أما ذوو المشاعر المرهفة منهم فيحسون بحك في حلوقهم وحول جفونهم ويحاول رئيس مجلس الإقليم مارفوتكين أن يكبت هذا الإحساس الكريه فيميل على أذن مأمور المركز هامساً ـ بالأمس كنت عند إيفان فيودورفتش أحرزت أنا وبيوتر بتروفتش فوزاً ساحقاً بدون أوراق رابحة أي والله وثارت أولجا لدرجة أن سقطت من فمها سن صناعية .

وها هو ذا نشيد الذكرى الخالدة وها هو ذا جيليكونسكى يستعيد الشموع باحترام، وينتهي القداس وتتلو ذلك دقيقة هرج وتبديل حلة القداس استعداداً للصلاة وبعد انتهاء الصلاة، وبينما الأب يفمينى يخلع لباس القداس، يفرك الضيوف أيديهم ويسعلون، بينما تتحدث ربة الدار عن طيبة المرحوم تريفون لفوفتش .

وتنهي حديثها قائلة وهي تتنهد ـ :تفضلوا إلى المائدة يا سادة .

ويسرع الضيوف إلى غرفة الطعام وهم يحاولون ألا يتزاحموا أو يدوسوا على أقدام بعضهم البعض وهناك ينتظرهم الإفطار وهذا الإفطار فاخر إلى درجة أن الشماس كونكورديبف يرى من واجبه كل عام، عندما يراه، أن يشيح بذراعيه، ويهز رأسه من الدهشة ويقول :شيء خرافي إن هذا يا أبانا يفميني لا يشبه طعام البشر بقدر ما يشبه القرابين المقدمة للآلهة .

والإفطار بالفعل غير عادي فعلى المائدة يوجد كل ما يمكن أن يهبه عالما النبات والحيوان أما الخرافي فيه فربما كان شيئاً واحداً : وهو أن المائدة تحوي كل شيء إلا المشروبات الكحولية فقد نذرت لوبوف بتروفنا على نفسها ألا تحتفظ في بيتها بأوراق اللعب والمشروبات الكحولية، أي بالشيئين الذين قضيا على زوجها. ومن ثم فليس على المائدة إلا زجاجات الخل والزيت، وكأنها نكاية وسخرية بالطاعمين الذين هم عن بكرة أبيهم من السكارى والمدمنين .

وتدعو زوجة رئيس النبلاء الضيوف :

-كلوا يا سادة لكن اعذروني فليس لدى فودكا لا أحتفظ بها في البيت ويقترب الضيوف من المائدة ويشرعون في تناول الكعكة بتردد ولكن الوليمة لا تسير كما يرام ويبدو في غرز الشوك والتقطيع والمضغ تراخ ما وخمول يبدو أن شيئاً ما ينقصهم .

ويهمس أحد مفتشي لجنة الإقليم لزميله :

-أشعر كأنني فقدت شيئاً ما مثل هذا الإحساس راودني عندما هربت زوجتي مع المهندس لا أستطيع أن آكل وقبل أن يشرع مارفوتكين في الأكل يفتش طويلاً في جيوبه بحثاً عن منديله ثم يقول متذكراً بصوت عال :

-آه، المنديل في المعطف وأنا أبحث عنه ويمضي إلى المدخل حيث علقت المعاطف

ويعود من المدخل بعينين لامعتين، وينهال على الكعكة فوراً بشهية ويهمس للأب يفمينى :

-ماذا، الأكل على الناشف كريه؟ اذهب يا أبتاه إلى المدخل، هناك زجاجة في جيب معطفي لكن حذار، إياك أن تقرقع بالزجاجة ويتذكر الأب يفميني أن عليه أن يأمر لوقا بشيء ما، ويسرع بخطوات قصيرة نحو المدخل .

ويلحق به دفورنياجين صائحاً : يا أبانا أريدك في كلمتين، سراً .

ويقول خروموف مباهياً :

-يا له من معطف اشتريته يا ساده بالصدفة يساوي ألفا، ولكني دفعت لن تصدقوا مائتين وخمسين فقط .

وما كان الضيوف ليعيروا انتباهاً لذلك الخبر في وقت آخر، أما الآن فقد أعربوا عن دهشتهم وعدم تصديقهم ومن ثم مضوا جميعاً إلى المدخل ليشاهدوا المعطف، وظلوا يشاهدونه إلى أن حمل خادم الطبيب من المدخل سراً خمس زجاجات فارغة وندماً أتى الخدم بطبق السمك المسلوق تذكر مارفوتكين أنه نسي علبة سجائرة في العربة، وذهب إلى الإصطبل ولكي لا يشعر بالملل وحده أخذ معه الشماس، الذي اتضح أنه ينبغي عليه أيضاً أن يتفقد حصان .

وفي مساء ذلك اليوم جلست لوبوف بتروفنا في غرفة مكتبها لتكتب رسالة إلى إحدى صديقاتها القديمات في بطرسبرج وكان من بين ما كتبت :اليوم، كما في السنوات السابقة، أقمت قداساً على روح المرحوم وحضر القداس كل جيراني إنهم أناس أفظاظ، بسطاء، ولكن ما أرق قلوبهم أقمت لهم وليمة فاخرة، ولكن لم تكن هناك بالطبع، كما في الأعوام السابقة، قطرة شراب مسكر فمنذ أن مات زوجي بسبب الإفراط أقسمت أن أنشر في إقليمنا الصحو وبذلك أكفر عن ذنوبه وقد بدأت الموعظة من بيتي وقد أبدى الأب يفمينى إعجابه بمشروعي ويساعدني بالقول والفعل أوه ، لو تعرفين كم يحبنى دببتي هؤلاء بعد الإفطار أخذ رئيس مجلس الإقليم مارفوتكين يقبل يدي وظل طويلاً يضعها على شفتيه وهو يهز رأسه بصورة مضحكة ، ويكى من فيض المشاعر وعجز الكلمات أما الأب يفمينى ، هذا العجوز الرائع، فقد جلس إلى جوارى، وحدق في بعينين دامعتين وظل يتمتم طويلاً كالطفل ولم أفهم ما قاله ، ولكني أستطيع أن أفهم المشاعر الصادقة أما المأمور، ذلك الرجل الجميل الذي كتبت لك عنه، فقد ركع أمامي على ركبتيه، وأراد أن يقرأ أشعاراً من تأليفه (فهو شاعر عندنا) ولكنه لم يتمالك قواه فترنح ووقع قد أصابت هذا العملاق نوبة هستيريا هل تتصورين مدى إعجابي؟ بالطبع لم يخل الأمر من بعض المنغصات فرئيس مؤتمر الإقليم الاليكين المسكين، وهو رجل بدين مصاب بالسكتة ، ساءت حالته، ورقد على الكنبة ساعتين فاقد الوعي.

واضطررنا لصب الماء عليه شكراً للدكتور دفورنياجين، إذ أحضر من صيدليته زجاجة كونياك وبلل له صدغيه، فسرعان ماعاد إلى وعيه ثم حملوه .

العازف الأجير

الساعة تدور في الثانية ليلاً أجلس في غرفتي بالفندق وأكتب صورة شعرية هجائية طلبت مني وفجأة يفتح الباب على مصراعيه، ويدلف إلى الغرفة فجأة شريكي فيها بيوتر روبليوف، الطالب السابق في كونسرفتوار موسكو وللوهلة الأولى يذكرني وهو في قبعته الطويلة ومعطفه الثقيل المفتوح بشخصية ريبيتيلوف ولكن بعد أن أدقق النظر في وجهه الشاحب وعينيه الحادتين إلى درجة غير عادية وكأنهما ملتهبتان ، يختفي وجه الشبه بينه وبين ريبيتيلوف .

أسأله - :لماذا عدت مبكرا هكذا؟ الساعة الثانية فقط هل انتهى العرس؟ ولا يرد شريكي على يمضي في صمت إلى ما وراء الحاجز، ويخلع ملابسه بسرعة ويستلقي على سريره وهو يزحر .

وبعد حوالي عشر دقائق أسمعه يهمس :

-نم أيها الوغد نم ما دمت رقدت إذا لم ترد أن تنام فلتذهب إلى الشيطان

فأسأله :

-ماذا يا بيتيا، النوم يجافيك؟ .

-الشيطان يعلم ماهذا لا أستطيع أن أنام أكاد أنفجر من الضحك الضحك يمنعني من النوم ها ها . -وما الذي يضحك؟

-وقع حادث مضحك يا لها من حادثة لعينة ويخرج روبليوف من خلف الحاجز ويجلس بجوارى وهو يضحك ويقول وهو ينشر شعره :

- أمر مضحك ومخجل لم يحدث لي في حياتي كلها يا أخي أن تعرضت لمثل هذه الزقة ها ها فضيحة من الطراز الأول من أرقى نوع .

ويضرب روبليوف ركبته بقبضته ويقفز واقفاً ثم يذهب ويجيء حافياً على الأرضية الباردة .

وأتطلع إلى روبليوف وجه مخصوص، مستهلك، ومع ذلك بقي في مظهره كله من الاستقامة والنعومة النبيلة ، اللياقة ما يجعل هذه العبارة الخشنة طردونى شر طردة غير منسجمة أبداً مع شخصيته المثقفة .

-فضيحة من الدرجة الأولى ظللت أقهقه طوال الطريق أثناء عودتي أوه، دعك من هذه التفاهة التي تكتبها سأحكي لك، سأسكب كل ما في روحي فربما كففت عن الضحك دعك من كتابتك اسمع قصة طريفة في شارع أربات يعيش شخص يدعى بريسفيستوف، مقدم متقاعد، متزوج من ابنة غير شرعية للكونت فون كراخ يعنى أرستقراطي يزوج ابنته من ابن التاجر يسكيموسوف وهذا الأسكيموسوف بارفينو وموفي -جانر، حلوف في مسوح العلماء وموفي فليس لديهما فرصة للاهتمام بالموفي جانر وغيره

وذهبت اليوم في الساعة التاسعة إلى آل بر سفيستوف للعزف على البيانو وكان الطريق مغطى بالأوحال، والمطر يسقط، والضباب مخيم وكالعادة سيطر على قلبي إحساس مقرف .

فقلت له - :اختصر دعك من السيكولوجيات .

حسناً جئت إلى آل بريسفيستوف كان العروسان والضيوف يلتهمون الفواكه بعد عقد القران، وذهبت إلى موقعى البيانو وجلست في انتظار بدء الرقص .

ورانى صاحب الدار فقال : آه ، وصلت حسناً، اسمع يا حضرة،اعزف جيداً، وإياك أن تسكر .

لقد تعودت يا أخي على هذه التحايا ولم تعد تغضبني ها ها إذا جعلت نفسك قنطرة فلتتحمل الدوس أليس كذلك؟ فمن أنا؟ عازف أجير خادم نادل يجيد العزف للتجار في حفلاتهم .

يخاطبوننى ب أنت ويعطونني بقشيشاً وليس في ذلك أية إهانة حسنا ولما لم يكن لدي ما أفعله حتى بداية الرقص فقد رحت أنقر على البيانوا، هكذا، لتسخين أصابعي وبعد قليل، وبينما أنا أعزف سمعت خلفي شخصاً يدندن اللحن والتفت فإذا بها آنسة وقفت ، الملعونة ، خلفي وهي تتطلع إلى مفاتيح البيانو بإعجاب فقلت لها :لم أكن أعرف يا مدموازيل أن أحداً يصغي إلى فتنهدت وقالت :معزوفة جميلة فقلت: نعم جميلة وهل تحبين الموسيقى؟

أخذنا نتجاذب أطراف الحديث واتضح أنها كثيرة الكلام أنا لم أسحبها من لسانها، بل هي التي مضت تثرثر : من المؤسف أن شباب اليوم لا يهتم بالموسيقى الجادة وكنت مسروراً إلى لفت انتباهها يالي من أحمق، مغفل إذن فقد بقي لدى هذا الكبرياء الكريه واتخذت وضع العالم بالأمور ورحت أوضح لها أن عدم اكتراث شبابنا مرده إلى انتفاء الطموح إلى القيم الجمالية في مجتمعنا كنت أتفلسف .

وسألت روبليوف: - وأين هي الفضيحة؟ هل وقعت في حبها؟ .

-يا للهراء الحب هو فضيحة ذات طابع شخصي، أما في حالتي فقد كان الحدث عاماً، على نطاق المجتمع الراقي نعم كنت أتحدث مع الآنسة ولكني أخذت ألاحظ شيئاً غير طبيعي فقد جلس وراء ظهري أشخاص ما وراحوا يتهامسون وسمعت كلمة عازف أجير وضحكات إذن فهم يتحدثون عني ترى ماذا حدث؟ هل انفكت رابطة عنقى؟ تحسست رابطة العنق لا شيء وبالطبع لم ألق إليهم بالاً ومضيت أتحدث أما الآنسة فقد انهمكت في النقاش وانفعلت حتى احمر وجهها كله كانت منطلقة وانهالت بالنقد العاصف على الملحنين المعاصرين ففي أوبرا المارد التوزيع جيد ولكن ليس هناك موتيقات، وريمسكى كورساكوف مجرد قارع طبول، وفارلاموف لم يؤلف شيئا متكاملاً ... الخ وفتيات وفتيان اليوم لا يكادون يعرفون من العزف غير السلم الموسيقى، وبينما يدفعون خمسة وعشرين كوبيكا لقاء الدرس تراهم مستعدين لكتابة المقالات النقدية في الموسيقى وآنستى من هذا النوع

ورحت أصغي ولا أجادل إنني أحب أن أرى مخلوقاً شاباً ، غضاً، وهو غاضب يشغل مخه أما ورائى فقد استمر الهمس ثم ماذا؟ فجأة اقتربت من آنستى طاووسة من فصيلة الأمهات أو الحالات، ضخمة، حمراء، لا تحيط بخصرها خمس أذرع، ودون أن تتطلع إلى همست في أذن الآنسة بشيء ما وإذا بالآنسة تتضجر وتخفى وجهها براحتيها وتندفع بعيداً عن البيانو كالملسوعة ماذا حدث؟ فك اللغز يا أوديب الحكيم قلت لنفسي إما أن السترة تمزقت على ظهرى وإما أن عيباً ما قد ظهر في هندام الآنسة، وإلا فمن الصعب فهم ما حدث وتحوطاً فقد ذهبت بعد عشر دقائق إلى المدخل لأتفحص ملبسي تفحصت ربطة العنق والسترة وغيرها كل شيء في مكانه ولم يتمزق ولحسن حظى كانت عجوز ما واقفة في المدخل ومعها صرة وشرحت لي كل شيء ولولاها لظللت في جهلي السعيد قالت العجوز لأحد الخدم :

آنستنا تحب دائماً أن تظهر شخصيتها ورأت بجوار البيانو شاباً فراحت تثرثر معه وتضحك وتتنهد وكأنه سيد حقيقي واتضح أن الشاب ليس ضيفاً بل عازفاً أجيراً من الموسيقيين فيا له من حديث شكراً لماريا ستيبانوفنا فقد همست في أذنها وإلا - لا قدر الله - لوضعت ذراعها في ذراعه وتمشت معه إنها الآن تشعر بالخجل، ولكن بعد فوات الأوان فما حدث حدث أرأيت؟ .

فقلت له - :الفتاة حمقاء، والعجوز حمقاء كل ذلك لا يستحق أي اهتمام أنا لم أهتم شيء مضحك، ولا أكثر لقد تعود منذ زمن طويل على هذه المفاجآت قبلاً كنت أشعر: حقيقة بالألم، أما الآن فأبصق على ذلك فتاة حمقاء طائشة لا تستحق الشفقة وجلست ورحت أعزف للرقص عزف لا يستدعي أية جدية رحت أعزف رقصات الفالس والكادريل والمارشات الصاخبة إذا أحست روحك الموسيقية بالمهانة فاذهب واشرب كأساً وسترقص طرباً من أنغام بوكاتشيو.

-وأين الفضيحة إذن؟ أخذت أنقر على المفاتيح ولا أفكر في الفتاة أضحك فقط، ولكن راح شيء ما ينغز في قلبي وكأن هناك فأرا يقبع في ضلوعي ويقرض خبزاً جافاً ولا أدري لماذا أشعر بالحزن والقرف أخذت أقنع نفسي وأشتمها، وأضحك وأدندن بنغمات الألحان التي أعزفها، ولكن شيئاً كان يقبض على قلبي وبقوة شيء يتحرك في صدرى ويخدش ويقرض ثم يصعد إلى حلقى كالغصة وأكز على أسنانى وأقاوم حتى يختفي ثم يعود من جديد ما هذه المصيبة وعلاوة على ذلك، وكأنما عن عمد ترد إلى ذهنى شتى الأفكار السخيفة فأتذكر كيف أصبحت تافها لقد قصدت موسكو قاطعاً ألفى كيلومتر كنت أهدف إلى أن أصبح موسيقاراً أو عازف بيانو، فإذا بى عازف أجير في الحقيقة هذا شيء طبيعي بل إنه يثير الضحك، ومع ذلك أشعر بالغثيان وأتذكرك وأفكر فيك :

ها هو ذا شريكى في الغرفة الآن جالس يسطر يصف المسكين الشرطة النائمين وصراصير المخابز والطقس الخريفي السيئ يصف بالذات كل ما وصف من زمن بعيد، كل ما أشبع لوكاً وهضماً أفكر في ذلك ولست أدري لماذا أشفق عليك أشفق عليك لدرجة البكاء إنك شاب رائع، طيب القلب، ولكن ليس فيك تلك الشعلة ، أتدرى، تلك المرارة، تلك القوة ليس في ذلك الحماس فلماذا أنت كاتب ولست صيدليا أو إسكافيا، الله يعلم وتذكرت كل زملائي الخائبين، كل هؤلاء المغنيين والمصورين والهواة كلهم كانوا في وقت ما يفورون ويمورون ويحلقون في السماء، أما الآن فالشيطان يعلم ما هذا لماذا اقتحمت رأسي هذه الأفكار بالذات، لست أفهم عندما أطرد نفس من رأسي يقتحمها زملائي، وأطرد زملائي فتقتحمها الفتاة وأضحك من الفتاة ولا أعيرها أهمية، ولكنها لا تدعني أنعم بالراحة وأقول لنفسي: ما هذه الخصلة لدى الإنسان الروسي فطالما أنت حر، تدرس أو تتسكع بلا عمل، فبوسعك أن تشرب معه وتربت على كرشه، وتتودد إلى أبنته، ولكن ما إن تصبح علاقتك به على نحو ولو قليل من التبعية، حتى تصير صرصاراً ينبغي أن يعرف قدره أتدرى، أخذت أجاهد لأكبت هذه الأفكار، ولكن الغصة مضت تصعد إلى حلقي تصعد وتضغط عليه وتعصره وأخيراً أحسست بسائل في عينى، وانقطعت ألحان بوكاتشيو وذهب كل شيء إلى الشيطان وأصمت أسماع الحاضرين الأكابر أصوات أخرى أصبت بهيستريا كفاك كذبا .

-أي والله يقول روبليوف وهو يتضجر ويحاول أن يضحك ما رأيك في هذه الفضيحة؟ ثم شعرت بهم يسحبونني إلى المدخل ويلبسوننى المعطف وسمعت صوت رب البيت يقول : - من الذي أسكر العازف الأجير؟ من الذي أعطاه الفودكا؟ وفي آخر المطاف طردت ما رأيك في هذه المفاجأة؟ ها ها لم أكن في حال تسمح بالضحك ساعتها، أما الآن فأكاد أموت من الضحك رجل صخم مثلي طويل وعريض وفجأة يصاب بهيستيريا ها ها ها .

وأسأله وأنا أتطلع إلى كتفيه ورأسه وهي تهتز من الضحك - :وما المضحك في ذلك؟ بيتيا أرجوك ما المضحك؟ بيتيا ياعزيزى.

ولكن بيتيا يقهقه، وبسهولة أرى في قهقهته دلائل الهيستيريا، فأبدأ في العناية به وأنا أسب فنادق موسكو التي لا يعرفون فيها عادة ملء دوارق المياه للشرب ليلاً .

تواريخ حية

غرفة الجلوس في دار مستشار الدولة شاراميكين مغلفة بظلمة خفيفة لطيفة والمصباح البرونزي الكبير ذو الأباجورة الخضراء بلون الجدران والأثاث والوجوه بلون أخضر على طريقة ليل أوكرانيا ومن حين لحين تتوهج جمرة حطب في الموقد الموشك على الانطفاء، فيغمر الوجوه للحظة لون لهب الحرائق : ولكن ذلك لا يفسد هارموني الألوان العام في التون العام، كما يقول المصورون، محافظ عليه هنا .

وعلى مقعد أمام الموقد يجلس شاراميكين نفسه، في وضع رجل تغدى لتوه وهو سيد كهل، بسوالف موظفين بيضاء، وعينين زرقاوين مستكينتين وتنساب الرقة على وجهه، وشفتاه مطبقتان على ابتسامة حزينة وعند قدميه يجلس على أريكة ، مادا ساقيه في كسل وهو يتمطى، نائب المحافظ لوبنيف، وهو رجل نشيط، في حوالي الأربعين من عمره وبجوار المعزف يلهو أولاد شاراميكين: نينا وكوليا وناديا وفانيا ومن الباب الموارب المفضي إلى غرفة مكتب مدام شاراميكينا يتسلل ضوء خجول فهناك خلف الباب تجلس إلى مكتبها زوجة شاراميكين آنا بافلوفنا، رئيسة لجنة النساء المحلية، وهي سيدة بادية الحيوية، مثيرة، تخطت الثلاثين بقليل وتجرى عيناها السوداوان النشطتان عبر العوينات على صفحات رواية فرنسية وتحت الرواية يرقد تقرير مجعد الصفحات عن نشاط اللجنة في العام الماضي

ويقول شاراميكين وهو يزر عينيه المستكينتين ناظراً إلى جمرات الحطب:

ـ كانت مدينتنا من قبل محظوظة أكثر من هذه الناحية لم يمر شتاء واحد إلا وزارنا نجم ما كان يأتينا مشاهير الممثلين والمطربين، أما الآن فالشيطان وحده يعلم ما هذا لا أحد يأتي سوى الحواة والمتسولين من عازفي الأرغن اليدوي في الشوارع ليس هناك أيه متعة جمالية نعيش كأنما في غابة نعم أتذكر يا صاحب السعادة ذلك الممثل التراجيدي الإيطالي ما اسمه؟ ذلك الأسمر الطويل ليهبني الله الذاكرة آه نعم لويجى أرنستو دى روجييرو يا له من موهبة رائعة يا للقوة كان يكفي أن يتفوه بكلمة واحدة حتى تهتز قلوب النظارة لقد شاركت زوجتى أنيوتا بحماس في كبير تشجيع موهبته حجزت له المسرح وباعت له التذاكر لعشر حفلات ومكافأة لها على ذلك علمها الإلقاء والحركات ما أنبل روحه لقد حضر إلى هنا منذ أرجو ألا أخطىء منذ حوالي اثنتي عشرة سنة كلا أخطأت بل أقل منذ حوالي عشر سنوات أنيوتا، كم عمر ابنتنا نينا؟ .

فتصيح آنا بتروفنا من غرفة مكتبها : - في العاشرة وماذا؟ لا شيء يا ماما، هكذا وكان يزورنا أيضاً مطربون جيدونهل تذكر بريليبتشين، ذلك الصوت ؟ ما أنبل روحه؟ بالهيئته أشقر ووجه معبر، وحركاته باريسية وما أروع صوته يا صاحب السعادة كان يعيبه شيء واحد كان يغني بعض النوتات من بطنه و رى بطبقة عالية، وفيما عدا ذلك كان مجيداً قال إنه درس على بدى تامبرلك.. دبرت له أنا وأنيوتا قاعة وفي النادي الاجتماعي

وشكراً منه لنا على ذلك كان أحيانا يغني لنا أياماً وليالي بأكملها وعلم أنيوتا الغناء لقد جاء إلينا، كما أذكر جيدا، في الصوم الكبير منذ حوالي اثنتي عشرة سنة كلا، بل أكثر يا للذاكرة ، أستغفر الله أنيوتا، كم عمر ابنتنا ناديا؟

-اثنتا عشرة .

-اثنتا عشرة فإذا أضفنا إليها عشرة أشهر نعم بالضبط ثلاث عشرة كانت مدينتنا قبلا أكثر حيوية خذ مثلا الحفلات الخيرية ما أروع الحفلات التي كانت تقام في السابق يا للسحر غناء، وعزف، وإلقاء وبعد الحرب أذكر ، عندما كان الأسرى الأتراك يقيمون هنا، أقامت أنيوتا حفلاً لصالح الجرحى جمعنا ألف ومائة روبل أذكر أن الضباط الأتراك كانوا مفتونين بصوت أنيوتا، وكانوا طوال الوقت يقبلون يدها هيء رغم أنهم أسيويون إلا أنهم أمة تقدر الجميل وكانت الحفلة موفقة إلى درجة أنني، أتصدق، كتبت عنها في يومياتي كان ذلك كما أذكر الآن في سنة ستة وسبعين كلا في سبعة وسبعين كلا مهلا، متى أقام الأتراك عندنا؟ أنيوتا، كم عمر ابننا كوليا؟ .

ـ عمري سبع سنوات يا بابا ـ يقول كوليا، ذلك الصبي الأسمر الوجه وذو الشعر الأسود الفاحم ويقول لوبنيف موافقاً وهو يتنهد :

نعم، هرمنا ولم تعد لدينا تلك الطاقة هذا هو السبب الشيخوخة يا أخي ليس هناك مبادرون جدد، أما القدامى فقد هرموا لم تعد لدينا تلك الشعلة

أنا، عندما كنت أصغر، لم أكن أحب أن يشعر المجتمع بالملل كنت المساعد الأول لزوجتكم آنا بافلوفنا فإذا كانت هناك حاجة لإقامة حفل خيرى، أو يانصيب، أو لمساعدة نجم مشهور وصل، كنت أترك كل شيء وأشرع في السعى وأذكر أنني ذات شتاء انهمكت في الجري والسعي إلى درجة أنني مرضت لن أنسى أبدا ذلك الشتاء أتذكر أيه مسرحية ألفتها أنا وزوجتكم آنا بافلوفنا لصالح منكوبي الحريق؟ في أية سنة كان ذلك؟

-منذ فترة ليست بعيدة في تسعة وسبعين كلا، في سنة ثمانين على ما أظن مهلا، كم عمر ابنكم فانيا؟

خمسة - تصيح آنا بافلوفنا من غرفة المكتب .

-إذن فذلك كان منذ ست سنوات نعم يا أخي، يا لها من أعمال .

كانت لم يعد الحال كما كان راحت تلك الشعلة .

ويستغرق لوبنيف وشاراميكين في التفكير ، وتتوهج الجمرة المحترقة للمرة الأخيرة ثم يكسوها الرماد .

زودها

وصل قياس الأراضي جليب جافريلوفتش سميرنوف إلى محطة جنيلوشكى وكان أمامه لكي يبلغ الضيعة التي استدعى إليها لوضع حدود المزارع حوالي ثلاثين أو أربعين فرسخاً فإذا لم يكن الحوذى ثملاً والحصان عجوزاً فلن تزيد المسافة عن ثلاثين فرسخاً، أما إذا كان الحوذى ثملاً والحصان منهكاً فستصل المسافة إلى خمسين.

اتجه القياس بالسؤال إلى شرطى المحطة : - قل لي من فضلك، أين أستطيع أن أجد هنا خيول بريد؟

-خيول ماذا؟ بريد؟ لن تجد هنا على مدى مائة فرسخ كلباً محترماًوليس خيول بريد.. إلى أين تريد أن تذهب؟ .

-إلى ديفكينو ، ضيعة الجنرال خوخوتوف فقال الشرطى متثائباً :

طيب اذهب خلف المحطة، فهناك يوجد أحيانا فلاحون يحملون الركاب .

تنهد القياس ومضى خلف المحطة. وهناك ، وبعد بحث طويل ومباحثات وتردد، وجد فلاحا ضخما، عابسا، مجدور الوجه، يرتدى قفطاناً خشناً ممزقاً وحذاء لابتي .

وامتعض القياس وهو يصعد إلى العربة وقال : - الشيطان يعلم أية عربة هذه لا تعرف أين مؤخرتها وأين مقدمتها .

-وهل هو صعب أن تعرف؟ المقدمة حيث ذيل الحصان، والمؤخرة حيث يجلس جنابكم .

كانت الفرس شابة ولكنها عجفاء، بقوائم نافرة وأذنين معضوضتين وعندما هم الحوذي وضربها بسوط من الحبال هزت رأسها فقط، وعندما سبها وضربها مرة أخرى صرت العربة وارتعشت كأنها محمومة وبعد الضربة الثالثة تمايلت العربة ، أما بعد الرابعة فقد تزحزحت من مكانها .

-وهل سنسير هكذا طوال الطريق؟- سأل القياس وهو يشعر بهز شديد ويدهش من قدرة الحوذية الروس على الجمع بين السير البطيء كسير السلاحف، وبين الهز الذي يكاد يطرد الروح من البدن .

فقال الحوذى مطمئنا :

-سنصل الفرس شابة، سريعة انتظر فقط حتى تنطلق، وبعد ذلك لن تستطيع إيقافها هيا، يا ملعونة .

عندما غادرت العربة المحطة كان المغيب قد حل وعلى يمين القياس امتد سهل مظلم متجمد لا نهاية له ولا حدود إذا سرت فيه فربما وصلت إلى العالم الآخر وعند الأفق.

حيث اختفى السهل متحد مع السماء تلاشت على مهل آخر أضواء الغسق الخريفي البارد وإلى يسار الطريق ارتفعت في الهواء المظلم أكوام لا يعرف ما إذا كانت أكوام دريس العام الماضي أم قرية ولم يستطع القياس أن يرى ما كان في الأمام، فقد سد مجال الرؤية كله من هذه الناحية ظهر الحوذي العريض الأخرق وكان الجو هادئا ولكنه بارد، قارس

.وفكر القياس وهو يحاول أن يغطى أذنيه بياقة المعطف: ياله من مكان .

قفر لا أثر لحي من يدرى ، فلو هجم عليك الأشقياء ونهبوك فلن يعرف أحد ولو أطلق المدافع نعم والحوذى أيضاً لا يوحي بالثقة انظر إلى ظهره المهول ابن الطبيعة هذا لو لمسك بإصبعه لأزهق روحك وسحنته أيضاً وحشية، مريبة .

وسأل القياس : ـ اسمع يا أخي، ما اسمك؟ ـ أنا كليم وكيف الحال عندكم هنا يا كليم؟ أليس خطراً؟ هل هناك من يتشاقى؟ ـلا، الحمد لله ومن هنا ليتشاقى؟

ـ حسن أنهم لا يتشاقون ولكني على كل حال أخذت معي ثلاث مسدسات، ـ قال القياس كاذباً ـ والمسدس كما تعلم شيء لا يحب المزاح أستطيع أن أقضي على عشرة أشقياء .

هبط الظلام وفجأة صرت العربة وأنت وارتعشت وانعطفت إلى اليسار ببطء كأنما عن غير رغبة

وقال القياس لنفسه: إلى أين يذهب بي؟ كان يسير طوال الوقت مباشرة وها هو ذا ينعطف إلى اليسار فجأة ماذا لو أن هذا الوغد أخذنى إلى دغل ما، ومثل هذه الحوادث تقع .

فقال مخاطبا الحوذى :

اسمع تقول إن الحال هنا ليس خطراً خسارة إنني أهوى منازلة الأشقياء إنني أبدو من منظرى نحيلاً، ضعيفاً، ولكن عندي قوة كقوة الثور في مرة هجم على ثلاثة أشقياء فماذا تظن؟ ضربت واحداً منهم حتى إنه حتى إنه ، أتعرف، طلعت روحه، أما الآخران فقد حكما بالأشغال الشاقة في سيبريا بسببى، من أين تأتيني هذه القوة، لا أعرف بيد واحدة أمسك بأي رجل ضخم، من أمثالك، وأقضى عليه .

ونظر كليم خلفه إلى القياس، وطرف بوجهه كله، وهوى بالسوط على الفرس .

واستطرد القياس :

-نعم يا أخي، كفى الله المرء شر الاشتباك معي فعلاوة على أن الشقى يبقى بلا قدمين أو ساقين فإنه يقدم إلى المحاكمة كل القضاة ومأمورى الشرطة معارفى إنني رجل موظف، مطلوب ها أنا ذا مسافر ولكن رؤسائى يعرفون أين أنا وأعينهم تراقب، حتى لا يلحق بي أي ضرر وعلى طول الطريق حشروا رجال الدرك والخفراء وراء الخمائل

وفجأة صرخ القياس : ـ قف إلى أين تذهب؟ إلى أين تأخذني؟ .

ألا ترى إلى أين؟ إلى الغابة

وقال القياس لنفسه :فعلا إنها غابة ، ولكن خفت لا ينبغي أن أكشف اضطرابى لقد لاحظ أنني خائف لماذا أصبح ينظر إلى كثيراً؟ لا بد أنه يدبر أمراً كان قبلا يسير بالعربة ببطء، قدما وراء قدم، أما الآن فانظر كيف يطير

-اسمع يا كليم، لماذا تحث الفرس؟ .

أنا لا أحثها هي التي أسرعت إذا انطلقت فلا وسيلة لإيقافها .

هي نفسها تشقيها هذه السيقان . كذاب يا أخي أرى أنك تكذب لكني أنصحك بعدم الإسراع .

اكبح الفرس أتسمع؟ اكبحها .

لماذا؟ لأنه لأنه من المفروض أن يلحق بي من المحطة رفاق أربعة ينبغي أن يلحقوا بنا لقد وعدوني أن يلحقو بي عند هذه الغابة ستكون الرحلة معهم أكثر مرحا فهم رجال أصحاء ، أشداء كل منهم يحمل مسدسا لماذ تتطلع إلى كثيرا وتتململ كأنك جالس على جمر؟ هه؟ أنا يا أخي يعني اسمع لا داعي للتطلع نحوى ليس في أي طرافة اللهم إلا المسدسات تفضل، إذا شئت استخرجتها وأريتك إياها تفضل .

وتظاهر القياس أنه يبحث في جيوبه، وفي تلك اللحظة حدث مالم يتوقع حدوثه رغم كل جبنه فقد ألقى كليم بنفسه من العربة وزحف على أربع نحو غيضة أشجار ثم صرخ : -النجدة النجدة خذ الفرس والعربة أيها الشقي، لكن لا تقتلني؟ النجدة

وتردد وقع خطوات سريعة مبتعدة، وطقطقة غصون جافة ، ثم ساد السكون وكان أول شيء فعله القياس، الذي لم يتوقع هذا التطور المفاجئ، أن أوقف الفرس، ثم اعتدل في جلسته متخذاً وضعاً أكثر راحة ، وأخذ يفكر.

هرب خاف الأحمق فما العمل الآن؟ لا يمكن أو أواصل السير بمفردى، فأنا لا أعرف الطريق، ثم قد يظن أحد أنني سرقت فرسهفما العمل؟ - يا كليم يا كليم. -كليم - ردد الصدى .

شعر القياس، كأنما مروا على ظهره ببرد بارد من فكرة أنه سيضطر إلى قضاء الليل كله في الغابة المظلمة، في البرد، فلا يسمع سوى عواء الذئاب والصدى، وشخير الفرس العجفاء .

فصاح :- كليموشكا يا عزيزى أين أنت يا كليموشكا .

وظل القياس يصيح حوالى ساعتين، وفقط بعد أن بح صوته واستسلم لفكرة المبيت في الغابة ، حملت إليه الريح أنيناً ضعيفاً

كليم، أهو أنت يا عزيزى؟ هيا بنا

-ستقتلني؟ .

-كنت أمزح يا عزيزى أي والله كنت أمزح أية مسدسات معى لقد كذبت عليك من خوفي أرجوك هيا بنا إنني بردان .

وإذ فطن كليم على ما يبدو إلى أن الموظف، لو كان شقيا حقيقيا لاختفى بالفرس والعربة منذ زمن بعيد، فقد خرج من الغابة، واقترب متردداً من الراكب .

-لماذا خفت أيها الأحمق؟ أنا أنا كنت أمزح وإذا بك تخاف اجلس فدمدم كليم وهو يصعد إلى العربة :

-ربنا يسامحك يا سيد لو كنت أدري ما أخذتك ولو مقابل مائة روبل كدت أموت من الخوف .

وضرب كليم الفرس بالسوط وارتعشت العربة وضرب كليم مرة أخرى فتمايلت وبعد السوط الرابع،عندما تزحزحت العربة من مكانها،غطي القياس أذنيه بالياقة واستغرق في التفكير ولم تعد الطريق أو كليم يبدوان له خطرين.

الدبلوماسي

لفظت زوجة المستشار الاسمى آنا لفوفنا كوفالدينا أنفاسها وأخذ الأقارب والمعارف يتشاورون :

- وما العمل الآن؟ ينبغي أن نخطر زوجها فرغم أنه فارقها إلا أنه كان يحب المرحومة بل لقد جاءها منذ فترة وركع أمامها على ركبتيه ضارعاً : متى تغفرين لى يا آنا هوى لحظة؟ وغير ذلك من هذا القبيل ينبغي أن نخطره .

وقالت عمتها الباكية مخاطبة العقيد بسكاريوف الذي كان يشترك في المشاورة العائلية :

يا أريستارخ إيفانيتش، أنت صديق ميخائيل بتروفيتش اصنع معروفاً واذهب إليه في الإدارة وأبلغه بهذه المصيبة لكن أرجوك يا عزيزى لا تصدمه دفعة واحدة ، وإلا فقد يحدث له شيء إنه رجل مريض مهد للخبر في البداية ، وبعد ذلك .

ارتدى العقيد بسكاريوف العمرة وتوجه إلى إدارة السكك الحديدية حيث يعمل الأرمل الحديث العهد ووجده يعد الميزانية .

-تحياتي لميخائيل بتروفتش، - قال وهو يجلس إلى طاولة كوفالدين ويمسح عرقه - مرحباً يا عزيزى يا للغبار في الشوارع، أعوذ بالله اكتب، اكتب لن أعطلك سأجلس قليلاً ثم انصرف كنت ماراً من هنا فقلت لنفسي: إن ميشا يعمل هنا فلأمر عليه وبالمناسبة أنا بحاجة إليك في مسألة.

اجلس هنا يا أريستارخ إيفانيتش انتظرني قليلاً سأفرغ بعد ربع ساعة، وعندئذ نتحدث.

اكتب، اكتب أنا جئت هكذا مروراً عابراً سأقول لك كلمتين ووداعاً .

وضع كوفالدين الريشة جانباً واستعد للإنصات وحك العقيد رقبته خلف الباقة واستطرد :

-الجو خانق لديكم هنا، أما في الشارع فجنة حقيقية الشمس، والنسيم اللطيف، أتدري والطيور إنه الربيع كنت سائراً إلى سبيلى في البوليفار أتدرى، وكان مزاجى رائعاً فأنا رجل حر، أرمل أينما أريد أذهب إذا أردت ذهبت إلى الحانة، وإذا أردت ركبت ترام الخيل جيئة وذهاباً ولا أحد يجرؤ على إيقافي، ولا أحد يعول ورائي في المنزل كلا يا أخي، ليس هناك أحسن من حياة العازب حرية انطلاق تتنفس وتشعر أنك تتنفس سأعود الآن إلى البيت فلا شيء لا أحد يجرؤ أن يسألني أين كنت أنا سيد نفسي الكثيرون يا أخي يمتدحون الحياة الزوجية.

ولكني أعتقد أنها أسوأ من الأشغال الشاقة هذه الأحاديث عن الموضة والكورسيهات والقيل والقال، والزعيق وبين لحظة وأخرى الضيوف والأولاد يقفزون خارجين إلى الدنيا الواحد تلو الآخر والنفقات إخص .

فدمدم كوفالدين وهو يتناول الريشة : - سأفرغ حالاً .

- اكتب، اكتب حسناً لو وفقت إلى زوجة ليست شيطاناً، ولكن ماذا لو أنها إبليس في تنورة؟ ماذا لو كانت من أولئك اللاتي لا يتوقفن عن الأزيز والطنين ليل نهار؟ إذن ستصرخ مستنجداً انظر، أنت على سبيل المثال عندما كنت عازباً كنت إنساناً مثل البشر، وما إن تزوجت من زوجتك حتى تدهورت، وأصبحت منطوياً لقد فضحتك في المدينة كلها وطردتك من البيت فأي خير في هذا؟ إن زوجة مثلها لا تستحق حتى الشفقة .

فقال كوفالدين متنهداً :كنت أنا المذنب في انفصالنا لا هي .

-دعك من ذلك أرجوك إني أعرفها جيداً امرأة شريرة، متغطرسة ، خبيثة كل كلمة سم زعاف، كل نظرة خنجر حاد أما اللؤم الذي كان في المرحومة فشيء لا يمكن وصفه .

فاتسعت عينا كوفالدين وهو يسأل:- ماذا تعني بالمرحومة؟ فاستدرك بسكاريوف محمراً.

- وهل قلت المرحومة؟ أبدا، أنا لم أقل ذلك .

ماذا دهاك يا أخي اتق الله مالك شحبت هئ، هي، اسمع بأذنك ولا تسمع بطنك .

-هل كنت عند أنيوتا اليوم؟ .

-نعم، زرتها في الصباح كانت راقدة تصرخ في الخدم تارة لم يقدموا لها هذا الشيء كما يجب، وتارة ذاك امرأة لا تطاق لا أفهم ما الذي جعلك تحبها لو أن الله يهديها فتطلق سراحك أيها المسكين .

إذن لعشت حراً وتمتعت ولتزوجت غيرها طيب، طيب ساسكت لا تعبس أنا لا أقصد مجرد كلام عواجيز أنت تعرف رأيي إذا شئت أحب، وإذا لم تشأ لا تحب أنا لا أرجو لك إلا الخير إنها لا تعيش معك، ولا تريد أن تعرفك أية زوجة هذه؟ قبيحة، هزيلة، سيئة الطباع لا تستحق الشفقة فليكن .

فقال كوفالدين متنهدا - : من السهل عليك أن تتحدث يا أريستارخ يفانيتش الحب ليس شعرة، لا يمكن انتزاعه ببساطة .

وهل فيها ما يحب إنك لم تر منها غير اللؤم لا تؤاخذ عجوزاً مثلى، فأنا لم أحبها لم أكن أطيق رؤيتها عندما أمر بجوار بيتها أغمض عيني حتى لا أراها نهايته رحمها الله وأسكنها فسيح جناته لم أكن أحبها فليغفر لى الله ذنبى .

فقال كوفالدين ممتقعاً :

-اسمع يا أريستارخ إيفانيتش هذه ثاني مرة يزل فيها لسانك قل لي هل ماتت؟ .

-كيف ماتت؟ لم يمت أحد كل ما في الأمر أنني لم أكن أحب المرحومة إخص أعني ليس المرحومة بل زوجتك ، آنا .

-ماذا حدث لها، هل ماتت؟ لا تعذبنى يا أريستارخ إيفانيتش إنك تبدو منفعلاً بصوره غريبة، تتخبط في الكلام وتمتدح حياة العزوبية هل ماتت؟ نعم؟ .

فتمتم بسكاريوف وهو يسعل - :هكذا، مرة واحدة ماتت يا لك من متسرع يا أخي ولنفرض أنها ماتت كلنا سنموت، وهي أيضا مصيرها إلى الموت وأنت ستموت، وأنا احمرت عينا كوفالدين وامتلأتا بالدموع، وسأل بصوت خافت - :في أية ساعة؟ .

-ليس في أية ساعة ما أسرع دموعك لم تمت من الذي قال لك إنها ماتت؟

-أريستارخ إيفانيتش أرجوك لا تشفق على .

-لا يا أخي، أنت لا يمكن الكلام معك، كأنك طفل هل قلت لك إنها ماتت؟ هل قلت لك؟ تسترسل في البكاء؟ اذهب وافرح بها سالمة غانمة عندما زرتها كانت تتشاجر مع عمتها كان الأب ماتفي يقيم قداس الجناز بينما صياحها يملأ البيت كله

-أي قداس؟ ولماذا يقام؟ .

-القداس؟ أبداً، هكذا يعني بدلاً من الصلاة أقصد لم يكن هناك أي قداس، بل شيء ما هكذا .

لم يكن هناك شيء ارتبك أريستارخ إيفانيتش، فنهض، واستدار إلى النافذة وراح يسعل عندى سعال يا أخي لا أدري أين أصبت بالبرد ونهض كوفالدين أيضاً وأخذ يذهب ويجيء بعصبية بجوار الطاولة وقال وهو يعبث بلحيته بيدين مرتعشتين :

-إنك تلف وتدور الآن فهمت فهمت كل شيء ولا أدري لم كل هذه الدبلوماسية لماذا لا تقول مباشرة؟ ماتت، أليس كذلك؟ فهز بسكاريوف كتفيه :

هم كيف أقول لك؟ ليس تماماً ماتت وإنما هكذا أوه، ها أنت ذا تبكي ألسنا كلنا سنموت ليس الموت مكتوباً عليها وحدها، كلنا سنرحل إلى الدار الآخرة وبدلاً من البكاء أمام الناس هلا ذكرت روحها بالرحمة هلا رسمت الصليب.

ظل كوفالدين يحدق في بسكاريوف ببلاهة حوالي نصف دقيقة، ثم امتقع بشدة ، وسقط في مقعده وانفجر في بكاء هستيري وقفز زملاؤه الموظفون من خلف مكاتبهم وأسرعوا لنجدته وحك بسكاريوف قفاه وعبس ودمدم مادا يديه - :التعامل مع هؤلاء السادة مصيبة أي والله يعول فلماذا يعول؟ ميشا، ماذا دهاك؟ ميشا ؟.

- وأخذ يهز كوفالدين إنها لم تمت بعد من قال لك إنها ماتت؟ بالعكس، يقول الأطباء إنه مازال هناك أمل ميشا يا ميشا أقول لك إنها لم تمت أتريد أن نذهب إليها سوياً؟ هيا وعندئذ ستلحق قداس الجنازة ماذا أقول؟ لا أقصد القداس بل الغداء ميشا، أؤكد لك أنها مازالت حية فليعاقبني الله إن كنت كاذبا فليحرمنى نعمة البصر ألا تصدقني؟ إذن فهيا نذهب إليها وعندئذ اعتبرني ما شئت إذا لم من أين جاء بهذا، لا أفهم أنا اليوم كنت بنفسي عند المرحومة، أقصد ليس المرحومة إنما إخص .

وأشاح العقيد بيده وبصق وخرج من الإدارة وعندما وصل إلى شقة المرحومة تهالك على الكنبة وشد شعره .

وصاح في أسي - :اذهبوا إليه أنتم مهدوا أنتم للنبأ واعفونى من ذلك أنا لا أريد لم أقل له سوى كلمتين مجرد تلميح فانظروا ماذا جرى له إنه يموت فقد وعيه لن أقبل أبداً في المرة القادمة اذهبوا أنتم .

الخطيب

ذات صباح رائع جرى دفن المساعد الاعتبارى كيريل إيفانوفتش فافيلونوف، الذي توفي من جراء مرضين جد منتشرين في بلادنا : الزوجة الشريرة، وإدمان الخمر وعندما تحرك موكب الجنازة من الكنيسة إلى المقابر، استقل أحد زملاء المتوفي، المدعو بو بلافسكى، عربة وانطلق إلى صديقه جريجورى بتروفتش زابويكين، وهو رجل شاب ولكنه مشهور إلى حد كبير ، وزابوكين، كما يعرف كثير من القراء، رجل ذو موهبة نادرة في ارتجال خطب الزفاف والمناسبات اليوبيلية والتأبين وبوسعه أن يخطب في أي وقت :إثر الاستيقاظ مباشرة، وعلى الريق، وفي حالة السكر الفظيع،وأثناء الحمى وينساب كلامه ناعماً، سلساً كما يسيل الماء من ميزاب وغزيراً وفي قاموسه الخطابي من كلمات الرثاء أكثر مما في أية حانة من صراصير وخطبه دائماً فصيحة، طويلة حتى إنهم أحياناً، وخاصة في أعراس التجار، يضطرون للجوء إلى الشرطة لإيقافه عن الكلام .

وقال بوبلا فسكى عندما وجده في البيت : إنني أقصدك يا أخي البس بسرعة وهيا بنا لقد توفي أحد زملائنا، والآن نشيعه إلى العالم الآخر، ومطلوب يا أخي أن تقول في وداعه بعض الهراء الأمل كله فيك لو كان المتوفي من صغار الموظفين لما أزعجناك، ولكنه سكرتير يعني من أعمدة الإدارة ومن غير اللائق أن ندفن هذا الرأس الكبير بدون خطبة.

فقال زابويكين متثائباً - : آه، السكرتير أهو ذلك السكير؟ .

-نعم، السكير ستكون هناك شطائر ومزات وستمنح أجرة العربة هيا يا عزيزى فلتلق على قبره خطبة عصماء أفصح من خطب شيشرون، وستلقى كل الشكر؟ .

وافق زابويكين عن طيب خاطر نكش شعره، وأضفى على وجهه سيماء الكآبة وخرج مع بولانسكى وقال وهما يجلسان في العربة :

-أعرف سكرتيركم هذا قل أن تجد أفاقاً وشيطاناً مثله ،عليه الرحمة .

- لا يصح يا جريشا أن تشتم الموتى .

-أنت محق، طبعاً ولكنه مع ذلك محتال .

لحق الصديقان بركب الجنازة وانضما إليه وكانوا يحملون المتوفي ويسيرون به ببطء فتمكن الصديقان قبل بلوغ المقابر من أن يعرجا ثلاث مرات على الحانات ويشربا في ذكرى المرحوم وأقيمت صلاة الميت في المقابر وجريا على العادة بكت زوجته وأختها .

وحماته كثيراً وعندما أنزل التابوت إلى القبر صاحت زوجته ادفنونى معه لكنها لم تنزل إلى القبر وراء زوجها ربما لأنها تذكرت المعاش وانتظر زابويكين حتى عم الهدوء، ثم تقدم إلى الأمام، وطاف على الحاضرين بنظراته ، وقال : فيه لا يذكر الموتى بسوء .

-هل نصدق سمعنا وأبصارنا؟ أليس حلماً رهيباً هذا التابوت وهذه الأوجه الباكية، وهذا الأنين والنحيب؟ يا للحسرة، هذا ليس حلماً، وأبصارنا لا تخدعنا إن ذلك الذي رأيناه منذ وقت قريب مكتمل الصحة ، في أوج شبابه وبهائه ونضارته، ذلك الذي رأيناه منذ وقت قريب يضع، كالنحلة، عسله في الخلية العامة لبناء الدولة، ذلك الذي هو بعينه أصبح الآن تراباً، أصبح سراباً مادياً لقد أطبقت عليه قبضة الموت الذي لا يرحم عندما كان، رغم عمره المتأخر، مفعماً بالقوة المتأججة والأحلام المشرقة فيالها من خسارة لا تعوض من ذا الذي يعوضنا عنه؟ لدينا الكثير من الموظفين الممتازين، ولكن بروكوفى أوسيبوفتش كان الوحيد بينهم لقد كان مخلصاً من صميم قلبه لواجبه الشريف، ولم يرحم نفسه، لم ينم الليل، وكان مثلاً للتفاني والنزاهة كم كان يحتقر أولئك الذين يحاولون رشوته على حساب المصلحة العامة، أولئك الذين حاولوا بخيرات الحياة المغرية دفعه إلى خيانة واجبه نعم، لقد رأينا بأعيننا كيف كان بروكوفى أوسيبوفتش يوزع راتبه الصغير على رفاقه المعوزين، وها قد سمعتم الآن عويل الأرامل واليتامى الذين كانوا يعيشون على حسناته لقد كان مخلصاً لواجبه الوظيفي ولأعمال الخير فلم يذق ملذات الدنيا، بل حرم نفسه حتى من سعادة الحياة العائلية فأنتم تعرفون أنه ظل عازبا حتى آخر أيام عمره ومن ذا الذي يعوضنا عنه رفيقا؟ كأني أرى الآن وجهه الحليق البشوش الذي يهل علينا بابتسامة طيبة، وكأني أسمع الآن صوته الناعم الودود الرقيق طيب الله ثراك يا بروكوفي أوسيبوفتش فلتنعم بالسكينة أيها الكادح الشريف النبيل.

ومضى زابويكين يخطب بينما أخذ المستمعون يتوشوشون أعجب الجميع بالخطبة، التي استدرت بعض الدموع، ولكن الكثير فيها بدا لهم غريبا فأولا: لم يكن مفهوما لماذا دعا الخطيب المرحوم باسم بروكوفى أوسيبوفتش بينما كان اسمه كيريل إيفانوفتش وثانيا : كان الجميع يعرفون أن المرحوم ظل طوال حياته يصارع زوجته الشرعية، وبالتالي فلا يمكن أن يكون عازباً وثالثا :فقد كانت لديه لحية غزيرة حمراء، ولم يحلق ذقنه قط، لذا فلم يكن مفهوما لماذا وصف الخطيب وجهه بالحليق أبدى السامعون استغرابهم وتبادلوا النظرات، وهزوا أكتافهم ومضى الخطيب يقول بحماس وهو ينظر في القبر :

-يا بروكوفي أوسيبوفتش لم يكن وجهك جميلاً، بل حتى كان قبيحاً، متجهماً صارماً، ولكننا كنا نعرف جميعاً أن هناك ، تحت هذه القشرة الظاهرة، ينبض قلب شريف ودود .

وسرعان ما بدأ السامعون يلاحظون شيئا غريبا على الخطيب نفسه فقد ثبت بصره على نقطة واحدة ، ثم أخذ يتململ بقلق، وراح يهز كتفيه وفجأة صمت، وفغر فاه بدهشة، والتفت إلى بوبلا فسكى .

وقال وهو ينظر برعب:اسمع، إنه حي؟ .

من الحي؟ .

بروكوفي أوسيبوفتش ها هو يقف هناك بجوار التمثال - إنه لم يمت أصلاً كيريل يافانيتش هو الذي مات ألم تقل لي إن سكرتيركم مات؟ .

-كيريل إيفانيتش كان سكرتيراً يالك من مضحك، لقد خلطت الأمور صحيح أن بروكوفى أوسيبوفتش كان سكرتيراً لكنه نقل منذ عامين إلى القسم الثاني رئيس قلم .

-آه ، الشيطان وحده يفهمكم وما لك توقفت، أكمل، لا تحرجنا .

والتفت زابويكين نحو القبر وواصل حديثه المنقطع بنفس البلاغة السابقة وبالفعل كان بروكوفي أوسيبوفتش، وهو موظف عجوز، بوجه حليق، يقف بجوار التمثال وكان يتطلع إلى الخطيب وقد قطب حاجبيه بغضب وضحك الموظفون أثناء عودتهم من المقابر مع زابويكين:

-ما الذي دهاك؟ تدفن شخصاً حياً فدمدم بروكوفى أو سيبوفتش :

-عيب عليك أيها الشاب ربما كانت خطبتك مناسبة للمرحوم، ولكنها محض سخرية بالنسبة لشخص حى ما هذا الذي قلته؟ متفان، نزيه، لا يقبض رشاوى هذا الكلام عن شخص حي ليس إلا سخرية كما أن أحداً لم يطلب منك يا سيدي أن تفيض في وصف وجهى غير جميل، قبيح، فليكن، ولكن ما الداعي لعرض وجهى فرجة أمام الجميع؟ هذا مهين .

تحفة فنية

تصنع ساشا سميرنوف، وحيد أمه، الحزن وهو يدلف إلى عيادة الدكتور كوشيلكوف وقد وضع تحت إبطه شيئاً ملفوفاً في العدد ٢٢٣ من جريدة أخبار البورصة واستقبله الدكتور قائلا - :أهلاً بالفتي العزيز حسناً، كيف صحتنا؟ ماذا لديك من أخبار طيبة؟ طرف ساشا بعينيه، ووضع يده على قلبه وقال بصوت منفعل :

- ماما تبلغكم تحياتها يا إيفان نيقولايفتش، وطلبت مني أن أشكركم أنا وحيد أمي، وأنتم أنقذتم حياتى شفيتموني من مرض خطير و ولا نعرف كيف نشكركم .

فقاطعه الدكتور وهو يسترخي من السرور: - كفى يا فتى أنا لم أفعل إلا ما كان يجب أن يفعله أى شخص آخر لو كان مكانى .

-أنا وحيد أمي ونحن فقراء، ولا نستطيع بالطبع أن نكافئكم على تعبكم ونحن في غاية الخجل يا دكتور، وإن كنا، ماما وأنا وحيد أمى، نرجوكم رجاء حاراً أن تقبلوا منا، رمزاً لامتناننا هذه الهدية التي إنها تحفة ثمينة ، من البرونز القديم تحفة فنية نادرة .

فامتعض الدكتور - : لا لزوم لذلك ما الداعي؟ فمضى ساشا يدمدم وهو يفك اللفة :

-لا، أرجوكم، لا ترفضوها إن رفضكم سيكون إهانة لى ولماما أنها قطعة ممتازة من البرونز القديم تركها لنا المرحوم بابا فاحتفظنا بها كذكرى غالية كان بابا يشترى التحف البرونزية القديمة ويبيعها للهواة والآن تزاول ماما وأنا نفس الشيء .

فك ساشا اللفة ووضع التحفة على الطاولة بحفاوة كانت شمعدانا متوسط الارتفاع، من البرونز القديم، مصاغاً بصورة فنية وكان يصور مجموعة : فعلى القاعدة وقف جسدان نسائيان في لباس حواء وفي وضع لا تكفيني لوصفه لا الشجاعة ولا الحمية الكافية كان الجسدان يبتسمان بدلال، وكان يلوح من منظرهما، إنه لولا ما ألقى عليهما من مسئولية رفع الشمعدان لقفزا من القاعدة وعربدا في الغرفة بصورة لا يليق حتى التفكير فيها .

وبعد أن تأمل الدكتور الهدية، حك خلف أذنه ببطء، وتنحنح، ثمتمخط بتردد ودمدم :

-نعم، تحفة رائعة فعلاً، ولكنها كيف أقول ليست يعنى غير أدبية أبداً ليس هذا حتى ديكولتيه ، بل الشيطان يعلم ما هذا .

-ماذا تقصد، لماذا؟ .

ـ شيطان الغواية نفسه لا يستطيع أن يبتكر شيئاً أفظع من هذا إن وضع .

هذا الهراء على الطاولة معناه تدنيس الشقة كلها .

فقال ساشا غاضباً :

ـما أغرب نظرتك إلى الفن يا دكتور إنها تحفة فنية ، انظر جيداً فيها من الجمال والرشاقة ما يملا النفس بمشاعر الرهبة، ويدفع إلى الحلق بغصة البكاء وعندما ترى هذا الجمال تنسى كل ما هو دنيوى انظر أية حركات، وأية شفافية وأية قوة تعبيرية .

فقاطعه الدكتور قائلاً :

ـأعرف كل ذلك جيداً يا عزيزى، ولكني رجل متزوج، وأولادي يلعبون هنا، وتزورنا سيدات محترمات .

فقال ساشا :

ـطبعا إذا نظرنا من وجهة نظر الغوغاء، فإن هذه التحفة الفنية السامية ستبدو لنا بالطبع بصورة مختلفة ولكن يا دكتور، فلنعل فوق مستوى الغوغاء، خاصة وأن رفضك للهدية سيحزنني وماما كثيراً أنا وحيد أمي وقد أنقذت حياتي إننا نهديك أعز شيء علينا ويؤسفني إلا أنه لا يوجد لديك شمعدان مماثل ليناسب هذا الشمعدان .

ـ شكراً ياعزيزى، أنا ممتن جداً بلغ تحياتي لماما، ولكن في الحقيقة انظر بنفسك الأولاد يلعبون هنا، وتزورنا سيدات محترمات على العموم دعها، فلتبق فلن تفهم مهما شرحت لك .

فقال ساشا مسروراً :

لا داعي لأي شرح ضع الشمعدان هنا، بجوار المزهرية من المؤسف أنه لا يوجد شمعدان مماثل مؤسف جداً حسناً، وداعاً يا دكتور .

وبعد انصراف ساشا ظل الدكتور يحدق طويلاً في الشمعدان، ثم حك خلف أذنه ومضى يفكر وقال لنفسه: تحفة رائعة، لا شك في هذا، يعز على أن أرميها كما أن الاحتفاظ بها مستحيل هم يا لها من مسألة محيرة ترى لمن يمكن إهداؤها أو التبرع بها؟ .

وبعد تفكير طويل تذكر صديقه الطيب، المحامي أو خوف، الذي كان مديناً له بأتعاب قضية فقرر الدكتور :

-ممتاز إنه محرج كصديق من أن يتقاضى مني أجراً، وسيكون من اللائق تماماً لو أهديته هذه التحفة فلأحمل إليه هذه المصيبة وبالمناسبة فهو أعزب وأرعن ومضى الدكتور بلا تسويف فارتدي ملابسه، وأخذ الشمعدان ورحل إلى أو خوف وجد المحامي في البيت فحياه :

-مرحباً يا صديقى ها قد جئتك لكي أشكرك يا أخي على مجهوداتك إذا لم تكن تريد أن تأخذ مني نقودا ، فلتأخذ على الأقل هذه التحفة إنها يا أخي تحفة فخمة .

وحينما رأى المحامي التحفة تملكه إعجاب لا يوصف وقال وهو يقهقه :

-يا لها من تحفة يا للملاعين، انظر كيف يبتكر هؤلاء الشياطين أشياء كهذه رائعة خلابة من أين حصلت على هذه الفتنة؟ .

وبعد أن سكب المحامي إعجابه نظر إلى الباب بخوف وقال - : ولكن احمل يا أخي هديتك من هنا لن آخذها .

فسأل الدكتور بذعر : ولماذا؟ .

-هكذا والدتي تأتي إلى هنا، والزبائن بل حتى الخدم سأشعر بالحرج أمامهم فأشاح الدكتور بيديه :

-لا يمكن، أبدا إياك أن تجرؤ على رفضها سيكون ذلك خسة من جانبك هذه تحفة فنية انظر أية حركات أية قوة تعبيرية أنا لا أقبل أي نقاش سأغضب منك.

-لو أنها كانت مدهونة ، أو مستورة بأوراق التوت ولكن الدكتور أشاح بيديه أكثر، وانطلق راكضاً من شقة أوخوف، ومضى إلى البيت سعيداً بأنه أفلح في التخلص من الهدية

وبعد خروجه تفحص المحامي الشمعدان وتحسسه بأصابعه من جميع الجوانب ، أخذ مثل الدكتور يفكر طويلاً فيما يفعله بهذه الهدية وقال لنفسه: إنها تحفة رائعة ، يعز على أن أرميها، كما أن الاحتفاظ بها لا يليق أحسن شيء أن أهديها لأحد ما نعم، فلأحمل هذا الشمعدان مساء اليوم إلى الممثل الكوميدي شاشكين هذا اللئيم يحب أمثال هذه الأشياء، وبالمناسبة، فاليوم حفلته البنيفيس.

وهذا ما كان ففي المساء قدم الشمعدان الملفوف بعناية إلى الممثل شاشكين وتعرضت غرفة الملابس الخاصة بالممثل طوال المساء لهجوم الرجال الذين جاءوا للتفرج على الهدية وتردد في الغرفة طوال الوقت هدير الإعجاب والضحكات الشبيهة بصهيل الخيل وعندما كانت إحدى الممثلات تقترب من باب الغرفة وتسأل : هل أستطيع أن أدخل، تسمع على الفور صوت الممثل الأبح - :كلا، كلا يا عزيزتي لم ألبس بعد وبعد الحفل هز الممثل كتفيه وأشاح بيديه وقال :

حسناً، وماذا أفعل بهذه النجاسة؟ إني أسكن شقة مؤجرة والممثلات يزرننى وليست هذه صورة بحيث يمكن إخفاؤها في درج المكتب .

وقال له الحلاق وهو يزيل عنه المكياج :

-بعها يا سيدى توجد هنا في الضاحية سيدة عجوز تشترى البرونز القديم اذهب إلى هناك واسأل عن سميرنوفا الجميع يعرفونها واتبع الممثل النصيحة وبعد يومين كان الدكتور كوشيلكوف جالساً .

في عيادته وقد وضع إصبعه على جبينه وهو يفكر في الأحماض الصفراوية وفجأة فتح باب الغرفة واندفع ساشا سميرنوف داخلاً كان يبتسم متهللاً، وقد طفحت هيئنه كلها بالسعادة وكان في يده شيء ملفوف وقال وهو يكاد يختنق:

-يا دكتور تصور مدي فرحتي لحسن حظك استطعنا أن نحصل على شمعدان مماثل لشمعدانكم ماما في غاية السعادة أنا وحيد ماما لقد أنقذت حياتي .

ووضع ساشا الشمعدان أمام الدكتور وهو يرتجف من الفرحة وفغر الدكتور فمه، وأراد أن يقول شيئاً ما ولكنه لم ينبس بشيء إذ فقد النطق .

أجافيا

عندما كنت أعيش في ناحية س، كثيراً ما كنت أتردد على مزارع الخضروات في دوبوفو، التي يحرسها سافا ستوكاتش، أو كما كان يدعى ببساطة : سافكا كانت هذه المزارع أحب مكان إلى للقيام بما يسمى صيد السمك العمومي، عندما لا تعرف، بعد أن تغادر البيت، اليوم أو الساعة التي سترجع فيها، وتأخذ معك كل معدات الصيد عن آخرها وتتزود بالمؤونة وفي الواقع لم يكن صيد السمك هو الذي يهمنى، بقدر ما هو التسكع بلا هموم، والأكل في غير وقته، والحديث مع سافكا، والمواجهات الطويلة مع ليالي الصيف الهادئة كان سافكا فتى في حوالي الخامسة والعشرين، فارع القامة، جميلاً، قوياً كالحجر الصوان واشتهر كشخص عاقل فهيم، وكان متعلماً، لا يشرب الفودكا إلا نادراً، ولكن هذا الفتى الشاب القوى كان لا يساوى، كعامل، قرشاً خردة فإلى جانب القوة، تمدد في عضلاته المفتولة كالحبال كسل ثقيل لا يقهر وكان يعيش مثله مثل الآخرين في القرية، في بينه الخاص، ويملك قطعة أرض، لكنه لم يكن يحرث أو يبذر ولم يشتغل بأية حرفة وكانت أمه العجوز تتسول، وهو ذاته كان يحيا كطيور السماء : لا يعرف صباحاً ماذا سيأكل ظهراً ولم تكن المسأله ترجع إلى ضعف إرادته وطاقته، أو عدم إشفاقه على أمه، وإنما ببساطة كان لا يحس بالرغبة في العمل ولا يدرك فائدته كانت هيأته كلها تنضح بخلو البال، وبرغبة موروثة، كرغبات الفنانين، في العيش دون عناء، وبإهمال

وعندما كان جسد سافكا الفتى القوى يحن فسيولوجيا إلى العمل العضلي كان الشاب ينهمك كلية في عمل حر ولكنه تافه، مثل سن أوتاد لا حاجة إليها البتة، أو التسابق في الجري مع نساء القرية أما أحب وضع إليه فكان الوقوف بلا حراك مستغرقاً في التفكير وكان بوسعه أن يقف ساعات طويلة في مكانه دون حركة محدقاً في نقطة واحدة كان لا يتحرك إلا بدافع الإلهام، وفقط عندما تتاح له فرصة الإتيان بحركة سريعة قصيرة : كأن يقبض على ذيل كلب راكض، أو ينتزع منديلاً من على رأس فلاحة، أو يقفز فوق حفرة واسعة ومن الطبيعي، مع هذا البخل في الحركة، أن يكون سافكا عاريا كوليد، وأن يحيا أسوأ من أي عازب عجوز وبمرور الوقت كان لا بد أن تتراكم عليه الديون، فأرسله مجمع القرية، وهو الشاب القوى، إلى وظيفة يقوم بها الشيوخ، ليعمل حارساً وفزاعة طيور في مزارع الخضراوات العامة ورغم كل السخريات التي تعرض لها بشأن شيخوخته المبكرة، لم يعر الأمر أدنى اهتمام فهذه الوظيفة الهادئة المناسبة للتأمل الجامد كانت جد ملائمة لطبعه.

وقد تصادف أن ذهبت إلى سافكا هذا في إحدى أمسيات شهر مايو الجميلة وأذكر أني تمددت على دثار ممزق مهترئ مباشرة بجوار الخص، الذي كانت تتصاعد منه رائحة أعشاب جافة قوية خانقة توسدت ذراعي ورحت أنظر أمامي كانت هناك مذراة خشبية ملقاة عند قدمي ومن خلفها كانت تخز العين بقعة سوداء هي كوتكا كلب سافكا الصغير وعلى بعد ذراعين لا أكثر من كوتكا انشقت الأرض عن شاطئ شديد الانحدار لنهر صغير

لم أكن أستطيع أن أرى النهر من مرقدي لم أر غير قمم صفصافات كثيفة على هذا الشاطئ، وحافة الشاطئ الآخر المتعرجة وكأنها مقضومة وبعيداً وراء الشاطئ، وعلى رابية معتمة تلاصقت كحجلات مذعورة بيوت القرية التي كان يعيش فيها صاحبي سافكا ومن خلف الرابية كانت أضواء المغيب تتلاشى ولم يبق إلا شريط أحمر شاحب، وحتى هذا أخذت تغلفه سحب صغيرة، كما يغلف الرماد الجمرات وعلى يمين المزارع لاح حرش أشجار حور رومى معتمة وهي تهمس بحفيف خافت وتنتفض من هبات الريح العابرة، وعلى اليسار امتد حقل لا يحده البصر وهناك، حيث لم يكن بوسع العين أن تميز في الظلام الحقل عن السماء، تراقص ضوء ساطع وغير بعيد عني جلس سافكا كان يجلس القرفصاء وقد دلى رأسه، وهو ينظر إلى كوتكا مستغرقاً كنا قد وضعنا سنانيرنا في النهر منذ وقت بعيد، ولم يعد لدينا ما نفعله سوى الاستسلام للراحة التي كان يحبها سافكا المستريح دوماً، الذي لم يجهد نفسه أبداً ولم يكن شفق المغيب قد تلاشى تماماً، بينما نشر ليل الصيف على الطبيعة رقته الناعمة المخدرة .

سكن كل شيء في بداية نوم عميق، اللهم إلا طائر ليلى غير معروف لي أخذ يطلق في الحرش بكسل صوتاً طويلاً مؤلفاً من مقاطع يشبه عبارة هل رأيت نيكيتا؟ وعلى الفور يرد على نفسه رأيت رأيت رأيت .

وسألت سافكا ـ :لماذا لا تصدح البلابل الليلة؟ .

فاستدار نحوى ببطء وكانت تقاطيع وجهه كبيرة، ولكنها صافية ، معبرة وناعمة كتقاطيع وجه المرأة ثم تطلع بعينيه المستكينتين المستغرقتين إلى الحرش، ثم إلى الصفصافات، وأخرج من جيبه ببطء زمارة، ودسها في فمه، وصفر كالبلبل وعلى الفور، وكأنما رداً على صفيره، نقر طائر التفلق البرى على الشاطئ الآخر وضحك سافكا ضحكة قصيرة :

- إليك بلبلاً انظر كيف ينقر : قر قر، قر قر كأنه يشد ترباساً وتراه يظن أنه يغني فقلت له :

-يعجبني هذا الطائر أتدرى؟ التفلق أثناء الهجرة لا يطير، بل يجرى على الأرض لا يطير إلا فوق الأنهار والبحار، وفيما عدا ذلك يسير فتمتم سافكا وهو ينظر باحترام ناحية التفلق الصارخ:

- يا سلام يا ملعون .

ولما كنت أعرف شغف سافكا بسماع الأحاديث فقد رويت له كل ما أعرفه من كتب الصيد عن التفلق البري .

وانتقلت من التفلق إلى هجرة الطيور وكان سافكا يصغي إلى بانتباه دون أن تطرف عيناه، وهو يبتسم طول الوقت من المتعة وسألني: - أية ناحية أعز على الطيور؟ ناحيتنا أم الأخرى؟ .

- ناحيتنا طبعاً فالطائر يولد هنا، وهنا يربي أولاده هنا موطنه، وهو يطير إلى هناك فقط حتى لا يتجمد من البرد فقال سافكا وهو يتمطى :

-عجيبة كل ما حولنا عجيب فسواء طائر ، أم إنسان أو خذ مثلاً هذا الحجر في كل شيء حكمة آه لو كنت أدرى أنك ستأتى يا سيدى لما سمحت للمرأة أن تحضر إلى الليلة فقد طلبت واحدة أن تأتي الليلة .

فقلت له - :خذ راحتك، لن أزعجك أستطيع أن أنام في الحرش - وهل هذا كلام ما كانت لتموت لو جاءت غدا لا بأس لو أنها جلست تستمع إلى الأحاديث، ولكنها فقط تجلس ولعابها يسيل لا يمكن أن تتحدث في حضورهما كما ينبغى .

وصمت قليلاً ثم سألته - :هل تنتظر داريا؟ لا هذه المرة واحدة أخرى طلبت أن تأتي أجافيا ستريلتشيخا .

قال سافكا ذلك بصوته العادي، الخالي من العاطفة، الخافت قليلاً، وكأنما كان يتحدث عن التبغ أو العصيدة، أما أنا فقد انتفضت من الدهشة كنت أعرف أجافيا ستريلتشيخا لقد كانت امرأة شابة تماماً، في حوالي التاسعة عشرة أو العشرين، وقد تزوجت منذ ما لا يزيد عن عام من عامل تحويلة بالسكك الحديدية، وهو فتى شاب، مهيب الطلعة وكانت تعيش في القرية، أما زوجها فكان يأتي من عمله كل ليلة ليبيت عندها .

وقلت متنهداً - :حكايتك هذه مع النساء ستنتهي نهاية سيئة يا أخي - فليكن وفكر سافكا قليلاً ثم أضاف - :أنا قلت لهن، ولكنهن لا يسمعن الكلام هؤلاء الحمقاوات لا يكفيهن ما هن فيه من مصائب .

وحلت فترة صمت وفي تلك الأثناء كان الظلام قد ازداد حلكة، وفقدت الأشياء ملامحها المميزة وانطفأ الشريط وراء الرابية، بينما ازدادت النجوم سطوعاً وإشعاعاً ولم يعكر من صفو السكون الليلى صرير الجنادب الرتيب اللامبالي أو نقر التفلق أو صياح السمان، بل على العكس، أضفى عليه مزيداً من الرتابة وبدا أن ما يردد هذه الأصوات الخافتة ويسحر السماع ليست هي الطيور أو الحشرات، بل النجوم التي كانت تتطلع إلينا من السماء .

وكان سافكا أول من قطع حبل الصمت حول نظره ببطء من كوتكا إلى ثم قال - : أرى يا سيدى أنك تضجر هيا نتعشى

ودون أن ينتظر موافقتي زحف على بطنه داخل الخص، وبحث هناك فانتفض الخص كله كورقة شجرة، ثم عاد زحفاً ووضع أمامي الفودكا التي أحضرتها أنا وصحفة من الفخار كان في الصحفة بيض مشوي وشطائر من الجودار بدهن الخنزير ، وكسر خبز أسود وأشياء أخرى وشربنا من كوب معوج لا يستقيم في وقفته، وشرعنا نأكل ملح رمادى خشن، وشطائر قذرة مدهنة، وبيض مرن كالمطاط، ومع ذلك فما أشهى ذلك كله .

وقلت لسافكا مشيراً إلى الصحفة :

تعيش أعزب ومع ذلك ما أكثر الخيرات لديك من أين تحصل عليها؟ .

فدمدم سافكا بصوت كالخوار - :النساء يحضرنها - ولماذا يحضرنها لك؟
-هكذا من باب الشفقة لم يكن الطعام وحده، بل وملبس سافكا أيضاً، يحمل بصمات هذه الشفقة النسائية ففي هذا المساء مثلاً لاحظت عليه حزاماً جديداً من التيل وشريطاً أحمر فاقعاً تدلى منه صليب نحاس على رقبته القذرة كنت أعرف ميل الجنس اللطيف إلى سافكا، وكنت أعرف أنه لا يرغب في الصحفة :

الحديث عن ذلك فلم أواصل التحقيق فضلاً عن أن الوقت لم يكن مناسباً للحديث إذ إن كوتكا، الذي كان يدور حولنا ينتظر في صبر صدقاتنا أرهف أذنيه فجأة وأخذ يزمجر وتناهى من بعيد صوت طرطشة ماء متقطعة .

وقال سافكا :هناك شخص يعبر النهر .

وبعد حوالي ثلاث دقائق زمجر كوتكا ثانية، وصدر عنه صوت يشبه السعال.

فصاح به صاحبه :هس؟ .

وتردد في الظلام وقع خطوات وجلة، وظهر من الحرش شبح امرأة وعرفتها رغم الظلام كانت هي أجافيا ستريلتشيخا اقتربت منا متهيبة

وتوقفت وهي تلتقط أنفاسها المبهورة لم تكن تلهث بسبب المشي، بقدر ما هو، على الأرجح، بسبب الخوف والإحساس الكريه الذي يراود كل من يخوض ليلاً في الماء وعندما رأت بجوار الخص شخصين بدلاً من شخص واحد، ندت عنها صرخة ضعيفة، وتراجعت خطوة إلى الوراء وقال سافكا وهو يدس في فمه شطيرة :آه أهي أنت .

أنا نعم أنا ـ دمدمت وهي تنظر إلى شزرا بينما سقطت من يدها لفة بها أشياء ما ـ ياكوف يبلغك تحياته وأمرني أن أحمل إليك هذه هنا بعض الأشياء فضحك سافكا ساخراً :

-كفي كذباً أي ياكوف لا داعي للكذب، فالسيد يعرف لماذا جئت .

اجلسى، ستكونين ضيفتنا .

نظرت أجافيا نحوى شزرا وجلست بتردد وقال سافكا بعد صمت طويل :

ظننت أنك لن تأتي الليلة مالك جالسة؟ كلى أم تريدين أن تشربى فودكا؟ .

فدمدمت أجافيا : ـ ما هذا الكلام وهل أنا سكيرة.

اشربى، اشربي سيزداد قلبك حرارة هيا .

ومد سافكا إلى أجافيا الكوب الأعوج فشربت الفودكا ببطء، ولم تمز، بل زفرت بصوت عال .

أحضرت شيئاً ما قال سافكا وهو يفك الصرة ويضفي على صوته نبرة مازحة متسامحة المرأة لا تستطيع أن تأتي دون أن تحضر شيئاً ما آه ، هذه كعكة، وبطاطس يعيشون في رغد - زفر سافكا وهو يستدير نحوى بوجهه لم يبق في القرية كلها بطاطس من الشتاء الماضي إلا عندهم .

لم أر في الظلام وجه أجافيا، ولكن خيل إلى من حركة كتفييها ورأسها أنها لا تحول عينيها عن وجه سافكا وحتى لا أكون ثالث اثنين في موعد غرام فقد قررت أن أمضى لأتنزه، ونهضت بيد أنه في تلك اللحظة صدح بلبل في الحرش فجأة بصوت رنان وبعد نصف دقيقة أطلق نقراً خفيفاً كقرع الطبول، وبعد أن جرب صوته بهذه الطريقة، بدأ يشدو وقفز سافكا واقفاً وأصاخ السمع .

وقال : - إنه بلبل الأمس طيب مهلاً .

واندفع راكضاً نحو الحرش بخطوات لا تسمع فصحت في إثره : ما لك وما له؟ دعه .

فأشاح بيده، كأنه يقول: لا تصرخ، واختفى في الظلام كان بوسع سافكا عندما يشاء أن يصبح قناصاً أو صياد سمك رائعاً، ولكن مواهبة في هذه الحالة أيضاً كانت تبدد هباء مثلها مثل قوته كان كسولاً إزاء الأعمال العادية أما كل ولعة بالصيد فكان يسخره لحيل تافهة فهو مثلاً لا يصطاد البلابل إلا بيده، ويطلق أعيرة الرش الرفيع على سمك الكراكي

ويقف أحياناً ساعات طويلة في النهر وهو يحاول بكل جهده أن يصطاد سمكة صغيرة بشص كبير .

وعندما أصبحنا وحدنا سعلت أجافيا سعلة خفيفة ومرت بيدها على جبينها عدة مرات لقد بدأت تسكر من الفودكا التي شربتها وبعد صمت طويل، وعندما أصبح السكوت أكثر من ذلك محرجاً، سألتها :

-كيف الحال يا أجاش؟ - الحمد لله - ثم أضافت فجأة همساً: - لا تخبر أحداً يا سيدى فطمأنتها قائلاً - :لا تخشى شيئا ومع ذلك يا لك من شجاعة يا أجاشا ماذا لو عرف باكوف :

-لن يعرف - وإذا عرف؟

-كلا سأكون في المنزل قبل أن يصل إنه الآن على الخط، ولن يعود قبل مرور قطار البريد، ومن هنا يمكن سماع القطار عندما يمر .

ومرت أجافيا بيدها مرة أخرى على جبينها ونظرت إلى الجهة التي ذهب سافكا إليها كان البلبل يشدو وحلق طائر ليلي فوق سطح الأرض تماماً، وعندما لمحنا انتفض، وصفق بجناحيه، وانطلق نحو الشاطئ الآخر للنهر .

سرعان ما صمت البلبل، ولكن سافكا لم يعد ونهضت أجافيا، وخطت بضع خطوات في اضطراب، ثم جلست ثانية .

ولم تطق صبراً فقالت - :ماذا دهاه؟ القطار سيمر اليوم وليس غداً ينبغي أن أنصرف الآن وصحت أنا - : يا سافكا يا سافكا ولم يرد على حتى الصدى وتململت أجافيا بقلق، ثم وقفت ثانية وقالت بصوت مضطرب - :على أن أنصرف سيمر القطار حالاً أنا أعرف متى تمر القطارات ولم تخطى المرأة المسكينة فلم يمر ربع ساعة إلا وتردد صخب بعيد وصوبت أجافيا نظرة طويلة إلى الحرش وحركت ذراعيها بنفاذ صبر وقالت وهي تضحك بعصبية - : أين؟ إلى أين حملة الشيطان ؟ سأنصرف نعم يا سيدى سأنصرف .

وفي تلك الأثناء ازداد الصخب وضوحاً وأصبح من الممكن تمييز دقات العجلات من زفرات القاطرة الثقيلة وها قد تناهى صفير، وقرقع القطار فوق الجسر قرقعة مكتومة ومرت دقيقة أخرى، ثم هدأ كل شى وتنهدت أجافيا وهي تجلس بحزم: - سأنتظر دقيقة أخرى طيب، سأنتظر .

وأخيراً ظهر سافكا في الظلام كان يخطو بصوت لا يسمع بقدميه الحافيتين على أرض المزرعة الرخوة وهو يدمدم بصوت خافت وقال وهو يضحك بمرح :انظر إلى الحظ، يا سلام ما إن اقتربت من الخميلة، وما إن بدأت أصوب بيدى حتى سكت هذا الكلب الأجرب انتظرت وانتظرت حتى يعنى ثانية، ثم بصقت وعدت وهوى سافكا على الأرض بجوار أجافيا بحركة خرقاء، ولكي يحفظ توازنه أمسكها من خصرها بكلتا يديه وسألها : - ما لك مبوزة كأن حماتك هي التي ولدتك؟ .

ان سافكا رغم كل طيبة قلبه وسماحة روحه يحتقر النساء كان يعاملهن بإهمال وتعال، ويتنازل إلى مستوى الضحك الهازئ بأحاسيسهن تجاهه هو ومن يدري فربما كانت معاملة الإهمال والاحتقار هذه هي إحدى أسباب سحره القوي الذي لا راد له عند ملكات الجمال الريفيات كان جميلاً، ممشوقاً، وكانت عيناه تشعان برقة هادئة حتى وهو ينظر إلى النساء اللاتي يحتقرهن، غير أنه لا يمكن تفسير هذا السحر بالصفات الخارجية وحدها فإلى جانب مظهره الموفق وطريقته المميزة في المعاملة، كان مما له أيضاً تأثيره على النساء، فيما يبدو ، دور سافكا المؤثر كشخص سيئ الحظ وطريد بائس، فى من داره الحبيبة إلى المزارع .

ومضى سافكا يقول وهو لا يزال قابضا على خصر أجافيا :

هيا قولي للسيد لأي غرض جئت هيا خبريه يا زوجة الزوج هو هو هل نشرب مزيداً من الفودكا يا صاحبتي أجاشا؟ .

نهضت وسرت بحذاء المزرعة بين الخطوط المزروعة كانت هذه الخطوط القائمة تشبه مقابر كبيرة مبططة وفاحت منها رائحة التربة المعزوقة ورطوبة النبات الرقيقة وقد بدأ الندى يكسوه وإلى اليسار كان الضوء الأحمر لا يزال يومض كان يغمز ببشاشة وكأنه يبتسم .

وسمعت ضحكات سعيدة تلك كانت ضحكات أجافيا وفكرت :والقطار؟ لقد مر القطار منذ وقت طويل وانتظرت قليلا، ثم عدت إلى الخص كان سافكا جالساً القرفصاء بلا حراك وهو يدندن بصوت خافت لا يكاد يسمع أغنية ما تتألف من كلمات قصيرة المقاطع مثل يا أنت، ما أنت أنا وأنت وكانت أجافيا، وقد سكرت من الفودكا وحنان سافكا المحتقر والليل الخانق، ترقد بجواره على الأرض وتضغط بوجهها على ركبته في انفعال وقد أوغلت في أحاسيسها لدرجة أنها لم تلاحظ مقدمي وقلت لها - :يا أجاشا، لقد مر القطار من فترة طويلة .

هيا، حان الوقت، - قال سافكا مؤمناً على فكرتي وهو يهز رأسه مالك تمددت هنا؟ أنت يا عديمة الحياء؟ .

وجفلت أجافيا، ونزعت رأسها من على ركبته ونظرت إلى، ثم التصقت به ثانية وقلت :

حان الوقت من زمان .

وتملمت أجافيا ونهضت على ركبة واحدة كانت تعاني ولنصف دقيقة عبر جسدها كله، بقدر ما استطعت أن أميز في الظلام، عن الصراع والتردد وجاءت لحظة مدت فيها قامتها، وكأنها أفاقت، لكي تنهض واقفة، ولكن قوة قاهرة عنيدة دفعتها في بدنها كله، فالتصقت بسافكا .

- فليذهب في داهية .

قالت وهي تضحك ضحكة جوفية وحشية، وتبدى في هذه الضحكة حزم طائش وعجز وألم .

مضيت بهدوء نحو الحرش، ومن هناك هبطت إلى النهر حيث وضعنا سنانيرنا كان النهر نائما ولمست خدى برقة زهرة ناعمة منفوشة بساق طويلة كأنها طفل يريد أن يشعرك بأنه مستيقظ ولما لم يكن لدى ما أفعله فقد بحثت عن خيط إحدى السنانير حتى وجدته فسحبته وتوتر الخيط قليلا ثم ارتخى لم يعلق بالسنارة شيء ولم يكن الشاطئ الآخر والقرية يبدوان في الظلام وومض ضوء في أحد البيوت ثم سرعان ما انطفأ وتحسست أرض الشاطئ بيدى فعثرت على الحفرة التي كنت قد لاحظتها نهاراً فجلست فيها كما في مقعد ظللت جالساً مدة طويلة ورأيت كيف بدأ الضباب يلف النجوم فتفقد بريقها، وكيف انسابت البرودة فوق الأرض كزفرة خفيفة ومست أوراق الصفصاف المستيقظ .

-أجا فيا - تناهي من القرية صوت مكتوم - أجافيا .

كان ذلك صوت الزوج العائد القلق وهو يبحث عن زوجته في القرية وفي نفس الوقت انبعث من المزرعة ضحك منطلق : كانت الزوجة غائبة عن وعيها، ثملة، تحاول بسعادة بضع ساعات أن تعوض العذاب الذي ينتظرها في الغد ونمت .

وعندما استيقظت كان سافكا جالساً إلى جوارى يهز كتفي هزاً خفيفاً كان النهر والحرش، وكلا الشاطئين الأخضرين المغسولين، والأشجار والحقل كان كل ذلك مغموراً بضوء الصباح الساطع ومن بين جذوع الأشجار الرفيعة سقطت على ظهري أشعة الشمس التي أشرقت لتوها .

وضحك سافكا ساخراً: - أهكذا تصيد السمك ؟ حسناً، قم نهضت، وتمطيت بتلذذ، وبدأ صدرى المستيقظ يعب الهواء الرطب العطر بنهم .

وسألت سافكا - :أجاشا ذهبت؟ فأشار بيده إلى النهر حيث المخاضة - : ها هي نظرت فرأيت أجافيا كانت تعبر النهر، مشعثة، وقد شمرت ثوبها، وسقط المنديل عن رأسها وكانت لا تكاد تقوى على تحريك ساقيها ودمدم سافكا وهو يزر عينيه ناظراً إليها :

- تعرف القطة لحم من سرقت تسير وقد طوت ذيلها هؤلاء النسوة شقيات كالقطط وجبانات كالأرانب لم تذهب الحمقاء بالأمس عندما قلنا لها والآن ستلقى جزاءها، وأنا أيضاً سيجرونني إلى المركز سأجلد ثانية بسبب النساء.

بلغت أجافيا الشاطئ ومضت عبر الحقل إلى القرية في البداية سارت بخطوات جريئة،ولكن سرعان ما تغلب عليها القلق والخوف، فالتفتت مذعورة، وتوقفت عن السير وهي تلتقط أنفاسها

طبعاً لابد أن تخافي قال سافكا بسخرية حزينة وهو ينظر إلى الشريط الأخضر الساطع الذي امتد خلف أجافيا في العشب الندى لا ترغبين في السير زوجها يقف منذ ساعة وينتظر هل رأته؟ .

قال سافكا جملته الأخيرة وهو يبتسم، أما أنا فقد تثلج قلبي ففي القرية ، بجوار آخر بيت منها، وقف ياكوف على الطريق وهو يحدق مباشرة في زوجته العائدة لم يتحرك من مكانه وكان جامداً كالعمود فيم كان يفكر وهو ينظر إليها؟ وأية كلمات أعدها للقائها؟ وقفت أجافيا قليلاً، ثم التفتت مرة أخرى كأنما تنتظر منا العون، ثم سارت لم أر من قبل أبداً مثل هذه المشية لا لثمل ولا لمفيق وبدا كأن أجافيا تتلوى تحت وقع نظرة زوجها كانت تسير تارة بخطوط متعرجة، وتارة تراوح في مكانها وهي تثني ركبتيها وتشيح بيديها، وتارة تتراجع وبعد أن قطعت حوالى مائة خطوة التفتت مرة أخرى ثم جلست . وقلت لسافكا - :هلا اختبأت وراء الأغصان سيراك زوجها .

-إنه على أي حال يعرف من عند من جاءت أجاشا النساء لا يذهبن إلى المزارع ليلاً لإحضار الكرنب هذا يعرفه الجميع .

نظرت إلى وجه سافكا كان شاحبا وقد تقلص بشفقة متقززة كتلك التي تكسو وجوه الناس عندما يرون حيوانا يعذب وتنهد سافكا قائلاً - :الضحك للقطة، والدموع للفأر .وفجأة قفزت أجافيا واقفة، وهزت رأسها، ومضت نحو زوجها بخطوات جريئة يبدو أنها استجمعت قواها وحزمت أمرها .

المتمارضون

في أحد أيام الثلاثاء من شهر مايو كانت زوجة الجنرال مارفا بتروفنا بتشونكينا، التي تمارس العلاج الهوميوباتى منذ عشر سنوات، تستقبل المرضى في غرفة مكتبها وعلى الطاولة أمامها كان صندوق صيدلية الأدوية الهوميوباتية وكتاب وصفات العلاج وفواتير الصيدلية وعلى الجدران علقت تحت الزجاج في أطر مذهبة رسائل طبيب هوميوباتى ما من بطرسبرج كان مشهوراً جداً في رأى مارفا بتروفنا، بل عظيماً، وصورة الأب أريستارخ الذي تدين له زوجة الجنرال بخلاصها، أي بالكف عن العلاج المألوف وإدراك الحقيقة وفي الردهة ينتظر المرضي جالسين، ومعظمهم من الفلاحين وجميعهم ما عدا اثنين أو ثلاثة، حفاة، لأن زوجة الجنرال تأمرهم بأن يتركوا أحذيتهم النتنة في الفناء . كانت مارفا بتروفنا قد استقبلت عشرة أشخاص، وها هي ذي تستدعي الحادى عشر - : جافريلا جروزد .

ويفتح الباب، وبدلاً من جافريلا جروزود، يدخل الغرفة زاموريشين، جار زوجة الجنرال ، من الإقطاعيين المفلسين، عجوز ضئيل الجسم، ذو عينين كابيتين، وتحت إبطه قبعة النبلاء ويضع العصا في الركن ويقترب من زوجة الجنرال، وفي صمت يركع على إحدى ركبتيه أمامها.

فتفزع زوجة الجنرال وتتضجر حمرة - : ما هذا ما هذا يا كوزما كوزميتش أرجوك لا داعى فيقول زاموريشين مقبلاً يدها :

-لن أنهض ما دمت حياً فليراني الناس كلهم راكعا أمامك ، يا ملاكنا الحارس، يا راعية جنس بني البشر ليروني الساحرة الخيرة التي وهبتنى الحياة ، وأرشدتني إلى السبيل القويم، وأنارت ظلمات يأسى، هذه الساحرة مستعد أن أقف أمامها لا على ركبتى بل وفي النار أيضاً، يا شافية جراحنا الرائعة، يا أم اليتامى والأرامل لقد شفيت بعثت حيا أيتها الساحرة .

فتدمدم زوجة الجنرال وهي تتضجر من السرور - : أنا أنا سعيدة جداً ما أطيب أن أسمع هذا اجلس من فضلك ولكنك في الثلاثاء الماضي كنت مريضا جدا فيقول زامو خريشين :

أوه كم كنت مريضاً مجرد التذكر شيء مرعب كان الروماتيزم ممسكاً بكل أطرافي وأعضائى ثماني سنوات أتعذب، لم أذق للراحة طعماً لا ليلاً ولا نهاراً يا ربة نعمتى ترددت على الأطباء، وسافرت إلى البروفيسورات في كازان، وتعالجت بمختلف أنواع الطين، وشربت المياة المعدنية، لم أترك شيئاً إلا جربته وضيعت ثروتي على العلاج با سيدتي الجميلة هؤلاء الأطباء لم يعودوا على بشىء إلا بالضرر حبسوا الداء في جسمي صحيح أنهم حبسو ولكن علومهم ليست قادرة على إخراجه هؤلاء اللصوص لا يحبون إلا الاستيلاء على النقود

أما آلام الإنسان فلا تحرك شيئاً في نفوسهم يصف لك الدجال منهم شيئاً ما، وعليك أن تشربه باختصار هم قتلة ولولاك يا ملاكنا، لكنت الآن في القبر عدت من عندك يوم الثلاثاء الماضي، ونظرت إلى الحبات التي أعطيتنيها يومها وقلت لنفسي: أي فائدة منها؟ أمن المعقول أن هذه الحبيبات التي لا تكاد ترى يمكن أن تشفيني من مرضى الهائل القديم؟ وأخذت أبتسم وأنا أفكر ، يالي من ضعيف الإيمان، وما إن تناولت حبة حتى ظهر الأثر فوراً كأنما لم أكن مريضاً، كأنما يد مسحت الداء عني وحدقت زوجتى في بعينين جاحظتين وهي لا تصدق : أهذا أنت يا كوليا حقاً؟ فقلت لها :نعم أنا وركعنا معاً أمام الأيقونة وأخذنا نصلى لملاكنا : فلتعطها يارب كل ما نتمناه لها في نفوسنا ويمسح زامو خريشين عينيه براحته، وينهض من فوق المقعد، ويبدو أنه ينوي الركوع مرة أخرى على إحدى ركبتيه، ولكن زوجة الجنرال تستوقفه وتجلسه .

-لا توجه الشكر إلى قالت وهي تتضجر بحمرة الانفعال وتنظر بإعجاب إلى صورة الأب أريستارخ ما أنا إلا أداة طيعة يا لها من معجزات روماتيزم قديم، من ثماني سنوات ويزول من حبة واحدة .

لقد تكرمت وأعطيتني ثلاث حبات أخذت حبة في الغداء، وفوراً زال والثانية في المساء، والثالثة في اليوم التالي ومن ساعتها لم أشعر بشيء ولا حتى بوخزة مع أنني كنت استعد لملاقاة الموت، حتى إنى كتبت لابني في موسكو أن يأتي ألهمك الله يا شافية الجراح

ها أنا ذا أسير وكأني في الجنة في ذلك الثلاثاء عندما كنت عندك كنت أعرج، أما الآن فعلى استعداد ولو لمطاردة أرنب مائة سنة أخرى أستطيع أن أعيش شيء واحد يؤرقني: قلة الموارد ها أنا ذا صحيح الجسم، فما جدوى الصحة إذا كنت لا تجد ماتعيش به؟ العوز أرهقني أكثر من المرض إليك مثلاً على ذلك هذا الأمر الآن أوان بذر الجودار، فكيف تبذره وليس لديك بذور؟ ينبغي أن أشترى، ولكن النقود أي نقود لدينا سأعطيك جودارا يا كوزماكوزميتش اجلس، اجلس كم أذهلتني، وأية سعادة منحتني، أنا التي يجب أن أشكرك لا أنت .

-أنت سعادتنا كيف خلق الرب كل هذه الطيبة فلتفرحي يا سيدتي وأنت تنظرين إلى أعمالك الطيبة أما نحن المساكين فليس لدينا ما يفرحنا نحن قوم صغار، فقراء الروح، لا نفع منا تافهون نحن نبلاء اسماً فقط ، أما مادياً فنحن كهؤلاء الفلاحين، بل أسوأ نعيش في بيوت حجرية ولكن ذلك في الحقيقة سراب لأن السقف مثقوب تتسرب منه المياه وليس لدينا ما نشترى به الخشب سأعطيك خشباً يا كوزما كوزميتش .

ويحصل زامو خريشين كذلك على بقرة، وخطاب توصية لابنته التي يعتزم إلحاقها بمعهد ويغلبه التأثر من كرم زوجة الجنرال فيشهق باكياً ويتقلص فمه، ويدس يده في جيبه ليخرج المنديل وترى زوجة الجنرال ورقة حمراء تخرج من جيبه مع المنديل وتسقط على الأرض دون صوت.

ويتمتم زامو خريشين :

-لن أنسى أبد الدهر وسأوصى أولادى وأحفادي أن يذكروا وكل الأجيال ها هي ذي يا أولاد تلك التي أنقذتني من القبر، تلك التي .

وبعد أن تودع زوجة الجنرال مريضها تقف دقيقة تحدق في الأب أريستارخ بعينين مغرورقتين بالدموع، ثم تطوف بنظرة رقيقة ممتنة على الصيدلية ، وكتب العلاج، والفواتير، والكرسي الذي كان يجلس فيه منذ قليل الرجل الذي أنقذته من الموت، ويقع بصرها على الورقة التي سقطت من جيب المريض وترفع زوجة الجنرال الورقة وتفضها، فترى فيها ثلاث حبات ، تلك الحبات نفسها التي أعطتها لزامو خريشين في الثلاثاء الماضي وتقول مستغربة :

-إنها هي نفسها حتى الورقة هي بعينها إنه حتى لم يفضها ما الذي تناوله إذن؟ غريبة لا يمكن أن يكون قد خدعني.

ولأول مرة خلال عشر سنوات من الممارسة يتسرب الشك إلى نفس زوجة الجنرال وتستدعي بقية المرضى، وتلاحظ وهي تتحدث معهم عن أمراضهم ما كان يغيب عن سمعها من قبل فجميع المرضى بلا استثناء، وكأنما اتفقوا على ذلك، يمجدونها في البداية على شفائهم المدهش، ويبدون إعجابهم بحصافتها الطبية، ويسبون الأطباء العاديين

وبعد ذلك، وعندما يتضجر وجهها من شدة الانفعال، يبدأون في شرح مطالبهم فأحدهم يسألها قطعة أرض ليزرعها، والآخر قليلاً من الحطب ، والثالث يرجوها أن تسمح له بالصيد في غاباتها الخ وتتطلع زوجة الجنرال إلى وجه الأب أريستارخ العريض السمح الذي هداها إلى الحقيقة ، وتأخذ حقيقة أخرى في تعذيب روحها حقيقة كريهة ، ثقيلة ما أخبث الإنسان؟ .

السعيد

من محطة بولوجويه في خط سكك نيقولاي الحديدية يتحرك قطار ركاب وفي إحدى عربات الدرجة الثانية للمدخنين يجلس حوالى خمسة ركاب ناعسين، ملتفين بغبش العربة لقد أكلوا لتوهم، وها هم يحاولون النوم وقد أسندوا رؤوسهم على مساند الأرائك ويخيم السكون .

ويفتح الباب، وتدلف إلى العربة قامة طويلة، على هيئة عصا، في قبعة حمراء ومعطف أنيق، يشبه إلى حد كبير معاطف ممثلي الأوبريتات ومراسلي جول فيرن تتوقف القامة وسط العربة وهي تزحر، وتزر عينيها طويلاً متفحصة الأرائك .

-لا، وهذه أيضاً ليست هي الشيطان يعلم ما هذا شيء يغيظ ؟ كلا، ليست هي؟ ويحدق أحد الركاب في القامة، وتند عنه صيحة فرح - : إيفان أليكسييفتش ما هذه الصدف؟ أهو أنت؟ ينتفض إيفان .

أليكسييفتش العصور، ويحدق في الراكب ببلادة، وعندما يتعرف عليه يشيح بيديه في مرح ويقول :

-ها بيوتر بتروفتش من زمان لم نرك لم أكن أعرف أنك مسافر في هذا القطار كيف الصحة؟ والأحوال؟ .

-لا بأس، ولكني يا أخي فقدت عربتى ولا أستطيع أن أجدها، يالى من غبي أستحق الجلد؟ .

ويترنح إيفان أليكسيفتش العصوي وي هاهي ثم يقول :

-يا لها من حوادث خرجت من العربة بعد الجرس الثاني لأشرب كونياكا وشربت طبعاً وقلت لنفسي :ما دامت المحطة التالية بعيدة فلاشرب كأسا أخرى وبينما كنت أفكر وأشرب دق الجرس الثالث جريت كالمجنون وقفزت في أول عربة صادفتني حسناً، ألست غبياً؟ ألست أحمق ابن أحمق؟.

ويقول بيوتر بتروفتش : - واضح أن مزاجك عال تفضل بالجلوس يحصل لنا الشرف - لا، لا سأبحث عن عربتى إلى اللقاء .

-الدنيا عتمة، وقد تسقط، لا قدر الله، بين العربات اجلس معنا، وعندما نصل إلى المحطة ستجد عربتك اجلس ويتنهد إيفان أليكسييفتش ويجلس بتردد في مقابل بيوتر بتروفتش ويبدو أنه منفعل، ويتململ بقلق كأنه جالس على جمر

ويسأله بيوتر بتروفتش - :إلى أين تسافر؟ .

-أنا؟ إلى الفضاء في رأسي زحام كبير حتى إني لا أعرف إلى أين أسافر القدر يسير بى، حسناً فلأسافر، ها ها هل رأيت يا عزيزى حمقى سعداء؟ كلا؟ حسناً، انظر أمامك أسعد الأحباء نعم ألا تلاحظ شيئاً في وجهي؟ .

-ألاحظ أنك يعنى مبسوط قليلاً

-لا بد أن وجهي الآن يبدو غبياً بفظاعة أه، يا للأسف، لا توجد مرآة، لكي أتطلع إلى سحنتى أشعر يا أخي أنني أتحول إلى أبله أي والله ها ها تصور أنني أقوم برحلة شهر العسل حسناً، ألست أحمق ابن أحمق؟ .

-أنت؟ هل تزوجت حقاً؟ - اليوم يا عزيزى عقدت قرانى وركبت القطار فوراً وبدأت التهاني والأسئلة المعتادة ويضحك بيوتر بتروفتش - :با سلام لهذا فأنت أنيق هكذا ؟.

نعم بل وتعطرت أيضاً لتكتمل الصورة غرقت إلى أذني في الأمور التافهة لا هموم، لا أفكار، بل فقط إحساس بشيء يشبه الشيطان يعلم كيف أسميه ربما النعيم؟ لم أشعر في حياتي بمثل هذه الروعة ويغمض إيفان أليكسييفتس عينيه ويهز رأسه ويقول :

-سعيد إلى درجة تغيظ فلتحكم بنفسك، سأذهب الآن إلى عربتى وهناك، على الكنبة بجوار النافذة، يجلس مخلوق مخلص لك بكل جوارحه، كما يقال شقراء حلوة ، بأنف صغيرة وأنامل آه يا حبوبتي يا ملاكى يا حملي الوديع يا سلوى فؤادى وساقها يا إلهى ساقها ليست مثل أرجلنا الضخمة، بل شيء منمنم، سحرى مجازى بودي لو أمسكت بهذه الساق وأكلتها أوه ، إنك لا تفقه شيئاً أنت رجل مادى، كل شيء تحلله وتفلسفه أوه، أنتم عزاب جافون لا أكثر عندما تتزوج ستتذكرنى ستقول : أين أنت الآن يا إيفان أليكسييفتش؟

نعم، سأذهب الآن إلى عربتى هناك ينتظرونني على أحر من الجمر يتوقعون حضوري بلهفة وتستقبلني ابتسامة فأجلس وأمد إصبعين فأداعب بهما الذقن ويهز إيفان أليكسييفتش رأسه ويغيب في ضحك سعيد .

-ثم تضع رأسك على كتفها وتحيط خصرها بيدك ومن حولك يسود الهدوء وعتمة شاعرية تود لو تعانق الدنيا كلها في هذه اللحظة بيوتر بتروفتش، اسمح لي أن أعانقك .

-تفضل .

بتعانق الصديقان وسط ضحكات الركاب، ويستطرد الزوج الجديد السعيد :

وللمزيد من الحماقة، أو كما يقال في الروايات، لمزيد من الخيال، تذهب إلى البوفيه وتلقى في جوفك كأسين أو ثلاثا وهنا يحدث في رأسك وصدرك مالن تقرأ عنه حتى في الحكايات أنا رجل صغير، ضئيل، ولكن يخيل لي أني بلا حدود أحيط بالدنيا كلها .

ينظر المسافرون إلى الزوج الثمل السعيد فتنتقل إليهم عدوى مرحه، ويطير النوم من عيونهم وبدلاً من مستمع واحد سرعان ما يتجمع حول إيفان أليكسيفتش خمسة مستمعين أما هو فيتململ كأنه جالس على جمر، وينشر لعابه، ويشبح بيديه ويثرثر بلا انقطاع ويقهقه، ويقهقه الجميع .

-المهم يا سادة أن نقلل من التفكير إلى الشيطان بكل هذه التحليلات إذا شعرت برغبة في الشراب اشرب، ولا داعي للتفلسف حول ما إذا كان هذا مفيداً أم ضاراً إلى الشيطان بكل هذه التحليلات والسيكولوجيات .

ويمر الكمساري في العربة فيخاطبه الزوج الجديد :

-اسمع يا عزيزى عندما تمر بالعربة رقم ٢٠٩، ستجد هناك سيدة في قبعة رمادية بطائر أبيض قل لها إنني هنا .

حاضر ولكن لا توجد في هذا القطار عربة رقم ٢٠٩ توجد رقم ٢١٩ حسناً، فليكن ٢١٩ سيان أبلغ هذه السيدة أن زوجها بخير وسلام وفجأة يقبض إيفان أليكسييفتش على رأسه ويتأوه :

-زوج سيدة منذ متى هذا؟ زوج ها ها أنت تستحق الجلد وليس الزواج يالي من أبله وهي بالأمس كانت صبية بعوضة صغيرة شيء لا يصدق ويقول أحد الركاب :

غريب في زمننا هذا أن ترى شخصاً سعيد الأسهل أن ترى الفيل الأبيض.

فيقول إيفان أليكسييفتش ماداً ساقيه الطويلتين بحذائهما المدبب جداً :
نعم، ولكن من المذنب؟ إذا لم تكونوا سعداء فالذنب ذنبكم نعم، وماذا كنتم تظنون ؟ الإنسان هو خالق سعادته وبوسعكم، لو أردتم، أن تصبحوا سعداء، ولكنكم لا تريدون أنتم تهربون من السعادة بإصرار .

-أما غريبة وكيف ذلك؟ .

-بسيطة لقد سنت الطبيعة للإنسان أن يحب في فترة معينة من عمره فإذا حانت هذه الفترة فلتحب بكل ما تملك ولكنكم لا تطيعون الطبيعة، وتظلون في انتظار شيء ما وبعد ذلك نص القانون على أن الفرد الطبيعي ينبغي أن يتزوج فبدون الزواج لا توجد سعادة فإذا جاء الوقت المناسب فلتتزوج، لا تماطل ولكنكم لا تتزوجون، وتظلون في انتظار شيء ما؟ ثم إنه قد جاء في الكتاب المقدس أن الخمر تدخل البهجة في قلوب البشر فإذا كان مزاجك طيباً وتريده أن يكون أحسن، إذن فلتذهب إلى البوفيه ولتشرب المهم ألا تتفلسف، بل سر على التقليد التقليد شيء عظيم .

-أنت تقول إن الإنسان هو خالق سعادته أي خالق هو، بحق الشيطان ، إذا كان يكفي مجرد ألم في سنة أو حماة شريرة لكي تطير سعادته رأساً على عقب؟ كل شيء رهن بالصدفة فلو انقلب القطار بنا الآن كما في حادث كو كويفك لقلت كلاماً آخر .

فيقول الزوج الجديد محتجاً - : هراء الكوارث لا تحدث إلا مرة في السنة أنا لا أخشى أية حوادث ، لأنه ليس هناك مبرر لحدوث هذه الحوادث الحوادث نادرة فلتذهب إلى الشيطان أنا لا أريد حتى أن أتحدث عنها يبدو أننا نقترب من محطة .

ويسأله بيوتر بتروفتش :

-إلى أين أنت مسافر الآن؟ إلى موسكو أم ستواصل إلى الجنوب؟- سلامتك كيف أواصل إلى الجنوب إذا كنت مسافراً إلى الشمال؟ ولكن موسكو ليست في الشمال ويقول إيفان أليكسييفتش - :أعرف هذا، ولكننا الآن مسافرون إلى بطرسبرج - عفوك، إننا مسافرون إلى موسكو فيذهل الزوج الجديد - : كيف إلى موسكو ؟ - غريبة إلى أين اشتريت التذكرة؟.

- إلى بطرسبرج - إذن دعني أهنئك لقد ركبت قطاراً آخر وتمر فترة صمت وينهض الزوج الجديد ويحملق في الجالسين بلادة ويوضح له بيوتر بتروفتش الأمر :

نعم، نعم في بولو جويه قفزت إلى قطار آخر إذن فقد ركبت ، بعد الكونياك، القطار المضاد يمتقع وجه إيفان أليكسييفتش، ويقبض على رأسه بيديه ويذهب ويجيء في العربة بسرعة ويقول ثائراً

-آه، يا لى من حمار غبى يا لى من وغد، فلتخطفني الشياطين ماذا سأفعل الآن؟ زوجتي في القطار الآخر هناك وحدها، تنتظر، تعاني آه ، بالى من مهرج أحمق .

ويتهالك الزوج الجديد على الكنبة، وينكمش كأنما داس أحدهم على إصبع قدمه المريضة ويتأوه :يالى من بائس ماذا سأفعل الآن؟ ماذا؟ ويخفف الركاب عنه

-لا بأس، لا بأس بسيطة أرسل لزوجتك برقية ، أما أنت فحاول أن تستقل القطار السريع وبذلك تلحق بها فيبكى الزوج الجديد، خالق سعادته :

-القطار السريع ومن أين أحصل على النقود للقطار السريع؟ كل نقودي مع زوجتي؟ ويتهامس الركاب الضاحكون، ويتشاركون في جمع مبلغ من المال،ويعطونه للسعيد .

أنيوتا

في أرخص غرفة من غرف البنسيون المفروش لشبونة أخذ ستيبان كلوتشكوف، الطالب بالصف الثالث بكلية الطب يروح ويجيء من ركن إلى ركن وهو يستظهر علومه الطبية وبسبب الاستظهار المستمر الشاق جف ريق فمه وتفصد العرق على جبينه .

وبجوار النافذة التي غطى الجليد أطرافها بنقشه، وعلى مقعد بلا ظهر، جلست خليلته أنيوتا، وهي فتاة صغيرة الجسم، نحيلة، سوداء الشعر، في حوالي الخامسة والعشرين، شاحبة جداً، ذات عينين رماديتين وديعتين جلست محنية الظهر وهي تطرز ياقة قميص رجالى بخيوط حمراء كان العمل مستعجلاً ودقت ساعة الممر بصوت أبح معلنة الثانية بعد الظهر، بينما لم ترتب الغرفة بعد كانت البطانية المجعدة، والوسائد المبعثرة، والكتب، والحلة، والوعاء الكبير القذر المملوء بمياه الغسيل الصابونية، التي كانت تعوم فيها أعقاب السجائر، والقاذورات على الأرض كان ذلك كله يبدو كأنه تجمع في كوم واحد، وخلط وجهد عن عمد وقال كلوتشكوف وهو يستظهر بصوت عال:

-الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص حدودها الفص العلوى عند الجدار الأمامي للصدر يصل إلى الضلع الرابع والخامس، وعلى السطح الجانبي حتى الضلع الرابع وعند الجدار الخلفي حتى ورفع كلوتشوف عينيه نحو السقف

وهو يحاول أن يتصور ما قرأه لتوه وعندما لم يصل إلى تصور واضح أخذ يتحسس ضلوعه العليا من خلال الصديرى وقال :

-هذه الضلوع تشبه مفاتيح البيانو ولكي لا يختلط على الحساب لا بد أن أتعودها سيكون على أن أدرسها على الهيكل البشري وعلى شخص حي تعالي يا أنيوتا، هيا أسترشد بك .

تركت أنيوتا التطريز، ونزعت بلوزتها، وانتصبت وجلس كلوتشگوف قبالتها، وقطب حاجبيه، وأخذ يعد ضلوعها هم الضلع الأول لا أستطيع أن أتحسسه إنه خلف الترقوه أما هذا فهو الضلع الثاني إذن حسناً وهذا الثالث وهذا الرابع هم حسنا مالك تنكمشين؟ - أصابعك باردة

-طيب ، طيب، لن تموتى، گفي عن التململ إذن فهذا هو الضلع الثالث، وهذا الرابع يبدو من منظرك أنك هزيلة، ومع ذلك لا أكاد أعثر على ضلوعك هذا هو الضلع الثاني وهذا الثالث كلا، هكذا سيختلط على الأمر ولن أتصور بوضوح ينبغي أن أرسمها أين قطعة الفحم؟ .

تناول كلوتشكوف قطعة الفحم ورسم بها على صدر أنيوتا عدة خطوط متوازية تتفق والضلوع .

-رائع كل شيء واضح تماماً حسناً، والآن أستطيع أيضاً أن أدق بأصابعي هيا انهضي؟ .

نهضت أنيوتا ورفعت ذقنها وانهمك كلوتشكوف في الدق بأصابعه ، واستغرق تماماً في هذا الأمر حتى إنه لم يلاحظ أن شفتي أنيوتا وأنفها وأصابعها أزرقت من البرد وكانت أنيوتا ترتجف وهي تخشى أن يلحظ طالب الطب رجفتها فيكف عن الرسم بالفحم وعن الدق، ثم ربما پرسب في الامتحان. وقال كلوتشكوف بعد أن كف عن الدق :

-كل شيء واضح الآن اجلسي هكذا ولا تمسحى الخطوط ، أما أنا فسأستظهر قليلاً وعاد طالب الطب يتمشى ويستظهر وجلست أنيوتا منكمشة، بخطوط الفحم السوداء كالوشم على صدرها، وراحت تفكر وعموماً لم تكن تتحدث إلا قليلاً، وكانت دائماً تبقى صامتة، وتفكر ، وتفكر.

طوال السنوات الست أو السبع من تقلبها في البنسيونات المفروشة عرفت حوالي خمسة أشخاص من أمثال كلوتشكوف وقد تخرجوا جميعاً من الجامعات، وأصبحوا الآن ذوى مكانة، وكأناس محترمين فقد نسوها بالطبع منذ أمد بعيد واحد منهم يعيش في باريس، واثنان يعملان طبيبين، والرابع مصور، أما الخامس فيقال حتى إنه أصبح أستاذاً وكلوتشكوف هو السادس وقريباً يتخرج هو أيضاً ويصبح ذا مكانة مستقبله بلا شك رائع، وسيصبح كلوتشكوف، على الأرجح، شخصية كبيرة، ولكن الحاضر سيء تماماً: فليس لديه تبغ أو شاى، ولم يبق من السكر سوى أربع قطع ينبغي أن تنتهي من التطريز بأسرع ما يمكن وتسلمه لصاحبة الطلب مقابل خمسة وعشرين كوبيكا، ثم تشتري بها شاياً وتبغاً.

وتردد من وراء الباب - : هل يمكن أن أدخل؟ .

وألقت أنيوتا بمنديل صوفي على كتفيها بسرعة ودخل المصور فيتيسوف وقال مخاطبا كلونشكوف وهو ينظر نظرة وحشية من تحت الشعر المتهدل على جبينه :

-لي عندك رجاء اصنع معروفاً، أعرني فتاتك الرائعة لمدة ساعتين إنني أرسم لوحة، ولا أستطيع أبداً بدون موديل.

فقال كلوتشكوف موافقاً - :أوه، بكل سرور اذهبى يا أنيوتا فدمدمت أنيوتا بصوت خافت : - وما الذي لم أره هناك .

-طيب ، كفي إنه يطلبك من أجل الفن، وليس من أجل تفاهات فلماذا لا تساعدينه إذا كان في وسعك؟ وأخذت أنيوتا ترتدي ثيابها وسأله كلوتشكوف :وماذا ترسم؟ - بسيشة موضوع جيد، ولكني لا أوفق في رسمه؛ مضطر إلى الرسم من موديلات مختلفة بالأمس رسمت واحدة بسيقان زرقاء سألتها لماذا ساقاك زرقاوان؟ فقالت : لأن الجورب يبهت وأنت، مازلت تستظهر؟ يالك من سعيد، لديك صبر .

-الطب شيء لا يمكن أن تحصله بدون استظهارهم لا مؤاخذة يا كلوتشكوف، ولكنك تعيش عيشة فظيعة، كالخنازير الشيطان يعلم كيف تعيش؟ .

-ماذا تقصد؟ لا يمكن أن أعيش بصورة أخرى أنا لا أتلقى من والدي إلا اثني عشر روبلاً في الشهر، وبهذه النقود يستحيل أن تعيش عيشة لائقة فقال المصور وهو يمتعض باشمئزاز :

-هذا مفهوم ومع ذلك من الممكن أن تعيش أفضل من الشخص الراقي ينبغي أن يكون محباً للجمال أليس كذلك؟ أما هنا فالشيطان يعلم ماذا لديك الفراش غير مرتب وهذه الزبالة والقاذورات وعصيدة الأمس مازالت في الطبق .

فقال طالب الطب محرجاً - :هذا صحيح ولكن أنيوتا لم تتمكن اليوم من تنظيف الغرفة فهيمشغولة طوال الوقت وعندما خرج الصور وأنيوتا استلقى كلوتشكوف على الكنبة ومضى يستظهر وهو راقد، ثم غافله النعاس وحينما استيقظ بعد ساعة وضع رأسه بين قبضتيه واستغرق في التفكير عابسا تذكر ما قاله المصور من أن الإنسان الراقي ينبغي أن يكون محباً للجمال، فبدا له جو الغرفة الآن بغيضاً ومنفراً بالفعل وكأنما رأى بعين العقل مستقبله حين يستقبل الزبائن المرضى في غرفة المكتب، ويشرب الشاي في غرفة الطعام الواسعة بصحبة زوجته، المرأة المحترمة فأصبح هذا الوعاء، بماء الغسيل القذر الذي تسبح فيه أعقاب السجائر كريه المنظر إلى حد لا يعقل وبدت له أنيوتا أيضاً قبيحة، مهملة الثياب، بائسة فقرر أن يفترق عنها على الفور، مهما كان الأمروحينما عادت من عند المصور وخلعت معطفها، نهض وقال لها بجدية

-اسمعى يا عزيزتي اجلسي وأصغي إلى ينبغي أن نفترق باختصار أنا لا أريد أن أعيش معك بعد الآن عادت أنيوتا من عند المصور متعبة منهكة ومن طول الوقوف كموديل ضمر وجهها وهزل فأصبح ذقنها أكثر حدة ولم تقل شيئاً رداً على كلمات طالب الطب، بل فقط ارتعشت شفتاها وقال طالب الطب : على أية حال كنا سنفترق عاجلاً أم آجلاً أنت فتاة جيدة، طيبة أنت لست غبية فسوف تفهمين ارتدت أنيوتا المعطف ثانية، ولفت تطريزها بورقة في صمت، وجمعت الخيوط والإبر ووجدت اللفة ذات قطع السكر الأربع على النافذة ، فوضعتها على الطاولة بجوار الكتب .

-هذا سكرك قالت بصوت خافت واستدارت لتخفي دموعها وسألها كلوتشكوف : طيب ، ولماذا تبكين ؟ .

وتمشي في الغرفة محرجاً ثم قال :

حقا أنت غريبة إنك تدركين أننا لا بد أن نفترق لا يمكن أن نبقى معاً إلى الأبد كانت قد جمعت كل صررها الصغيرة، واستدارت نحوه لكى تودعه، فشعر بالشفقة عليها .

وقال في نفسه : ربما أدعها تبقى أسبوعاً آخر هنا؟ نعم، بالفعل فلتبق قليلاً، وبعد أسبوع آمرها أن تذهب وصاح بها بصرامة، محنقاً من ضعف إرادته مالك واقفة إذا كنت ستذهبى فلتذهبي، وإذا لم تشائى فلتخلعى المعطف ولتبقى ابقىخلعت أنيوتا المعطف في صمت وسكون

ثم تخطت أيضاً بسكون، وتنهدت، واتجهت دون صوت إلى موقعها الدائم: إلى المقعد بجوار النافذة .

وشد الطالب كتابه إليه وأخذ يسير من جديد من ركن إلى ركن وأخذ يستظهر :

-الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة فصوص الفص العلوى عند الجدارالأمامي للصدر يصل إلى الضلع الرابع والخامس وصاح أحدهم في الطرقة بأعلى صوته: - يا جريجورى، هات شاياً .

كلخاس

استيقظ الممثل الكوميدى فاسيلى فاسيليفتش سفيتلوفيدوف، وهو عجوز ممتلئ الجسم، قوى البدن، في الثامنة والخمسين من عمره، وتطلع حوله بدهشة فعلى جانبي مرآة صغيرة أمامه كانت تشتعل بقايا شمعنين وأضاء اللهب الثابت الكسول بوهن غرفة صغيرة بجدران خشبية مطلية معبأة بدخان السجائر وعتمة الغبش وظهرت في كل ما يحيط به آثار اللقاء القريب بين ديونيس وملبومينا، ذلك اللقاء الذي تم سراً، ولكنه كان عاصفاً وقبيحاً كالرذيلة فعلى الأرض وفوق الكراسى تناثرت سترة وسروال، وأوراق صحف ومعطف ذو بطانة زاهية وقبعة أسطوانية وعمت الفوضى والاضطراب المائدة : فقد ازدحمت هنا واختلطت الزجاجات الفارغة والأكواب، وثلاثة أكاليل، وعلبة سجائر مذهبة، وحامل كوب، وورقة يانصيب رابحة من سحب القرض الثاني مبللة الحافة،وعلبة بدبوس ذهبي وكان هذا الخليط المتنافر مغطى بسخاء بأعقاب السجائر ورمادها، وبقطع صغيرة من رسالة ممزقة أما سفيتلوفيدوف نفسه فكان جالساً في كرسي فوتيل وفي حلة كلخاس وقال الممثل الكوميدي وهو يتطلع حوله :

-يا ربي، إنني في غرفة الملابس أما حكاية متى نعست يا ترى؟ وأصاخ السمع كان الصمت مطبقاً كصمت القبور وذكرته علبة السجائر وورقة اليانصيب الرابحة على الفور بأن اليوم كان يوم حفلته .

البنيفيس وأنه حظى بنجاح كبير، وأنه شرب الكثير من الكونياك والنبيذ الأحمر في فترات الاستراحة مع محبيه الذين كانوا يقتحمون عليه غرفة الملابس وكرر تساؤله :

ـ متى نعست يا ترى؟ آه ، يالى من عجوز مخرف ماذا أيها الكلب العجوز ألهذه الدرجة تسكر حتى تنام جالساً في المقعد شاطر.

وأحس الممثل الكوميدي بالمرح انفجر في ضحك ثمل يتخلله السعال، وتناول إحدى الشمعتين، وخرج من غرفة الملابس كانت خشبة المسرح خاوية ومظلمة ومن عمق الخشبة وجانبيها، ومن الصالة هب نسيم خفيف ولكنه محسوس كانت تيارات الهواء تجول كالأرواح فوق الخشبة وهي تتصادم وتدوم وتداعب لهيب الشمعة وتراقص اللهيب وتتلوى في جميع الاتجاهات ملقياً ضوءاً ضعيفاً تارة على صف الأبواب المفضية إلى غرف الملابس، وتارة على الكواليس الحمراء حيث كان ثمة دلو، وتارة على إطار كبير ملقى وسط الخشبة .

وصاح الممثل :

-يجوركا، يجوركا، أيها الشيطان، بتروشكا نام الشياطين عليهم اللعنة يجوركا ورد الصدى :

وتذكر الممثل أنه قد منح كلاً من يجوركا وبتروشكا ثلاثة روبلات ليشربا فودكا بمناسبة البنيفيس ومن غير المحتمل، بعد هذه المنحة السخية، أن يمكثا في المسرح للمبيت تأوه الممثل وجلس على كرسي بلا مسند، ووضع الشمعة على الأرض كان رأسه ثقيلاً ثملاً، وقد بدأت الكمية الهائلة التي شربها من البيرة والنبيذ والكونياك تحترق لتوها في جسده كله ، وأحس بالضعف والخوار بسبب نومه جالساً ودمدم وهو بيصق :

-سرية خيالة باتت في فمي آه ، يالى من عجوز أحمق ما كان يجب أن أشرب ما كان يجب ظهري يؤلمني، ورأسى يكاد ينفجر، وجسدى كله يرتجف إنها الشيخوخة .

ونظر أمامه كانت تلوح بالكاد كوشة الملقن والمقصورات الخاصة وحاملات النوت الموسيقية، أما الصالة كلها فكانت تبدو كحفرة سوداء بلا قرار ، كشدق مفغور تطل منه ظلمة باردة صارمة كانت الصالة عادة متواضعة مريحة، إلا أنها بدت الآن، ليلاً، عميقة بلا حدود، مقفرة كالقبر، قاسية وحدة الممثل في الظلام ثم في الشمعة ومضى يقول بتذمر :

-نعم، الشيخوخة مهما لففت ودرت، وتصنعت الشجاعة، ومهما تغابيت ، فقد بلغت الثامنة والخمسين خلاص قل على الحياة السلام نعم يا فاسنكا لقد خدمت على الخشبة ٣٥ سنة، ولكني فيما يبدو أرى المسرح ليلا لأول مرة يالها من مفارقة، أي والله نعم، لأول مرة شيء مرعب، يا للشيطان وصاح وهو ينهض - يجوركا ورد الصدى

ودوت مع الصدى في وقت واحد أجراس صلاة الصبح في مكان بعيد، وكأنما انبعثت من أعماق الشدق المفغور ورسم كلخاس علامة الصليب ثم صاح :

-بتروشكا أين أنتم أيها الشياطين؟ يا إلهي لماذا أذكر اسم الشيطان؟ دع عنك هذه الكلمات، كف عن الشراب فقد هرمت، آن أن تموت في الثامنة والخمسين يذهب الناس لصلاة الصبح، يستعدون لملاقاة الموت وأنت أوه يا إلهى ودمدم - :الرحمة يارب، هذا مرعب لو قضيت الليلة هنا بهذه الصورة فقد أموت من الخوف هذا هو المكان الحقيقى لتحضير الأرواح .

وازداد رعباً عند ذكر كلمة الأرواح أثارت التيارات المتجولة وذبذبة البقع الضوئية خيالة وألهبته إلى أقصى درجة فانكمش وضمر، وانحنى ليلتقط الشمعة، وللمرة الأخيرة تطلع خلسة وبخوف طفولي إلى الحفرة المظلمة كان وجهه الذي شوهه المكياج متبلداً خالياً من أى معنى تقريباً وقبل أن تصل يده إلى الشمعة قفز واقفاً وحملق في الظلام بنظرة جامدة وقف صامتاً حوالي نصف دقيقة، ثم أمسك برأسه وخبط بقدميه وقد تملكه فزع غير عادي .

وصرخ الممثل بصوت حاد غير طبيعى - : من أنت؟ من أنت؟ في إحدى المقصورات الخاصة وقف شبح بشرى أبيض وعندما كان الضوء يسقط ناحيته يصبح من الممكن أن تميز فيه يدين ورأساً بل ولحية بيضاء وكرر الممثل بصوت يائس: - من أنت؟

رفع الشبح الأبيض ساقه وعبر حاجز المقصورة وقفز إلى موضع الأوركسترا، ثم سار نحو خشبة المسرح بلا صوت كالظل وتمتم وهو يصعد إلى الخشبة - : إنه أنا فصرخ كلخاس وهو يتراجع - : من؟ - أنا أنا نكيتا إيفانيتش الملقن عفواً، لا داعي للقلق تهالك الممثل على المقعد خائر القوى وطأطأ رأسه كان يرتجف وقد أفقده الرعب صوابه .

اقترب منه رجل طويل، معروق، أصلع، بلحية شيباء، حافي القدمين وبالملابس الداخلية فقط، وقال :

-إنه أنا إنه أنا الملقن فنطق الممثل وهو يمسح براحته على جبينه ويتنفس بصعوبة - : يا إلهي أهو أنت يا نيكيتوشكا؟ لماذا لماذا أنت هنا؟ .

-أنا هنا أبيت في المقصورة الخاصة ليس عندي مكان آخر .

للمبيت لكن أرجوك ألا تقول لأليكسي فوميتش .

ها أنت ذا يا نيكيتوشكا دمدم الممثل الخائر ماداً يده المرتعشة نحوه - يا إلهي، يا إلهى طلبونى للظهور ست عشرة مرة، وحملو الي ثلاثة أكاليل وهدايا كثيرة كانوا جميعاً معجبين، ولكن لم يوقظ أحد العجوز السكران ولم يحمله إلى البيت أنا عجوز يا نيكيتوشكا .

عمرى ٥٨ سنة مريض روحي الضعيفة تتعذب وهم الممثل نحو الملقن وأطبق على يده وبدنه كله يرتعش ودمدم وكأنما يهذي : لا تتركنى يا نيكيتوشكا أنا عجوز، ضعيف على وشك الموت أنا خائف .

فقال نيكيتوشكا برقة: ـ آن لك أن تذهب إلى البيت يا فاسيلى فاسيليتش ـ لن أذهب لا بيت لى كلا، كلا رحماك يارب لقد نسيت أين تسكن؟ .

ـلا أريد أن أذهب إلى هناك، لا أريد ـ دمدم الممثل في لوعة ـ هناك أنا وحيد ليس عندي أحد يا نيكيتوشكا، لا أهل، ولا زوجة، ولا أولاد وحيد كالريح في الخلاء لو مت فلن يذكرني أحد .

انتقلت عدوى الرعشة من الممثل إلى نيكيتوشكا كان العجوز الثمل المنفعل يهز يد الملقن وهو يعصرها بعصبية ويلوثها بخليط المكياج والدموع وانكمش نيكيتوشكا من البرد وطوى كتفيه .

ودمدم كلخاس :

ـأنا خائف من وحدتي ليس هناك من يلاطفني أو يعزيني، أو يضعني، أنا الثمل، في الفراش لمن أنا؟ من بحاجة إلى؟ من يحبني؟ لا أحد يحبنى يا نيكيتو شكا

ـالجمهور يحبك يا فاسيلي فاسيليتش .

-الجمهور انصرف، وهو الآن نائم كلا، لا أحد بحاجة إلى، لا أحد يحبني لا زوجة لي ولا أطفال .

-ياسلام، وجدت ما تأسف عليه .

ولكني إنسان، حي أنا نبيل يا نيكيتوشكا، من أصل كريم قبل أن أسقط في هذه الحفرة كنت في الخدمة العسكرية، في سلاح المدفعية كنت فتى وأي فتى، كنت جميلا، مندفعا، جريئا وأى ممثل كنت، يا إلهي، يا إلهى أين ذهب ذلك كله، أين ذلك العهد؟.

نهض الممثل معتمدا على يد الملقن، وطرفت عيناه بشدة كأنه خرج من الظلام إلى غرفة ساطعة النور وسالت على خديه دموع غزيرة مخلفة خطوطا من أصباغ الماكياج .

واستطرد يهذي :

-يا له من عهد نظرت لتوي إلى هذه الحفرة فتذكرت كل شيء كل شيء هذه الحفرة ابتلعت ٣٠ سنة من عمرى يا نيكيتوشكا أنظر إليها الآن فأرى كل شيء بأدق تفاصيله كما أرى وجهك أذكر عندما كنت ممثلا شابا، وبدأت تملكني وقدة الحماس، أحبتنى إحداهن لأدائى كانت جميلة، رشيقة كشجرة حور، فتية ، بريئة، ذكية، حارة كفجر صيفى كنت على يقين من أنه لو اختفت الشمس من السماء فستبقى الأرض رغم ذلك منيرة، لأنه ما كان بوسع أي ظلام أن يصمد أمامها .

كان كلخاس يتحدث بحرارة وهو يهز رأسه ويده وأمامه وقف نيكيتوشكا يصغي إليه حافياً وفي ملابسه الداخلية فقط ولفهما كليهما الظلام الذي لم يكن ضوء الشمعة الواهن قادراً على تبديده كان ذلك مشهدا غريبا، غير عادي، لم ير مثله أى مسرح في العالم، ولم يكن هناك من مشاهدين سوى الحفرة السوداء الصماء ,

ومضى كلخاس يقول مختنقاً :

-لقد أحبتنى ، ثم ماذا؟ أذكر وقفتي أمامها كما أقف أمامك الآن كانت رائعة في تلك المرة كما لم تكن أبدا من قبل، وكانت تنظر إلى بعينين لن أنساهما حتى الممات الرقة، المخمل، بريق الشباب ،العمق كنت ثملاً بالنشوة، سعيداً، فجثوت أمامها على ركبتى سائلاً السعادة .

التقط الممثل أنفاسه وقال بصوت خائر :

-قالت لي: اترك المسرح هل تفهم؟ كانت تستطيع أن تحب ممثلا، أما أن تصبح زوجته فلا، مستحيل أذكر أنني في ذلك اليوم كنت أمثل ال كان دورا حقيرا، دور مهرج وكنت أمثل بينما أحشائي تتمزق أسي وقلقا لم أهجر المسرح، كلا، ولكن الحقيقة تكشفت لى آنذاك أدركت أني عبد، لعبة في أيدي أناس فارغى البال، وإنه ليس هناك فن مقدس، بل كل ذلك هذيان وخداع فهمت ما هو الجمهور ومنذ ذلك الوقت لم أعد أصدق التصفيق أو الأكاليل أو الإعجاب نعم يا أخي المتفرج يصفق لى، ويشترى صورتى بروبل

ومع ذلك فأنا غريب بالنسبة له، أنا عنده قذارة، غانية تقريباً وهو يريد التعرف بي إرضاء لغروره، ولكنه لن يهين نفسه بتزويجي أخته أو ابنته أنا لا أصدقه، أمقته، إنه غريب بالنسبة لي؟ .

فقال الملقن بوجل : آن لك أن تعود إلى البيت فصاح كلخاس مهدداً الحفرة السوداء بقبضته:أفهمهم تمام الفهم من يومها فهمت سقطت الغشاوة عن عينى شاباً فرأيت الحقيقة ودفعت ثمن هذه الصحوة غالياً يا نيكيتوشكا بعد تلك الواقعة، بعد تلك الفتاة ، أصبحت أهيم بلا معنى، أعيش دون جدوى، ولا أنظر للمستقبل لعبت أدوار المهرجين، وسخرت، وأفسدت العقول ابتذلت لسانى وشوهنه، أضعت نفسي وكرامتى إيه، إيه التهمتني هذه الحفرة لم أشعر بذلك قبلا، أما اليوم عندما استيقظت ، نظرت إلى الوراء، فإذا ورائى ٨٠ سنة الآن فقط أحسست بالشيخوخة ضاع العمر .

وظل كلخاس يرتعش ويختنق وبعد ذلك بفترة، عندما قاده نيكيتوشكا إلى غرفة الملابس وأخذ ينزع عنه ملابسه، تداعى كلخاس وخار، لكنه لم يكف عن الدمدمة والبكاء .

البربوط

صباح صيفي والجو ساكن، إلا من أزيز جندب على الشاطئ، وفي مكان ما يزقزق عصفور صغير بوجل وفي السماء تقف سحب زغبية جامدة، تشبه نتف الثلج المبعثر وبجوار حمام يجرى بناؤه، وتحت أغصان الصفصاف الخضراء يتخبط في الماء النجار جيراسيم، وهو فلاح طويل نحيف، بشعر أحمر مجعد، ووجه مغطى بالشعر ويزحر ويزفر، ويغمز بعينيه بشدة، وهو يحاول أن يستخرج شيئا ما من تحت جذور الصفصاف ووجهه مغطى بالعرق وعلى بعد ذراع من جيراسيم يقف غائصاً في الماء حتى زوره النجار لوبيم، وهو فلاح شاب أحدب، بوجه مثلث وعينين ضيقتين صينيتين وكل من جيراسيم ولوبيم يقفان بالقمصان والسراويل وكلاهما ازرق جلده من البرد لأنهما يقفان في الماء منذ أكثر من ساعة .

ويصبح لوبيم الأحدب وهو يرتعش كالمحموم - : ما لك تتحسس بيدك كالأعمى؟ شغل مخك أمسكه ، أمسكه وإلا أفلت هذا الملعون، أمسكه قلت لك.

فيقول جيراسيم بصوت أبح مكتوم صادر لا من حلقه بل من أعماق بطنه:

-لن يفلت إلى أين يذهب؟ انحشر تحت الجذر يا له من أملس، هذا الشيطان، لا تعرف من أين تمسكه .

-أمسكه من خشمه، من خشمه .

-خياشيمه لا تظهر مهلاً أمسكته من موضع من شفته أمسكته إنه يعض، هذا الشيطان .

-لا تشده من شفته، لا تشده وإلا أفلت أمسكه من خشمه، من خشمه أمسكه عدت تتحسس بيدك كالأعمى أما فلاح غبي، رحمتك يارب أمسكه فيقلده جيراسيم مشاكساً :

-أمسكه حضرته عامل ريس تعال أمسكه أنت، أيها الشيطان الأحدب ما لك واقفاً؟ .

-لو كنت أقدر لأمسكته وهل أستطيع بجسمى هذا أن أنزل تحت الشاطى؟ المياه عميقة هناك .

-لا يهم أنها عميقة اسبح .

ويضرب الأحدب بذراعيه ويسبح حتى يبلغ جيراسيم، ويتشبث بالأغصان وما إن يحاول الوقوف على قدميه حتى يغوص في الماء ويبقبق.

ويقول وحدقتا عينيه تدوران بغضب - :ألم أقل لك عميقة أجلس على رقبتك يعنى؟ - ضع قدميك على جذر الجذور هنا كثيرة - كدرجات السلم .

ويتحسس الأحدب بكعبه حتى يعثر على جذر ، فيقف عليه بعد أن يتشبث بعدة غصون معاً ويحفظ توازنه، وبعد أن يتمركز في الموقع الجديد ينحني محاولا ألا يدخل الماء فمه، ويروح يفتش بيده اليمنى بين الجذور وتشتبك يده بالأعشاب المائية، وتنزلق على الطحلب الذي يغطي الجذور، ثم تصطدم بمخالب سرطان حادة . -لم يكن ينقصنا سواك أيها الشيطان - يقول لوبيم ويلقي السرطان بغضب إلى الشاطئ .

وأخيرا تعثر يده على يد جيراسيم، فتهبط معها حتى تصل إلى شيء أملس بارد

ويبتسم لوبيم قائلاً - : ها هوذا كبير هذا الشيطان افتح أصابعك سوف أمسكه من خشمه حاسب لا تدفع بكوعك حالاً سأمسكه انتظر حتى أقبض عليه لقد انحشر هذا الشيطان تحت الجذر بعيداً لا أصل إلى رأسه ليس هناك إلا بطن اقتل البعوضة على رقبتي آه تلسعني سأمسكه حالاً من خشمه تعال من الجنب، ادفعه، ادفعه انغزه بأصبعك .

نفخ الأحدب شدقيه، وكتم أنفاسه، وحملقت عيناه ، وبدا كأنه يوشك على دس أصابعه تحت خشمه ، إلا أن الأغصان التي كان متشبثاً بها بيده اليسرى تتكسر فجأة، فيفقد توازنه و يهوى في الماء وتنطلق دوائر متموجة، مبتعدة عن الشاطئ وكأنها مذعورة، وتتصاعد من موضع السقوط الفقاقيع ويطفو الأحدب وهو يزفر ويتشبث بالأغصان ويدمدم جيراسيم بصوته الأبح .

-المصيبة أن تغرق وأصبح أنا المسئول اخرج إلى الشيطان من هنا أنا سأسحبه .

وينشب السباب والشمس تحمى وتحمى، وتصبح الظلال أقصر وتنكمش على نفسها كقرون القوقعة وتتصاعد من الأعشاب الطويلة .التي سختها الشمس رائحة عسلية قوية وعما قريب ينتصف النهار بينما لا يزال جيراسيم ولوبيم يتخبطان في الماء تحت الصفصاف ولا يكف الصوت الباص الأبح، والتينور الرفيع المقرور عن تعكير سكون النهار الصيفي .

-اسحبه من خشمه، اسحبه انتظر سأدفعه أين تدس كل هذه القبضة؟ بإصبعك لا بقبضتك يا بهيم تعال من الجنب من الشمال ادخل، من الشمال، في اليمين حفرة، حاسب وإلا تعشى بك عفريت الماء اسحبه من شفته .

وتسمع فرقعة سوط وعلى الشاطئ المنبسط يسير قطيع نحو المورد في كسل، يسوقه الراعي يفيم يسير الراعي، هذا العجوز المتهالك ذو العين الواحدة والفم الملتوى، مطأطئ الرأس ينظر تحت أقدامه وتصل إلى النهر الشياه أولا، ثم تتبعها الخيول، ومن خلفها البقر ويسمع الراعى صوت لوبيم ادفعه من تحت مرر إصبعك هل أنت أطرش؟ فيصيح يفيم :

-ماذا تطاردون يا إخوان؟ بربوطا لا نستطيع إخراجه انحشر تحت الجذر ادخل من الجنب ادخل، أدخل؟ .

ويزر يفيم عينه الواحدة محدقاً في الصيادين لحظة، ثم يخلع حذاءه اللابتى، ويلقي بالكيس عن كتفه، وينزع قميصه ولا يستطيع أن يصبر حتى يخلع سرواله فينزل به إلى الماء وهو يرسم علامة الصليب حذاء كان يصنع من لحاء الأشجار وينتعله فقراء الفلاحين فيما مضى في روسيا .

ويحافظ على توازنه بيديه النحيلتين السمراوين ويسير حوالي خمسين خطوة على القاع الطيني، ثم يمضي سابحاً ويصبح - :انتظروا يافتيان انتظروا لا تتعجلوا بإخراجه وإلا أفلت لا بد من المهارة .

وينضم يفيم إلى النجارين، وأخذ ثلاثتهم يتزاحمون في مكان واحد وهم يدفعون بعضهم بعضاً بالمرافق والركب ويزحرون ويسبون ، ويشرق لوبيم الأحدب بالماء فيجلجل في الجو سعال حاد متقلص ، ويسمع صياح ، من الشاطئ .

-أين الراعي؟ يفيم يا راع أين أنت؟ القطيع دخل البستان اطرده، اطرده من البستان اطرده أين هذا الشفى العجوز؟ .

وتسمع أصوات رجال، ثم صوت امرأة ويخرج من وراء سياج بستان السادة الإقطاعي أندريه أندريتش مرتدياً روباً من الحرير الفارسي وممسكاً بجريدة في يده وينظر مستفهماً نحو الأصوات الآتية من النهر، ثم يسرع الخطى نحو الحمام .

-ماذا هنا؟ من يصيح؟ - يسأل بصرامة وهو يرى من خلال أغصان الصفصاف رؤوس الصيادين الثلاثة المبللة - عم تبحثون هنا؟ .

ويتمتم يفيم دون أن يرفع رأسه : - سمكة نصطاد .

-ساريك كيف تصطاد القطيع دخل البستان وهو يصطاد السمك متى تنتهون من بناء الحمام أيها الشياطين؟ منذ يومين تعملان، فأين النتيجة؟ .

فيزحر جيراسيم :

سيكون جاهزاً الصيف طويل، ستتمكن من الاستحمام ياصاحب السعادة بررر، لا نستطيع إخراج البربوط من هنا دخل تحت الجذر وكأنما في جحر، لا وراء ولا قدام .

-بربوط؟ - يسأل السيد وعيناه تبرقان - إذن هيا أخرجوه بسرعة .

-فلتعطنا نصف روبل ونتركه لك بربرط كبير سمين كزوجة التاجر يساوى نصف روبل يا صاحب السعادة جزاء على تعبنا لا تعصره يا لوبيم لا تعصره وإلا هلك ارفعه من تحت ارفع الجذر إلى أعلى يا رجل أنت ما اسمك؟ إلى أعلى لا إلى أسفل أيها الشيطان لا تخبطا بأرجلكماوتمضي خمس دقائق، ثم عشر ولا يستطيع السيد أن يصبر أكثر، فيصبح ملتفتاً نحو الدار.

يا فاسيلى يا فاسكا نادوا فاسيلى ويأتي الحوذى فاسيلى ركضاً يمضغ شيئاً ما ويتنفس بصعوبة

فيأمره السيد :

-انزل إلى الماء ساعدهم في إخراج البربوط لا يستطيعون إخراج بربوط

وينزع فاسيلى ملابسه بسرعة وينزل إلى الماء ويتمتم :حالاً، حالاً أين البربوط ؟ حالاً في لمح البصر أذهب أنت يا يفيم لا مكان لعجوز مثلك هنا، لا تتدخل في أمر لا يخصك أين هنا البربوط؟ أنا حالاً ها هو ذا ارفعو أيديكم.

-شاطر صحيح بدونك لانعرف ارفعوا أيديكم قال طيب هيا أخرجه .

-وهل يمكن إخراجه هكذا؟ لا بد من شده من رأسه - ورأسه تحت الجذر يا لك من غبي؟ -كفى نباحاً وإلا أريتك يا وغد فيتمتم يفيم :

-في حضرة السيد تسب بهذه الكلمات لن تخرجوه يا جماعة انحشر هناك بمهارة .

-انتظروا، أنا قادم - يقول السيد ويبدأ في نزع ملابسه على عجل أربعة حمقى ولا يستطيعون إخراج بربوط .

وبعد أن ينزع أندريه أندريتش ملابسه، يقف قليلاً ليبرد جسمه، ثم ينزل إلى الماء ولكن تدخله لا يفيد بشيء وأخيرا يقول لوبيم :

-لا بد من قطع الجذر اذهب يا جيراسيم وأحضر الفأس هاتوا الفأس.

ويقول السيد عندما تتردد تحت الماء ضربات الفأس على الجذر: لا تقطع أصابعك امش يا يفيم من هنا انتظروا، أنا الذي سأخرج البربوط أنتم لستم مهرة .

وها هو ذا الجذر قد اجتث إلى نصفه ويكسرونه قليلاً، ويشعر أندريه أندريتش، بسرور بالغ أن أصابعه تدخل في خياشيم البربوط .

-إنني أشده يا جماعة لا تتزاحموا قفوا أنا أسحبه ويظهر فوق صفحة الماء رأس بربوط كبير، ثم جسمه الأسود بطول ذراع ويحرك البربوط ذيله بصعوبة محاولاً أن يتملص .

-دعك من هذا يا أخي لا يمكن أن تفلت وقعت؟ هكذا وترتسم على الوجوه كلها ابتسامة عسلية وتمر دقيقة في تأمل صامت ويتمتم يفيم وهو يحك صدره - : بربوط عظيم حوالي عشرة أرطال فيقول السيد موافقان نعم انظر إلى كبده كم هي ممتلئة تكاد تقفز من داخله آه .

وفجأة يأتي البربوط بحركة حادة مباغتة بذيله إلى أعلى، ويسمع الصيادون صوت ارتطام شديد بالماء ويمد الجميع أيديهم، ولكن بعد فوات الأوان إذ لم يعد للبربوط أثر .

الصياد

قيلولة قائظة خانقة ولا سحابة في السماء والعشب الذي أحرقته الشمس يبدو كئيباً بائساً: فحتى لو سقط المطر فلن تعود إليه الخضرة والغابة تقف بأشجارها صامتة، جامدة، وكأنما تحدق ذؤاباتها في نقطة ما، أو تنتظر حدوث شيء وعلى حافة الغابة يسير رجل طويل القامة، ضيق المنكبين، في حوالى الأربعين من عمره، في قميص أحمر وبنطال مرقع من بناطيل سيده ، وحذاء طويل كبير يسير على الطريق في كسل وبخطوة متراخية وعن يمينه تلوح الغابة الخضراء، وعن يساره وحتى الأفق يمتد بحر ذهبي من الحنطة الناضجة والرجل أحمر الوجه، عرقان وعلى قفاه الأشقر الجميل تستقر عمرة بيضاء بمقدمة مستطيلة كمقدمات عمرات الجوكية، والظاهر أنها هدية من أحد السادة أهداها له في لحظة كرم حاتمى ومن كتفه يتدلى كيس صيد يرقد فيه محشوراً ديك برى ويمسك الرجل في يديه ببندقية بماسورتين مرفوعة الزناد، ويزر عينيه محدقاً في كلبه العجوز الهزيل الذي يركض أمامه ويتشمم الأحراش والسكون من حوله مطبق ، لا يعكره صوت لقد اختبأ من الحر كل ما هو حي .

وفجأة يسمع الصياد صوتاً خافتاً :يجور فلاسيتش؟ فينتفض، ويلتفت خلفه، ثم يقطب حاجبيه وبجواره، وكأنما انشقت عنها الأرض، تقف امرأة شاحبة الوجه، في حوالي الثلاثين، ممسكة منجل في يدها

وتحاول أن تحدق في وجهه ، وتبتسم بخجل فيقول الصياد متوقفاً وهو ينزل الزناد ببطء - :آه ، أهو أنت يا بيلاجيا هم كيف جئت إلى هنا؟ هنا تعمل نساء من قريتنا، وأنا معهن عاملات يا يجور فلاسيتش طيب - يهمهم يجور فلاسيتش، ثم يواصل سيره ببطء وتتبعه بيلاجيا يسيران في صمت حوالي عشرين خطوة .

-لم أرك من مدة طويلة يا يجور فلاسيتش تقول بيلاجيا وهي تتطلع بحنان إلى كتفى الصياد المتحركتين وظهره - من يوم أن دخلت البيت في عيد الفصح لتشرب ماء، من يومها لم نرك في عيد الفصح جئتنا لدقيقة وفوق ذلك كنت في حالة سكر شتمتنى وضربتنى وانصرفت وما أكثر ما انتظرتك كل بصري من النظر وأنا أنتظرك إيه با يجور فلاسيتش طل على ولو مرة.

وما الذي أفعله عندك؟ .

صحيح ليس هناك ما تفعله عندك حق ومع ذلك فهناك البيت وأموره تعال انظر فأنت السيد آه، اصطدت ديكا يا يجور فلاسيتش ألا تجلس لتستريح قليلاً .

تقول بيلاجيا ذلك وهي تضحك كالبلهاء وتتطلع إلى أعلى، إلى وجه يجور وينضح وجهها بالسعادة أجلس؟ ممكن - يقول يجور بنبرة لامبالية، ويختار موضعاً بين شجرتى شوح - ما لك واقفة؟ اجلسي أنت أيضاً .

وتجلس بيلاجيا على مسافة منه تحت الشمس اللافحة وتخفي بيدها فمها المبتسم وهي تخجل من فرحتها وتمر دقيقتان من الصمت .

ثم تقول بيلاجيا بصوت خافت :طل علينا ولو مرة فيتنهد يجور وينزع عمرته ، ويمسح بكمه جبينه الأحمر ويقول :

-وما الداعي؟ لا حاجة إلى ذلك البتة إذا جئت لساعة أو ساعتين فهذا تعب لا طائل منه سأثيرك فقط أما الإقامة الدائمة في القرية فلا تطبقها روحي أنت تعرفين أنني رجل مدلل يلزمني أن أنام على سرير، وأتناول شاياً جيداً، وبحاجة إلى أحاديث مهذبة أنا بحاجة إلى كل وسائل الرفاهية فماذا لديك في قريتك غير الفقر والهباب لن أتحمل يوماً واحداً ولو صدر إلى، مثلاً، أمر يحتم على العيش عندك لأحرقت الدار أو انتحرت أنا مدلل من صغرى، ولا حيلة لي في الأمر وأين تعيش الآن؟ .

-عند السيد ديمتري إيفانيتش، أعمل صياداً أقدم الطيور البرية لمائدته ولكنه عموماً يستبقيني للمتعة .

-هذا العمل لا يليق بمقامك يا بجور فلاسيتش الناس تنظر إليه كالهر، بينما تعتبره أنت حرفة تراه عملاً حقيقياً .

فيقول يجور وهو يتطلع إلى السماء حالماً :

أنت لا تفهمين ذلك يا غبية لم تفهمى ولن تفهمي أبداً أي رجل أنا أنا في رأيك رجل طائش، ضال، أما الذين يفهمون فأنا بالنسبة لهم أحسن قناص في الناحية السادة بدركون ذلك، بل وكتبت عني إحدى المجلات لا يوجد ند لي في مجال الصيد أما كوني أحتقر مهنتكم الفلاحية فليس ذلك لأني مدلل أو متكبر إنك تعرفين، أنني منذ صغرى لم أعرف عملاً غير البندقية والكلاب ولو أخذوا مني البندقية لأمسكت بالسنارة، ولو أخذوا السنارة فسأصطاد بيدى وكنت أكسب أيضاً من الخيل، كنت أطوف بالأسواق عندما يكون معي نقود وأنت تعرفين أن الفلاح إذا ما وهب نفسه للصيد أو للخيل فعلى المحراث السلام وإذا تقمصت الإنسان روح الحرية فلن يستطيع أحد إخراجها منه وأيضاً إذا وهب أحد السادة نفسه للتمثيل أو أي نوع آخر من الفنون، فلن يصبح أبداً موظفاً أو إقطاعياً أنت يا امرأة لا تفهمين، وهذا شيء يتطلب الفهم أنا فاهمة يا يجور فلاسيتش - معنى ذلك أنك لا تفهمين طالما تشرعين في البكاء أنا أنا لا أبكى تقول بيلاجيا مستديرة عنه بوجهها حرام يا يجور فلاسيتش ابق ولو يوماً واحداً معي أنا التعيسة اثنتا عشرة سنة مرت منذ أن تزوجتك ولم يكن بيننا حب ولا مرة واحدة أنا أنا لا أبكى ويدمدم بجور وهو يحك ذراعه :

حب لا يمكن أن يكون بيننا أي حب أنا وأنت متزوجان بالاسم فقط، فهل فعلاً نحن كذلك؟ أنا بالنسبة لك رجل متوحش، وأنت بالنسبة لى امرأة بسيطة لا تفهم هل نحن زوجان؟ أنا رجل حر، مدلل، جوال، وأنت كادحة، فلاحة، تعيشين في القذارة، محنية الظهر دائما أنا أعتبر نفسي في الصيد أول الجميع، أما أنت فتنظرين إلى بإشفاق فهل نحن زوجان؟ .

فتقول بيلاجيا وهي تشهق بالبكاء- :ولكننا متزوجان يا يجور فلاسيتش

متزوجان بالإكراه هل نسيت؟ اشكرى الكونت سرجى بافليتش على ذلك ونفسك فبسبب الغيرة من أني أرمي أحسن منه ظل الكونت يسقيني الخمر شهراً كاملاً ليسكرني، ومن الممكن دفع السكران لا إلى الزواج فحسب بل وإلى اعتناق دين آخر وهكذا أراد أن ينتقم منى فزوجني منك وأنا سكران زوج الصياد المحترف براعية ماشية كنت تعرفين أنني سكران فلماذا قبلت؟ أنت لست عبدة، وكنت تستطيعين أن ترفضى طبعاً زواج مربية الماشية بصياد محترف شيء مشرف، ولكن كان ينبغي أن يكون لديك نظر حسناً، تعذبي الآن وابكى الكونت يضحك وأنت تبكين اضربي الحائط برأسك .

وتحل لحظة صمت وتطير فوق طرف الغابة ثلاث بطات برية ويتطلع يجور إليها ويتابعها بنظره إلى أن تصبح ثلاث نقاط لا تكاد ترى وتهبط بعيداً وراء الغابة ثم يحول نظره عن البطات إلى بيلاجيا ويسألها - :ويم تعيشين؟.

-الآن أخرج للعمل، أما في الشتاء فأخذ طفلاً من الملجأ وأطعمه بالبزازة ويعطونني روبلاً ونصف في الشهر .

-هكذا ويعود الصمت من جديد وتتناهي من الشريط المحصود أغنية تنقطع في بدايتها فالحر لا يدع مجالاً للغناء .

ثم تقول بيلاجيا - :يقولون إنك بنيت لأكولينا بيتاً جديداً ويصمت يجور - إذن فقلبك يميل إليها

فيقول الصياد وهو يتمطى :

-هذا هو حظك ، وتلك سعادتك اصبرى يا يتيمة طيب ، وداعاً أطلت في الكلام ينبغي أن أكون مساء في بولتوفو وينهض يجور، ويتمطى، ويتقلد البندقية وتنهض بيلاجيا وتسأل بصوت خافت - :ومتى ستأتي إلى القرية؟.

-لا داعي لن أتى أبداً وأنا مفيق، أما وأنا سكران فلا فائدة مني لك .

عندما أكون سكران أصبح غضوباً وداعاً .

-وداعاً يا يجور فلاسيتش .

ويضع يجور العمرة على مؤخرة رأسه ويدعو الكلب بمصة من شفتيه ويواصل طريقه وتقف بيلاجيا في مكانها تشيعه بنظراتها وترى عظام ظهره المتحركة وقفاه الفتى وخطوته البطيئة اللامبالية فتمتلئ عيناها بالحزن والرقة الحانية وتطوف نظرتها بقوام زوجها النحيل الطويل وتلاطفه وتهدهده وكأنما يحس هو بهذه النظرة فيتوقف ويلتفت يقف صامتا، ولكن بيلاجيا تشعر من وجهه وكتفيه المرتفعتين أنه يريد أن يقول لها شيئاً ما فتقترب منه بوجل وتحدق فيه بعينين ضارعتين فيقول لها وهو يستدير :

خذي ويمد لها روبلاً مجعداً وينصرف بسرعة وتأخذ منه الروبل آلياً وهي تقول :الوداع يا يجور فلاسيتش .

ويسير في طريق طويل مستقيم كالحزام المشدود وتقف هي شاحبة جامدة كالتمثال، وتلتهم بعينها كل خطوة من خطواته ها هو ذا لون قميصه الأحمر يندمج بلون سرواله الغامق، ولا تبين خطواته ، ولا تميز الكلب عن حذائه لا ترى سوى العمرة فقط، ولكن ينعطف يجور فجأة يميناً إلى الغابة فتختفى العمرة في الخضرة .

-الوداع يا يجور فلاسيتش تهمس بيلاجيا وتشب على أطراف أصابعها كى ترى ولو مرة أخرى العمرة البيضاء.

في البيت الريفي

أنا أحبك أنت حياتى، سعادتى، كل ما أملك اغفر لي اعترافى، ولكني لا أقوى على العذاب في صمت أنا لا أرجو منك المشاركة، بل العطف تعال اليوم في الساعة الثامنة مساء إلى العريشة القديمة لا أرى لزوماً للتوقيع باسمي، لكن لا تخش من رسالة مجهولة، أنا شابة ، وسيمة فماذا تريد أيضاً.

قرأ المصطاف بافل إيفانيتش فيخودتسيف، وهو رجل متزوج، مستقيم، هذه الرسالة ثم هز كتفيه، وحك جبينه في استغراب وقال في نفسه ما هذا بحق الشيطان؟ أنا رجل متزوج، وفجأة أتلقى هذه الرسالة الغريبة الحمقاء ترى من كاتبها؟ .

قلب بافل إيفانيتش الرسالة أمام عينيه، ثم قرأها ثانية، وبصق وقال في نفسه مقلداً عبارة الرسالة في سخرية : أنا أحبك تظن أنها وجدت صبياً إذن فسوف أجرى ركضاً لألقاك في العريشة إننى يا سيدتي نسيت من زمان هذه القصص الغرامية وكل هذه الفلور دامور هم لا بد أنها امرأة طائشة منحرفة آه من هؤلاء النساء أية العرب أستغفر الله ينبغي أن تكون لكي تكتب رسالة كهذه إلى رجل غريب، وفوق ذلك متزوج انحلال ما بعده انحلال .

خلال ثماني سنوات من الحياة الزوجية نسي بافل إيفانيتش المشاعر الرقيقة، ولم يكن يتلقى أية رسائل، اللهم إلا بطاقات التهنئة

ولذلك فرغم محاولته التظاهر بالرصانة أمام نفسه، إلا أن الرسالة المذكورة أربكته بشدة وأثارته وبعد ساعة من تسلمها رقد على الكنبة وهو يفكر :بالطبع أنا لست صبياً ولن أجرى إلى هذا الراندى فو الأحمق، ولكن من الطريف أن أعرف : ترى من كتبها؟ هم الخط حريمي بلا شك والرسالة مكتوبة بصدق وحرارة، ومن ثم يستبعد أن تكون نكتة ربما كانت امرأة مضطربة عقلياً أو أرملة الأرامل عموماً رعناوات وشاذات هم ولكن يا ترى من تكون؟.

زاد من صعوبة حل هذه المسألة أنه لم يكن لدي بافل إيفانيتش في البلدة الريفية كلها من المعارف النسائية سوى زوجته وفكر مستغربا :غريبة أنا أحبك متى تمكنت من حبي؟ امرأة مدهشة هكذا أحبت، بلا مقدمات، حتى دون أن تتعرف بي أو تعرف أي رجل أنا يبدو أنها صبية جداً ورومانسية إذا كان في وسعها أن تعشق من نظرتين أو ثلاث ولكن من هي؟.

وفجأة تذكر بافل إيفانيتش أنه بالأمس، وأول أمس أيضاً، عندما كان يتنزه في ميدان البلدة، التقى عدة مرات بشقراء شابة ، كانت تختلس إليه النظر بين الحين والحين، وعندما جلس على الأريكة، جلست بالقرب منه .

وفكر فيخودتسيف: هي؟ غير معقول وهل يمكن لمخلوق رهيف، نوراني أن يحب قرموطاً عجوزاً سقيماً مثلي؟ لا، هذا مستحيل وأثناء الغداء حدق بافل إيفانيتش في زوجته ببلاده وهو يفكر :إنها تكتب أنها شابة ووسيمة

إذن فليست عجوزا هم لو أردنا الصدق، وبصراحة، فأنا لست عجوزاً ودميما إلى حد يمنع من الوقوع في غرامي أليست زوجتي تحبني؟ وفضلاً عن ذلك فالحب أعمى، والقرد في عين أمه غزال .

وسألته زوجته :فيم تفكر؟ فكذب قائلاً - :أبداً لا شيء يبدو عندي صداع.

وقرر أنه من الغباء أن يعير اهتماماً لشيء تافه كهذه الرسالة الغرامية، وسخر منها ومن كاتبتها، ولكن يا للأسف ما أقوى الشيطان الوسواس وبعد الغداء تمدد بافل إيفانيتش على سريره، وبدلاً من أن ينام أخذ يفكر :

ولكنها، في الغالب، تؤمل في مجيئي يا لها من حمقاء نعم .

أتخيل كيف ستنفعل وترتعش أردافها المستعارة عندما لا تجدني في العريشة ولكني لن أذهب مالي وما لها ولكن، أكرر، ما أقوى الشيطان الوسواس فبعد نصف ساعة فكر المصطاف: ولكن ماذا لو ذهبت هكذا حب استطلاع أذهب وأنظر من بعيد لأعرف من هي من الطريف فعلاً لو ألقي نظرة شيء مضحك لا أكثر بالفعل لماذا لا أضحك قليلاً إذا كانت هناك فرصة لذلك؟ .

ونهض بافل إيفانيتش من سريره وبدأ يرتدي ثيابه .

-إلى أين تتأنق هكذا؟ - سألته زوجته وقد لاحظت أنه يرتدي قميصاً نظيفاً ورابطة عنق حديثة .

-أبداً أريد أن أتنزه قليلاً يبدو عندي صداع هم . تأنق بافل إيفانيتش، وانتظر بداية الساعة الثامنة، وخرج من البيت ودق قلبه عندما لاحت لناظريه على خلفية خضراء ساطعة غمرها ضوء الشمس الغاربة جموع المصطافين والمصطافات الأنيقة .

وفكر وهو يختلس النظر بخجل إلى وجوه المصطافات ترى من منهن؟ ولكني لا أرى الشقراء هم إذا كانت هي صاحبة الرسالة ، فإذن هي الآن جالسة في العريشة.

ودلف فيخودتسيف إلى ممر بين الأشجار بدت في نهايته العريشة القديمة من خلف أوراق أشجار الزيزفون الباسقة ومضى نحوها على مهل .

وفكر وهو يتقدم مترددًا :سأطل من بعيد مالى أخاف؟ أنا لست ذاهباً إلى راندى فو يالى من أحمق أقدم بجرأة وماذا لو دخلت العريشة؟ لا، لا لا داعى .

وازدادت دقات قلب بافل إيفانيتش وعلى الرغم منه، تخيل لا إرادياً عتمة العريشة وومضت في خياله الشقراء الرشيقة في فستان أزرق فاتح، وبأنف أقنى وتصور كيف تقترب منه بوجل، وهي تخجل من حبها، وبدنها كله يرتعش، وأنفاسها تتردد بحرارة و وفجأة تطوقه بذراعيها في عناق عنيف.

وفكر وهو يطرد من رأسة الأفكار الحرام: لو لم أكن متزوجاً لهان الأمر وعموماً لا مانع أن تجرب ذلك مرة في العمر، وإلا فقد تموت دون أن تدري ما هذا وزوجتي حسناً، ماذا سيحدث لها؟ الحمد لله لم أبتعد عنها خطوة واحدة طوال ثماني سنوات ثماني سنوات من الخدمة المثالية يكفيها هذا شيء محنق طيب، ماذا لو خنتها نكاية بها .

اقترب بافل إيفانيتش مرتعش البدن مبهور الأنفاس من العريشة المغلفة بأغصان الكروم البرية، وأطل داخلها وهبت عليه رطوبة وروائح عطنة وفكر وهو يدخل العريشة :يبدو ليس هناك أحد، وعلى الفور رأى شبحا بشريا في ركن العريشة كان شبح رجل وعندما حدق بافل إيفانيتش وعرف فيه شقيق زوجته ، الطالب ميتيا، الذي يعيش عندهم في البيت الريفي ودمدم بصوت ساخر: آه أهو أنت؟، ونزع قبعته وجلس فأجاب مينيا: - نعم أنا مرت دقيقتان في صمت ثم قال ميتيا :اعذرنى يا بافل إفانيتش إذا رجوتك أن تتركني بمفردي إنني أفكر في موضوع رسالة علمية وجود أي شخص هنا يشوش على فقال بافل ايفانيتش بدعة :

فلتذهب إلى الممر المظلم في الهواء الطلق يسهل التفكير، ثم إنه يعنى أريد أن أنام قليلاً على هذه الأريكة الجو هنا ليس حاراً فدمدم ميتيا بسخط أنت تريد أن تنام وأنا أريد أن أفكر في الرسالة الرسالة أهم وحل الصمت من جديد وإذا ببافل إيفانيتش، الذي ترك لخياله العنان وأصبح يسمع بين الحين والحين وقع خطوات، يقفز فجأة ويقول بصوت باك

-إنني أرجوك يا ميتيا أنت أصغر منى وينبغي أن تستجيب لرجائى إني مريض وأريد أن أنام اذهب .

-هذه أنانية لماذا ينبغي أن تبقى أنت لا أنا؟ لن أذهب هذه مسألة مبدأ .

-أرجوك فلأكن أنانياً، طاغية، أحمق إنني أرجوك مرة في حياتى أرجوك استجب؟ فهز متينا رأسه سلباً .

وفكر بافل إيفانيتش: يا له من وغد لن يتم الراندى فو في حضوره مستحيل في حضوره .

-اسمع يا ميتيا، أرجوك آخر مرة برهن على أنك إنسان ذكى، عطوف ومثقف .

فهز ميتيا كتفيه :

-أنا لا أفهم إلحاحك على قلت لك لن أذهب يعنى لن أذهب سأبقى هنا كمبدأ .

وفي تلك اللحظة أطل في العريشة فجأة وجه نسائى ذو أنف أقنى وعندما رأى الوجه ميتيا وبافل إيفانيتش عبس واختفى وفكر بافل إيفانيتش وهو ينظر إلى مينيا بحقد :ذهبت رأت هذا الوغد فذهبت ضاع كل شيء.

وانتظر فيخودتسيف قليلا ثم نهض وارتدي قبعته وقال :

-أنت حيوان، وغد، سافل نعم حيوان هذه خسة وحماقة كل شيء بيننا انتهى فدمدم ميتيا وهو ينهض أيضاً ويرتدي قبعته :

-سعيد جدا أتعرف أنك بحضورك الآن ارتكبت في حقى عملاً دنيئاً لن أغفره لك طول العمر .

وخرج بافل إيفانيتش من العريشة وقد أعماه الغضب، ومضى نحو بيته الصيفي بخطوات سريعة ولم يهدىء ثائرته حتى منظر المائدة المعدة للعشاء.

قال في نفسه منفعلاً: مرة في حياتي تتاح لي هذه الفرصة فيفسدونها على إنها الآن تشعر بالإهانة إنها محطمة .

وأثناء العشاء دفن بافل إيفانيتش وميتيا وجهيهما في الأطباق وصمتا مكفهرين كانا يمقتان بعضهما البعض من صميم قلبيهما .

وهاجم بافل إيفانيتش زوجته : ما لك تبتسمين؟ الحمقاوات وحدهن يبتسمن بلاسبب فنظرت الزوجة إلى وجه زوجها الغاضب وانفلتت منها ضحكة وسألته :ما هذه الرسالة التي تسلمتها صباح اليوم؟ فارتبك بافل إيفانيتش - :أنا؟ لم أتسلم أيه رسالة أنت تختلقين هذه تهيؤات .

-دعك من المراوغة اعترف بأنك تسلمتها هذه الرسالة أنا التي أرسلتها أقسم لك ها ها .

تضجر بافل إيفانيتش وانحنى فوق الطبق ودمدم - :مزاح سخيف - وماذا أفعل كان ينبغي أن نغسل الأرضية اليوم فكيف نطردكما من البيت؟ بهذه الطريقة فقط لا تغضب منى ، يا عزيزى ولكي لا تشعر بالملل في العريشة أرسلت لميتيا رسالة مماثلة هل كنت في العريشة يا ميتيا؟ .

ضحك ميتيا ضحكة قصيرة، ولم يعد ينظر إلى غريمه بحقد .

توافه الحياة

توجه نيقولاي إيليتش بلياف، أحد أصحاب العقارات في بطرسبرج، ومن المترددين كثيراً على سباق الخيل، وهو رجل شاب، في حوالي الثانية والثلاثين، ممتلئ الجسم، وردي البشرة، توجه ذات مساء إلى السيدة أولجا إيفانوفنا إيرنينا التي كان يعاشرها، أو التي كانت له معها، على حد تعبيره، قصة طويلة مملة وبالفعل، فالصفحات الأولى من هذه القصة، تلك الصفحات التي كانت شيقة ملهمة، قد فرغ من قراءتها منذ أمد بعيد، وامتدت الصفحات الآن ببطء، خالية من أي شيء جديد أو شيق وعندما لم يجد بطلنا أولجا إيفانوفنا في البيت، استلقي على أريكة في غرفة الجلوس، وشرع ينتظرها وسمع صوتاً طفولياً يقول :

-مساء الخير يا نيقولاي إيليتش ماما ستعود قريبا لقد ذهبت مع سونيا إلى الخياطة في غرفة الجلوس ذاتها استلقي على الكنبة أليوشا ابن أولجا إيفانوفنا وهو صبي في حوالي الثامنة، رشيق، معتني به، يرتدي سترة مخملية وجوربا طويلاً من التريكو الأسود حسب أحدث موضة كان راقداً على وسادة من الحرير الأطلسي، ويبدو أنه كان يقلد لاعب الأكروبات الذي رآه مؤخراً في السيرك، فقد كان يرفع عالياً ساقيه بالتناوب وعندما تتعب ساقاه الرشيقتان، يطلق العنان ليديه ، أو يقفز بحدة ويجثم على أربع محاولاً أن يقف على يديه وكان يفعل ذلك كله بوجه في غاية الجدية

وهو يزحر بمعاناة ، وكأنما كان هو نفسه غير راض إذ وهبه الله هذا الجسد القلق .

فقال بليايف - :آه ، مرحباً يا صديقي أهو أنت؟ لم ألاحظ وجودك هل ماما بصحة طيبة؟ .

تشقلب أليوشا، الذي أمسك بمشط قدمه اليسرى بيده اليمنى واتخذ وضعاً غير عادي تماماً، ثم قفز واقفاً، وأطل على بليايف من خلف أباجورة كبيرة منتفخة وقال وهو يهز كتفيه :

-ماذا أقول لك؟ ماما في الواقع لا تشعر بنفسها في صحة طيبة أبدا فهي امرأة، والمرأة، يا نيقولاي إيليتش، لديها دائماً شيء ما مريض .

ولما لم يكن لدى بلايف ما يفعله، فقد أخذ يتأمل وجه أليوشا فطوال فترة معرفته بأولجا إيفانوفنا لم يعر الصبى أدنى اهتمام، ولم يلاحظ وجوده أبداً مجرد صبي يلوح لناظريه، أما ما سبب وجوده هنا، وأي دور يؤديه، فهذا ما لم يشأ، لأمر ما، أن يفكر فيه .

وفي عتمة الغسق ذكره وجه أليوشا ذو الجبين الشاحب والعينين السوداوين غير البراقتين، ذكره على غير توقع بأولجا إيفانوفنا عندما كانت في أولى صفحات القصة فأحس برغبة في ملاطفة الصبي

فقال له : تعال هنا يا صغير دعني أنظر إليك عن قرب وقفز الصبي من فوق الكنبة وركض إلى بلبايف ووضع نيقولاي إيليتش يده على كتف الصبي النحيلة وقال :حسناً؟ ماذا؟ كيف الحال ؟ -ماذا أقول لك؟ كان الحال في السابق أفضل بكثير - لماذا؟

-بسيطة جداً في السابق كنت أنا وسونيا ندرس الموسيقى والقراءة فقط ، أما الآن فعلينا أن نحفظ أشعاراً بالفرنسية أنت حلقت منذ وقت قريب.

-نعم، منذ وقت قريب .

لقد لاحظت ذلك أصبحت لحيتك أقصر اسمحي لي أن ألمسها ألا يؤلمك؟.

-كلا، لا يؤلمني .

وما السبب أنك عندما تشد شعرة واحدة تشعر بالألم وعندما تشد شعراً كثيراً لا تشعر أبدا بأي ألم؟ ها - ها أتدرى، خسارة أنك لا تطلق سوالفك لو حلقت هنا قليلاً، أما هنا، من الجنبين، فتترك الشعر والتصق الصبي ببلبايف وراح يعبث بسلسلته وقال :

-عندما أدخل المدرسة ستشتري لي ماما ساعة وسأطلب منها أن تشتري لي سلسلة مثل هذه أوه، يا لها من مدلاة بابا عنده مدلاة مثلها بالضبط، ولكن عندك هنا خطوط أما هو فعنده حروف وفي الوسط عنده صورة ماما أصبح لدي بابا الآن سلسلة أخرى، ليست حلقات ، بل شريطاً .

-ومن أين عرفت؟ هل تقابل بابا؟ -أنا؟مم لا أنا لا أحمر اليوشا وأخذ يخدش المدلاة بظفرة باهتمام وهو في ارتباك شديد .

من اكتشاف كذبه وحدق بليايف في وجهه ملياً ثم سأله :

-هل تقابل بابا؟ لا .

-لا، خبرني بصراحة فأنا أرى من وجهك أنك تكذب مادمت قد ثرثرت فلا داعي إذن للمراوغة قل، هل تراه؟ خبرني كأصدقاء .

واستغرق ألبوشا في التفكير ثم سأل :ألن تقول لماما؟ وهل هذا معقول كلمة شرف؟ - كلمة شرف - أقسم - أوه يا لك من صعب من تظنني؟ تلفت أليوشا حواليه، واتسعت عيناه وقال هامسا :

-لكن أستحلفك ألا تقول لماما وعموماً لا تقل لأحد لأنه سر لو عرفت ماما، لا قدر الله، فسيحل العقاب بى وبسونيا وببيلاجيا حسناً، اسمع أنا وسونيا نقابل بابا كل ثلاثاء وجمعة، عندما تصحبنا بيلاجيا للتنزه قبل الغداء، نذهب إلى محل حلوى أبفل، وهناك يكون بابا في انتظارنا وهو دائماً يجلس في غرفة مستقلة، أتدرى، تلك الغرفة التي بها طاولة مرمرية وطفاية على شكل أوزة بدون ظهر

-وماذا تفعلون هناك؟ .

لا شيء في البداية نتبادل التحية، ثم نجلس جميعاً إلى الطاولة ويضيفنا بابا قهوة وشطائر أتدرى، سونيا تأكل الشطائر باللحم، أما أنا فلا أطيق شطائر اللحم أنا أحب الشطائر بالكرنب والبيض ونأكل حتى الشبع، إلى درجة أننا فيما بعد، أثناء الغداء، نحاول أن نأكل أكثر حتى لا تلاحظ ماما أننا سبق أن أكلنا .

-وعم تتحدثون هناك؟ .

-مع بابا؟ عن كل شيء وهو يقبلنا ويعانقنا، ويروى لنا مختلف النكات والحوادث المضحكة أتدرى، إنه يقول إننا عندما نكبر فسوف يأخذنا إليه وسونيا لا تريد، أما أنا فموافق بالطبع سأشتاق إلى ماما، ولكني سأكتب لها رسائل شيء غريب سيكون بإمكاني أن أزورها في الأعياد، أليس كذلك؟ ويقول بابا أيضا إنه سيشتري لي حصاناً شخص طيب جداً أنا لا أدري لماذا لا تدعوه ماما للعيش معنا وتحرم علينا مقابلته إنه يحب ماما جداً ودائماً يسألنا عن صحتها وعما تفعله وعندما كانت مريضة أمسك رأسه بيديه هكذا و أخذ يهرول ودائماً يطلب منا أن نطيعها ونحترمها اسمع، هل صحيح أننا تعساء؟.

هم ولماذا؟ .

- بابا يقول هذا يقول: أنتم أطفال تعساء غريب أن تسمع منه هذا الكلام يقول: أنتم تعساء، وأنا تعيس، وماما تعيسة صلوا لله من أجلكم ومن أجلها وتوقفت نظرة أليوشا على طائر محنط واستغرق في التفكير وقال بلياف بصوت كالحوار هكذا إذن فأنتم تعقدون المؤتمرات في محلات الحلوى وماما لا تعرف؟ .

لا ومن أين تعرف بيلاجيا لا يمكن أن تقول لها وأول أمس ضيفنا بابا كمثري حلوة كالمربي أنا أكلت اثنتين هم وهذا اسمع، وبابا لا يقول عني شيئاً؟ .

-عنك؟ ماذا أقول لك؟ حدق اليوشا في وجه بلبايف متفحصاً ثم هز كتفيه -لا يقول شيئاً ذا بال - وتقريباً، ماذا يقول؟ -ألن تغضب؟ -هل هذا معقول أهو يسبني؟ .

-لا يسبك، ولكن، أتدري غاضب عليك يقول إن ماما تعيسة بسببك، وإنك قضيت عليها إنه كما تعلم غريب إنني أحاول أن أفهمه أنك طيب، ولا تصرخ في ماما أبداً، ولكنه فقط يهز رأسه .

-إذن فهو يقول إنني قضيت عليها؟ -نعم، لا تغضب يا نيقولاي إيليتش؟ نهض بلبايف، ووقف قليلاً، ثم أخذ يذرع غرفة الجلوس ودمدم وهو يهز كتفيه ويبتسم بسخرية هذا غريب و مضحك هو المذنب في كل شيء ومع ذلك فأنا الذي قضيت عليها، هه؟ انظروا، يا له من حمل وديع إذن فقد قال لك إنني قضيت على أمك؟ .

-نعم، ولكن لقد قلت إنك لن تغضب .

-أنا لست غاضباً وليس هذا شأنك ؟ لا، هذا إن هذا مضحك أنا الذي وقعت في مطب ، ثم إذا بي أنا المذنب ودق جرس الباب فوثب الصبي من مكانه وانطلق خارجاً

وبعد دقيقة دخلت غرفة الجلوس سيدة ومعها طفلة صغيرة كانت تلك أولجا إيفانوفنا، والدة أليوشا وتبعها أليوشا وهو يقفز ويغني بصوت عال ويهز ذراعيه وأومأ بلبايف برأسه محيياً، ثم واصل سيره في الغرفة ودمدم وهو يزفر :طبعا، من غيرى الآن يمكن توجيه الاتهام إليه؟ إنه محق إنه زوج مهان.

فسألت أولجا إيفانوفنا - :عم تتحدث؟ .

عم؟ إذن فلتسمعي المواعظ التي يلقيها زوجك الموقر لقد ظهر أنني وغد وشرير، قضيت عليك وعلى الأولاد كلكم تعساء، وأنا السعيد الوحيد سعيد إلى درجة فظيعة ، فظيعة .

-أنا لا أفهم يا نيقولاي عم تتحدث فقال بلايف مشيراً إلى ألبوشا: - فلتسمعي إذن هذا السنيور الصغير احمر اليوشا، ثم امتقع فجأة، وتقلص وجهه كله من الفزع وهمس بصوت عال - :نيقولاي إيليتش هس.

ونظرت أولجا إيفانوفنا بدهشة إلى أليوشا، ثم إلى بلايف، ثم إلى اليوشا مرة أخرى واستطرد بلبايف يقول :

-هيا اسأليه خادمتك بيلاجيا، هذه الحمقاء، تتردد على محلات الحلوى وترتب اللقاءات هناك مع الوالد المحترم ولكن ليست هذه القضية، القضية هي أن الوالد المحترم ضحية ، أما أنا فشرير، سافل، حطمت حياتكم فتأوه ألبوشا

-نيقولاي إيليتش لقد أعطيتني كلمة شرف فأشاح بليايف بيده :

-إيه، دعني الأمر الآن أهم من أية كلمات شرف ما يثير سخطى هوالرياء، الكذب.

فقالت أولجا إيفانوفنا وقد ترقرقت الدموع في عينيها :- أنا لا أفهم وخاطبت ابنها : - اسمع يا لولكا، هل تقابل أباك؟ بيد أن أليوشا لم يكن يصغى إليها بل كان يحدق في بليايف بارتياع وقالت الأم: مستحيل سأذهب إلى بيلاجيا وأستجوبها وخرجت أولجا إيفانوفنا فقال أليوشا وبدنه كله يرتجف :
-اسمع، ألم تعطنى كلمة شرف .

فأشاح بليايف نحوه بيده ومضى يذرع الغرفة كان مستغرقاً في غضبه ولم يعد يلاحظ وجود الصبي كما في السابق لقد كان وهو الرجل الجاد الكبير في شغل عن الصبيان أما اليوشا فقد انزوي في الركن، وأخذ يروى لسونيا بارتياع كيف خدع كان يرتجف ويتلجلج، ويبكى، كانت تلك أول مرة في حياته يصطدم بالكذب وجهاً لوجه، وبهذه الفظاظة لم يكن يعرف من قبل أنه يوجد في هذه الدنيا، بالإضافة إلى الكمثرى الحلوة والشطائر والساعات الثمينة، كثير من الأشياء الأخرى التي لا أسماء لها في لغة الأطفال .

الأعداء

في حوالي الساعة العاشرة من مساء مظلم في شهر سبتمبر توفي بالدفتيريا الابن الوحيد لدى الطبيب الريفي الدكتور كيريلوف، الطفل أندرية ذو الأعوام الستة وعندما جثت زوجة الدكتور على ركبيتها أمام سرير الصبي الميت وقد دهمتها أول نوبة يأس، دوى في المدخل بحدة رنين الجرس.

كان الخدم جميعاً قد صرفوا منذ الصباح بسبب الدفتيريا فذهب كيرى لوف ليفتح الباب بنفسه، كما هو، بدون سترة، في صديري مفكوك الأزرار ، ودون أن يمسح وجهه المبلل ويديه المبللتين اللتين كواهما حامض الكربوليك.

كان المدخل مظلماً فلم يميز في الشخص القادم سوى قامة متوسطة وملحفة بيضاء، ووجه كبير بالغ الشحوب إلى درجة بدا معها أن المدخل أضاء قليلاً بظهوره وسأل القادم بسرعة - :الدكتور موجود؟ فأجاب كير يلوف :أنا موجود ماذا تريدون؟ .

-آه ، أهو أنت؟ سعيد جداً - قال القادم بفرح وأخذ يبحث في الظلام عن يد الدكتور حتى وجدها فضغط عليها بقوة بين كفيه - سعيد جدا جداً إننا معارف أنا أبوجين تشرفت برؤيتكم صيفاً عند آل جنوتشيف سعيد جداً إذ وجدتك أتوسل إليك أن تأتي معي الآن زوجتى في حالة خطرة معي عربة .

بدا واضحاً من صوت القادم وحركاته أنه كان في حالة انفعال شديد كان يتكلم بسرعة وبصوت مرتعش وهو لا يكاد يقوى على كتم لهاثه ، وكأنه أفزعه حريق أو كلب مسعور، ولاحت في حديثه نبرة جبن غير مفتعلة وككل المذعورين والمذهولين كان يتكلم بجمل قصيرة حادة ويتفوه بكلمات زائدة كثيرة لا دخل لها إطلاقا بالموضوع ومضى يقول :

خشيت ألا أجدك تعذبت كثيرا وأنا في الطريق إليك أرجوك البس ثيابك وهيا بنا حدث ذلك هكذا :جاءنى بابتشينسكى، ألكسندر سيميونوفوفتش، أنت تعرفه وتحدثنا ثم جلسنا نشرب الشاي وفجأة صرخت زوجتي، وأمسكت بقلبها وسقطت على ظهر الكرسي وحملناها إلى الفراش و دلكت صدغيها بالنشادر، ورششتها بالماء ولكنها ترقد كالميتة أخشى أن يكون ذلك أنورسما هيا بنا لقد مات والدها بالأنورسما .

كان كيرى لوف يصغي إليه صامتاً، وبدا وكأنه لا يفهم الروسية وعندما ذكر أبوجين مرة أخرى بابتشينسكى ووالد زوجته، وراح من جديد يبحث في الظلام عن يد الدكتور، هز هذا رأسه وقال بتبلد وهو يمط كل كلمة :

-عفواً، أنا لا أستطيع أن أذهب منذ خمس دقائق مات ابنى فهمس أبوجين وهو يتراجع خطوة كيف؟ يا إلهي، في أية ساعة مشؤومة جئت يا له من يوم منحوس منحوس بصورة غريبة ما هذا التوافق كأنما عن عمد .

أمسك أبوجين بمقبض الباب وطأطأ رأسه متفكراً ويبدو أنه كان متردداً ولا يدري ماذا يفعل: هل ينصرف أم يواصل الإلحاح على الدكتور ثم قال بحرارة وهو يشد كيريلوف من ذراعه :

-اسمع، إنني أفهم حالتك تماماً ويشهد الله كم أخجل وأنا أسعى في هذه اللحظات إلى الاستحواذ على اهتمامك ، ولكن ماذا أفعل؟ احكم بنفسك إلى من أستطيع أن أتوجه؟ ليس هنا طبيب غيرك أتوسل إليك أن تأتي معي أنا لا أطلب شيئا لنفسي لست أنا المريض .

وساد الصمت استدار كيريلوف مولياً ظهره إلى أبوجين، ووقف قليلاً، ثم خرج ببطء من المدخل إلى الصالة وبدا من مشيته الآلية غير الواثقة، ومن الاهتمام الذي سوى به الأباجورة الكثة على المصباح المنطفي في الصالة والذي قلب به صفحات كتاب سميك ملقى على الطاولة، أنه لم تكن لديه في هذه اللحظة أية نوايا أو رغبات، ولم يكن يفكر في شيء، وربما لم يعد يذكر أن هناك شخصاً غريباً ينتظر في المدخل ويبدو أن عتمة الصالة وسكونها قد زادا من ذهوله .

وعندما سار من الصالة إلى غرفة مكتبه كان يرفع قدمه اليمنى أعلى مما ينبغي، ويبحث بيديه عن قوائم الأبواب، وفي تلك اللحظة أفصحت هيئته كلها عن نوع من الحيرة وكأنما دخل شقة غريبة ، أو أنه سكر بشدة لأول مرة في حياته فاستسلم في حيرة لهذا الإحساس الجديد

وعلى أحد جدران غرفة المكتب، وعبر خزانات الكتب امتد شريط ضوء عريض وكان هذا الضوء قادماً مع رائحة الكربوليك والأثير الثقيلة الخانقة من الباب الموارب المفضي من المكتب إلى غرفة النوم وغاص الدكتور في الكرسي أمام الطاولة ونظر بعينين ناعستين إلى كتبه المضاءة حوالي دقيقة، ثم نهض ومضى إلى غرفة النوم وهنا، في غرفة النوم، أطبق سكون الموت كان كل شيء، بأدق تفصيلاته، يدل بجلاء على العاصفة التي مرت منذ قليل، وعلى الإرهاق، ثم أخلد كل شيء الآن إلى الراحة وأضاءت الغرفة بسطوع الشمعة الموضوعة على الكرسي في زحمة القوارير والعلب والبرطمانات، والمصباح الكبير على الكمودينو وعلى السرير.

بجوار النافذة مباشرة، تمدد الصبي بعينين مفتوحتين وتعبير دهشة على وجهه كان ساكناً بلا حراك، ولكن بدا أن عينيه المفتوحتين تظلمان أكثر مع كل لحظة وتغوصان داخل الجمجمة وجثت أمه على ركبتيها أمام السرير وقد وضعت يديها على جسده ودفنت وجهها في طيات الفراش كانت مثل الصبى ساكنة ، ولكن أية حركة حية تجلت في ثنايا جسدها وفي ذراعيها كانت ملتصقة بالسرير بكل كيانها، وبقوة ونهم، كأنما كانت تخشى أن تتحرك فتخل بهذا الوضع الساكن المريح الذي وجدته أخيراً لجسدها المنهك كان كل شيء جامداً البطاطين، والخرق، الطسوت، وبرك المياه على الأرضية، والفرش والملاعق المتناثرة في كل مكان، وزجاجة المحلول الجيرى البيضاء، والهواء نفسه، الخانق الثقيل وبدا كل ذلك غارقاً في السكينة.

توقف الدكتور بجوار زوجته، ودس يديه في جيبى سرواله وأمال رأسه جانبا وحدق في ابنه وكان وجهه يعبر عن اللامبالاة، ومن القطرات الدقيقة فحسب التي كانت تلمع في لحيته كان واضحاً أنه بكى منذ قليل .

لم يكن في الغرفة ذلك الرعب الذي يراود الذهن عند الحديث عن الموت ففي ذلك الجمود الشامل، وفي وضع الأم، وفي لامبالاة وجه الدكتور كان ثمة شيء جذاب، يأسر القلب، وهو بالذات ذلك الجمال المرهف الذي لا يكاد يلحظ للمأساة الإنسانية، ذلك الجمال الذي لن يعرف الناس قريباً كيف يفهمونه ويصفونه، والذي لا يحسن التعبير عنه ،فيما يبدو، سوى الموسيقى وكان هذا الجمال ملموساً أيضاً في السكون الجهم وكان كيريلوف وزوجته صامتين، لا يبكيان كأنما يدركان، إلى جانب وطأة المصاب، كل وجدان وضعهما ؛ فكما انقضى شبابهما في حين ما، يمضى الآن، مع رحيل ولدهما، إلى الأبد وبلا رجعة حقهما في إنجاب الأطفال فالدكتور في الرابعة والأربعين، وقد شاب شعره وأصبح أشبه بالعجوز

وعلى عكس زوجته كان الدكتور ينتمي إلى ذلك الطراز من الشخصيات التي تشعر في حالة الألم النفسي بالحاجة إلى الحركة فبعد أن وقف بجوار زوجته حوالي خمس دقائق، خرج من غرفة النوم وهو يرفع قدمه اليمنى عالياً، ودلف إلى غرفة صغيرة تشغل نصفها كنبة كبيرة عريضة ومنها انتقل إلى المطبخ وتسكع قليلاً بجوار الفرن وفراش الطاهية ، ثم انحنى وخرج من باب صغير إلى المدخل .

وهنا رأي ثانية الملحفة البيضاء والوجه الشاحب وتنهد أبوجين وهو يمسك بمقبض الباب وقال - :أخيراً فلنرحل لو سمحت ؟ انتفض الدكتور، ثم تطلع إليه فتذكر وقال له وهو يستعيد حيويته : - اسمع، لقد قلت لك إنني لا أستطيع الذهاب ما أغرب هذا فقال أبوجين بصوت ضارع واضعاً يده على صدره :

-يا دكتور، أنا لست بليد الإحساس، وأقدر وضعك تماماً كم آسى لك لكني لا أطلب شيئاً لنفسي زوجتي تحتضر لو أنك سمعت تلك الصرخة ورأيت وجهها، لأدركت سبب إلحاحي يا إلهي، لقد ظننت أنك ذهبت لترتدي ثيابك الوقت ضيق يا دكتور فلنذهب أرجوك .فقال كيريلوف ببطء - :لا أستطيع أن أذهب ؟ وخطا نحو الصالة ومضى أبوجين في أثره وأمسك بكمه .

-لديك فجيعة، أنا أدرك ذلك، ولكني لا أدعوك لعلاج أسنان ولا الوضع تقرير فني، بل لإنقاذ حياة بشرية - ومضى يتوسل إليه كالشحاذ. هذه الحياة فوق أية فجيعة شخصية حسناً، إنني أسألك النخوة، أسألك بطولة باسم المحبة الإنسانية قال كيريلوف بعصبية :

-المحبة الإنسانية سكين ذو حدين وباسم المحبة الإنسانية نفسها أرجوك أن تتركنى حقا شيء غريب أنا لا أكاد أقوى على الوقوف بينما تخوفني بالمحبة الإنسانية أنا لا أصلح لشيء الآن لن أذهب مهما كان ، وكيف أترك زوجتي؟ لمن؟ كلا، كلا .

ولوح كيريلوف بيديه وعاد أدراجه ومضى يقول بفزع :

-لا لا تطلب اعذرني نعم، حسب المجلد الثالث عشر لمجموعة القوانين يجب على أن أرحل معك، ومن حقك أن تجرجرنى من قفاى هيا، تفضل جرجرنى، ولكن أنا غير صالح لا أقدر حتى على الكلام أعذرني .

فقال أبوجين وهو يمسك الدكتور من كمه ثانية :

لا داعي لأن تتحدث معي بهذه اللهجة يا دكتور دعنا من هذا المجلد الثالث عشر ليس من حقى أبداً أن أجبرك على شيء إذا شئت أن ترحل فلترحل، وإذا لم تشأ سامحك الله . لكني لا أخاطب إرادتك بل أخاطب مشاعرك هناك امرأة شابة تحتضر لقد قلت إن ابنك مات الآن، فمن غيرك يستطيع أن يفهم بلواى؟.

كان صوت أبوجين يرتعش من الانفعال وكان في هذه الرعشة وفي نبرة الصوت من قوة الإقناع أكثر مما في كلماته كان أبوجين صادقاً، ولكن الملفت للانتباه أنه مهما قال من عبارات ، فقد كانت كلها تبدو جوفاء، بلا نبض، أو زاهية بصورة لا تليق وكأنما تهين جو شقة الدكتور والمرأة المحتضرة بعيداً وحتى هو أحس بذلك ، ولهذا فقد حاول بكل قواه ، خشية ألا يفهم، أن يضفي على صوته نعومة ورقة كي يؤثر في الطبيب إن لم يكن بالكلمات، فبصدق النبرة على الأقل

وعموماً فالكلمات مهما كانت جميلة وعميقة فإنها لا تؤثر إلا في ذوي النفوس اللامبالية ولا تستطيع دائماً أن ترضى السعداء أو التعساء ويبدو أن أسمي تعبير عن السعادة أو التعاسة هو في أغلب الأحوال الصمت فالعشاق يفهمون بعضهم بعضاً عندما يصمتون، أما الخطبة الحارة المشبوبة الملقاة على القبر فلا تؤثر إلا في الغرباء، بينما تبدو لأرملة المتوفي وأولاده باردة تافهة .

وقف كيريلوف صامتاً وعندما تفوه أبوجين ببضع عبارات أخرى عن رسالة الطبيب السامية، وعن التضحية بالنفس وما إلى ذلك، سأله الطبيب عابساً :

هل المسافة بعيدة؟ .

حوالي ١٤ - ١٣فرسخاً خيولى ممتازة يا دكتور أعدك بشرفي أن أحملك إلى هناك وأعود بك في ساعة واحدة ساعة واحدة فقط.

أثرت الكلمات الأخيرة على الدكتور بأقوى من الاستشهاد بمحبة البشر ورسالة الطبيب ففكر قليلاً ثم قال متنهداً :حسنا، لنذهب .

ومضى نحو مكتبه بسرعة، بخطوة أصبحت واثقة، ثم عاد بعد قليل في سترة طويلة وساعده أبوجين المسرور وهو يدور حوله ويحك الأرض بقدميه على ارتداء المعطف وخرج معه من البيت .

كان الجو في الخارج مظلماً وإن كان أخف ظلمة من المدخل وبدت في الظلام بوضوح قامة الدكتور الطويلة المحنية بلحيته الطويلة الضيقة وأنفه المعقوف أما أبوجين، فقد أصبح ظاهراً منه الآن، بخلاف شحوبه، رأسه الكبير وعليه طاقية طلابية صغيرة لا تكاد تغطى يافوخه وكانت الملحفة تلوح من الأمام فقط، أما من الخلف فقد اختفت خلف شعره المرسل ودمدم أبوجين وهو يساعد الدكتور على ركوب العربة :

-ثق يا دكتور أنني سأعرف كيف أقدر شهامتك سنصل بسرعة هيا يا لوقا، يا عزيزى، انطلق بأسرع ما يمكن أرجوك .

وساق الحوذي العربة بسرعة ساروا في البداية بحذاء صف من المباني البائسة على امتداد فناء المستشفى، وساد الظلام إلا في عمق الفناء، حيث انبعث ضوء ساطع من إحدى النوافذ عبر الحديقة، ولاحت ثلاث نوافذ في الطابق الأعلى من مبنى المستشفى أكثر شحوباً من الجو ثم دلفت العربة في ظلام كثيف، وفاحت رائحة رطوبة فطرية وتناهى همس الأشجار وجفلت الغربان النائمة وسط أوراق الشجر وقد أيقظها ضجيج العجلات وأطلقت نعيقاً شاكياً قلقاً، كأنما كانت تعلم أن الدكتور قد مات ابنه وأن أبوجين زوجته مريضة ثم ومضت أشجار متفرقة ثم حرش، وتلألأت بركة جهمة ارتمت فوقها ظلال طويلة سوداء، وانسابت العربة في سهل منبسط وتناهي نعيق الغربان مكتوماً بعيداً من ورائهم، ثم سرعان ما تلاشى تماماً

ظل كيريلوف وأبوجين صامتين طوال الوقت مرة واحدة تنهد أبوجين بعمق وتمتم :

- يا له من عذاب إنك لا تحب أقرباءك إلى هذه الدرجة إلا عندما تواجه بخطر فقدانهم وعندما عبرت العربة النهر بهدوء انتفض كيريلوف كأنما أفزعته طرطشة الماء وتململ بقلق ثم قال بأسى :

-اسمع، اتركني أرجوك سآتي إليك فيما بعد أريد فقط أن أرسل الممرض إلى زوجتي إنها وحدها.

لزم أبوجين الصمت ومرت العربة فوق الشاطئ الرملي وهي تهتز وتصطك بالأحجار، ثم واصلت سيرها واستبدت الوحشة بكيريلوف فنظر حوله بقلق على ضوء النجوم الشحيح لاح من خلفهم الطريق وصفصاف الشاطئ المتلاشي في الظلام وإلى اليمين ترامى سهل منبسط بلا حدود كالسماء أيضاً وفي أطرافه البعيدة تناثرت أضواء كابية هنا وهناك ربما من غازات مستنقعات تحترق وإلى اليسار، بحذاء الطريق، امتد تل مدغل بالأحراش الخفيفة، وفوق التل انتصب بلا حراك هلال كبير أحمر، تلفه غلالة ضبابية رقيقة، وتحيط به سحب صغيرة، بدت كأنها ترقبه من جميع الجهات وتحرسه كي لا يغيب.

ولاح في الطبيعة كلها شيء ما ميئوس منه ومريض وكابدت الأرض، مثل امرأة ساقطة تجلس وحدها في غرفة مظلمة وتحاول ألا تفكر في الماضي، كابدت ضني ذكريات الربيع والصيف، وأخذت تنتظر في فتور وتبلد مجيء الشتاء المحتم وحيثما جال البصر تبدت الطبيعة حفرة مظلمة سحيقة الأغوار وباردة، حفرة لن يستطيع الخروج منها لا كيريلوف، ولا أبوجين، ولا الهلال الأحمر وكلما اقتربت العربة من الهدف ازداد فروغ صبر أبوجين كان يتململ، ويقفز واقفاً، وينظر إلى الأمام من فوق كتفي الحوذي وحينما توقفت العربة أخيراً عند سلم المدخل المغطى بكسوة مخططة جميلة ، وعندما نظر إلى النوافذ المضاءة في الطابق الثاني، أصبح مسموعاً اضطراب أنفاسه وقال وهو يدخل مع الدكتور إلى الردهة ويفرك راحتيه بانفعال .

-لو حدث لها شيء فلن أحتمل - ثم أضاف وهو يصيخ السمع إلى السكون : - ولكني لا أسمع جلبة، إذن فالأمور على ما يرام حتى الآن لم تسمع في الردهة أصوات أو وقع أقدام، وبدا البيت كله نائماً رغم الأنوار الساطعة وأصبح الآن في وسع الدكتور وأبوجين، اللذين لم يريا بعضهما البعض إلا في الظلام، أن يتأمل كل منهما الآخر كان الدكتور طويلاً، محنى القامة ، مهمل الثياب، ولم يك جميل الوجه، وكان شفتاه الغليظتان كشفاة الزنوج، وأنفه المعقوف، ونظرته الذابلة اللامبالية تعبر عن شيء حاد منفر وقاس

وكان رأسه المشعث، بصدغيه الغائرين، والشيب المبكر في لحيته الطويلة الضيقة، التي كان ذقنه يلوح من بين شعرها، ولون بشرته الرمادى الشاحب، وحركاته الخرقاء الحادة كان كل ذلك يبعث بغلظته على الاعتقاد بأنه عاني من الفاقة والبؤس، وأرهقته الحياة والناس ولم يكن من الممكن أن تصدق، عندما تنظر إلى قامته الجافة ، أن لدى رجل كهذا زوجة، وأنه يمكن أن يبكي على ابنه المتوفي أما أبوجين فكان شيئا آخر كان رجلاً متين الجسم، رصينا، أشقر، كبير الرأس، وكانت تقاطيع وجهه ضخمة ولكنها ناعمة، ولباسه أنيق حسب آخر موضة ولاح في قامته، وفي سترته المزررة المحبوكة، وفي عرفة المسدل، وفي وجهه ، شيء ما نبيل كما في الأسود وكان يسير منتصب الرأس، منفوخ الصدر، ويتحدث بنغمة باريتون لطيفة، وتجلت في الطريقة التي نزع بها ملحفته وسوى بها شعر رأسه رشاقة مرهفة، نسائية تقريباً وحتى شحوبه، والذعر الطفولى الذي كان يتطلع به إلى أعلى الدرج وهو يخلع ملابسه الثقيلة، لم يفسدا هيئته ، ولم ينتقصا من الشبع والصحة والثقة التي كان جسمه يطفح بها وقال وهو يصعد الدرج: - ليس هناك أحد ولا أسمع شيئاً ليس هناك جلبة استر يا رب .

وقاد الدكتور من الردهة إلى صالة كبيرة لاح فيها معزف أسود وتدلت من سقفها نجفة ملفوفة في كيس أبيض ومن هنا دلفا معاً إلى غرفة جلوس صغيرة ولكنها مريحة جداً وجميلة ومعبأة بعتمة وردية لطيفة.

وقال أبوجين : - اجلس هنا يا دكتور سأعود حالاً سأذهب لأنظر وأنبههم وبقى كيريلوف وحده ويبدو أن فخامة غرفة الجلوس والعنمة المريحة، ووجوده هو نفسه في بيت غريب وغير معروف، هذا الوجود الذي كان أشبه بمغامرة، كل ذلك لم يحرك فيه شيئاً جلس في المقعد وأخذ يتأمل يديه اللتين كواهما حامض الكربوليك ولمح أباجورة قانية الحمرة، وصندوق فيولنشيلو، ونظر بطرف عينه إلى الجهة التي كانت تصدر منها تكتكة ساعة فلاحظ ذئباً محنطاً، وكان مهيباً وشبعان مثل أبوجين نفسه .

ساد الهدوء وفي مكان ما، في الغرف المجاورة صاح أحدهم بصوت عال آه، ورن باب زجاجي، وربما باب صوان، ثم هدأ كل شيء ثانية وانتظر كيريلوف حوالي خمس دقائق، ثم كف عن تأمل يديه ، ورفع عينيه إلى الباب الذي اختفى أبوجين خلفه .

عند عتبة ذلك الباب وقف أبوجين، ولكن كان أبوجين آخر اختفت من وجهه دلائل الشبع والرشاقة المرهفة، وشوه وجهه ويديه ووقفته تعبير بشع لا يعرف إن كان من الرعب أم من الألم البدني المضني كان أنفه وشفتاه وشواربه وكل ملامحه تتحرك، وبدا كأنها تريد أن تنفصل عن وجهه، أما عيناه فكأنما كانتا تضحكان ألما وتقدم أبوجين بخطوات ثقيلة واسعة إلى وسط الغرفة، وانحنى وتأوه وهز قبضتيه .

-خدعتني صاح مشدداً على آخر الكلمة خدعتني هربت ادعت المرض وأرسلتني في طلب الدكتور فقط لكي تهرب مع هذا المهرج بابتشينسكي يا إلهى .

اقترب أبوجين من الدكتور بخطوات ثقيلة، ومد نحو وجهه قبضتيه البيضاوين الطريتين وهو يهزهما، ومضى يقول :

-هربت خدعتني فما الداعي لهذا الكذب؟ يا إلهى يا إلهى ما الداعي لهذا التحايل القذر، لهذه التمثيلية الشيطانية الأفعوانية؟ ماذا فعلت لها؟ هربت

وطفرت الدموع من عينيه ودار على قدم واحدة، ومضى يذرع الغرفة أصبح الآن، بسترته القصيرة، وسرواله العصري الضيق الذي بدت فيه ساقاه نحيلتين بما لا يتفق مع جسمه، وبرأسه الكبير وعرفه، أصبح شبيهاً بالأسد إلى حد كبير وأشرق وجه الدكتور اللامبالى بفضول فنهض وطاف على أبوجين بعينيه. وسأله :عفوا، ولكن أين المريضة؟ .

-المريضة المريضة صرخ وهو يضحك ويبكى ويواصل هز قبضتيه هذه ليست مريضة بل ملعونة يا للدناءة يا للوضاعة الشيطان نفسه لا يمكن أن يهتدي إلى شيء أحط من ذلك أبعدتني لكي تهرب، تهرب مع مهرج، مع بهلوان بليد، مع عاهر يا إلهي، كان أفضل لو ماتت لن أحتمل أنا لن أحتمل شد الدكتور قامته وطرفت عيناه وامتلأتا بالدموع، وتحركت لحيته الضيقة يميناً ويساراً ، مع فكه

وسأل وهو يتلفت حوله بفضول :

عفواً، كيف هذا؟ ابنى مات، وزوجتي تعاني الفجيعة، وحيدة في البيت وأنا لا أكاد أقوى على الوقوف، لم أنم ثلاث ليال ثم ماذا؟ يضطرونني إلى اللعب في كوميديا مبتذلة ، لعب دور الديكور أنا أنا لا أفهم .

بسط أبوجين إحدى قبضتيه وقذف على الأرض برسالة مجعدة وداس عليها بقدميه كما يداس على حشرة بغية سحقها وقال من بين أسنانه المطبقة وهو يهز إحدى قبضتيه أمام وجهه وبتعبير شخص داس أحدهم على إصبع قدمه المريضة :

-وأنا لم أر شيئا لم أفهم لم ألاحظ أنه يزورنا كل يوم لم ألاحظ أنه جاء اليوم في عربة لماذا جاء في عربة؟ لم أفطن، يا لى من زكيبة ودمدم الدكتور :

-لا أفهم ما معنى هذا؟ هذه سخرية بالناس، امتهان للعذاب الإنساني هذا شيء لا يعقل أول مرة في حياتي أرى هذا .

هز الدكتور كتفيه وأشاح بيديه بدهشة متبلدة لإنسان بدأ يفهم لتوه فقط أنه أهين إهانة بالغة، وهو لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل، فتهالك على المقعد بإعياء ومضى أبوجين يقول بصوت باك :لنفرض أنك لم تعودي تحبينني وأحببت شخصا آخر، لك الله، ولكن ما الداعي للخداع، ما الداعي لهذه الحيلة الدنيئة الغادرة؟ ما الداعى؟ وعلام؟ ماذا فعلت لك؟

اسمع يا دكتور، قال بحرارة وهو يقترب من كيريلوف لقد كنت بالصدفة شاهداً على بلواى ولن أخفى عنك الحقيقة أقسم لك أنني أحببت هذه المرأة، أحببتها بخنوع كالعبد من أجلها ضحيت بكل شيء: تخاصمت مع أهلى، هجرت الوظيفة والموسيقى، وغفرت لها مالم أكن أستطيع أن أغفره حتى لأمي أو أختى لم أنظر إليها أبداً نظرة شزرة لم يبدر عنى أي مبرر، فلماذا هذا الكذب؟ أنا لا أطالبها بالحب ولكن ما الداعي لهذا الخداع المقرف؟ إذا كنت لا تحبين فلتقولى ذلك مباشرة، بشرف، خاصة وأنت تعرفين نظرتي إلى هذه الأمور .

كان أبوجين يفضى بما في قلبه للدكتور بصدق، والدموع تملأ عينيه ، وجسده كله يرتعش كان يتكلم بحرارة، ضاماً كلتا يديه إلى قلبه ، ويفشى كل أسراره العائلية دون أدنى تردد، بل بدا وكأنه سعيد بأن هذه الأسرار قد انطلقت أخيرا لتخرج من صدره ولو أنه تكلم هكذا ساعة أو ساعتين، ولو أنه فضفض عن نفسه لأحس قطعاً بارتياح ومن يدري، فلو أن الدكتور أصغى إليه، وواساه بمودة فربما، وكما يحدث كثيراً، أذعن لبلواه دون تذمر، ودون أن يرتكب حماقات لا داعي لها ولكن الأمور سارت بشكل آخر فبينما كان أبوجين يتكلم تغير الدكتور المهان تغيراً ملحوظاً تراجعت اللامبالاة والدهشة من على وجهه شيئاً فشيئاً ليحل محلهما تعبير الإهانة المرة والسخط والغضب أصبحت ملامحه أكثر حدة وخشونة ونفوراً وعندما قرب أبوجين من عينيه صورة امرأة شابة بوجه جميل

ولكنه جاف غير معبر كوجه الراهبة، وسأله هل تستطيع بالنظر إلى هذا الوجه أن تتصور أنه يمكن أن يعبر عن الكذب ، قفز الدكتور فجأة، ولمعت عيناه ، وقال وهو يضغط على كل كلمة بخشونة :

- لماذا تقول لي كل هذا؟ أنا لا أرغب في سماعه لا أرغب - صرخ وهو يدق الطاولة بقبضته - لست بحاجة إلى أسرارك المبتذلة ، عليها اللعنة إياك أن تقول لي هذه الأشياء الوضيعة أم إنك تظن أنني لم أهن بما فيه الكفاية؟ أننى خادم يمكن إهانته بلا نهاية؟ نعم؟ .

تراجع أبوجين مبتعداً عن كيريلوف وهو يحدق فيه بذهول ومضى الدكتور يقول ولحيته تهتز لماذا جئت بي إلى هنا؟ إذا كنتم من الشبع تتزوجون، ومن الشبع تركبكم الشياطين فتختلقون الميلودرامات، فما دخلى أنا؟ مالي أنا بقصصكم الغرامية؟ دعوني وشأنى تمرنوا على المشاجرات النبيلة ، تصوروا أنكم أصحاب أفكار إنسانية ، اعزفوا ونظر الدكتور إلى صندوق الفيولنشيلو اعزفوا على الكونترباس، وعلى البوق، اسمنوا كالديوك المعلوفة، لكن إياكم والسخرية من كرامة الناس إذا لم يكن في وسعكم أن تحترموها فاعفوها على الأقل من اهتمامكم.

فسأل أبوجين وهو يتضجر: - اسمح لي، ما معنى هذا؟ .

ـ معناه أنه من الحقارة والانحطاط أن تهزأوا بالناس إلى هذه الدرجة إنني طبيب، وأنتم تعتبرون الأطباء، والعمال عموماً، الذين لا تنبعث منهم روائح العطور والدعارة، تعتبرونهم خدماً لكم وقليلي الذوق، حسناً، فلتعتبروهم كما تشاءون، لكن أحداً لم يعطكم الحق في أن تجعلوا من شخص يعانى قطعة ديكور.

-كيف تجرؤ على أن تقول لي هذا؟ ـ سأل أبوجين بصوت خافت، واحمر وجهه ثانية من الغضب في هذه المرة .

-بل كيف جرؤت أنت على المجيء بي إلى هنا، لأسمع هذه الأشياء الوضيعة، وأنت تعلم مدى فجيعتى صرخ الدكتور ودق الطاولة بقبضته ثانية من الذي أعطاك الحق في السخرية من آلام الآخرين إلى هذا الحد؟ .

فصرخ أبوجين ـ :أنت جننت ليس هذا كرم أخلاق أنا نفسي تعيس جداً فضحك الدكتور ضحكة احتقار قصيرة وقال :

-تعيس دع هذه الكلمة فهي لا تخصك فالعاطلون الذين لا يجدون ما يسددون به كمبيالاتهم يعتبرون أنفسهم أيضاً تعساء والديك المعلوف، الذي يخنقه الدهن، أيضاً تعيس يا للنفوس الحقيرة .

فصرخ أبوجين محتداً قف عند حدك يا سيد مثل هذه الكلمات تستوجب الضرب فاهم؟ .

ودس أبوجين يده في جيبه بسرعة، وأخرج منه محفظته، واستل منها ورقتين ماليتين وألقى بهما على المائدة وقال ومنخاراه يرتعشان : خذ، هذه أتعابك فصاح الدكتور وهو يكنس النقود بيده من فوق الطاولة إلى الأرض - :إياك أن تعرض على نقوداً الإهانة لا يدفع ثمنها نقوداً .

وقف أبوجين والدكتور وجهاً لوجه، وأخذا في سورة الغضب يكيلان بعضهما للبعض الإهانات الباطلة ويبدو أنهما لم يتفوها في حياتهما أبداً، ولا حتى في الهذيان، بمثل هذه الكلمات الظالمة والقاسية والخرقاء لقد تكشفت في كل منهما بقوة أنانية التعساء فالتعساء أنانيون، شريرون، ظالمون، قساة، وأقل من الحمقى قدرة على فهم بعضهم بعضاً التعاسة لا تجمع بين الناس بل تفرقهم، وحتى في تلك الأحوال التي قد يخيل لك فيها أن تشابه البلوي ينبغي أن يربط بين الناس، يرتكب من المظالم والشرور أكثر بكثير مما في أوساط الهانئين نسبياً .

وصاح الدكتور وهو يختنق : - لتأمر بتوصيلي إلى البيت

فقرع أبوجين الجرس بحدة وعندما لم يأت أحد تلبية لطلبه قرع الجرس مرة ثانية ثم ألقى به على الأرض في غضب وارتطم الجرس بالبساط بصوت مكتوم وصدر عنه أنين شاك كأنما لفظ آخر أنفاسه وجاء الخادم فانفجر فيه أبوجين وهو يشد قبضتيه :

-أين اختفيتم أيها الملاعين ؟ أين كنت الآن؟ امش من هنا وقل لهم أن يعدوا العربة لهذا السيد ويعدو الي الحنطور وصاح عندما استدار الخادم لينصرف. - انتظر إياك أن يبقى إلى الغد أي واحد من الخونة في البيت كلكم مطرودون سأستأجر غيركم أيها الأوغاد <

لزم أبوجين والدكتور الصمت في انتظار العربات وعادت إلى الأول مظاهر الشبع والرشاقة الرهيفة وأخذ يذرع غرفة الجلوس وهو يهز رأسه برشاقة ويدبر، فيما يبدو، أمراً ما لم تخمد سورة غضبه بعد، ولكنه حاول أن يبدو كأنه لا يلاحظ عدوه أما الدكتور فكان واقفاً، مرتكزا بإحدى يديه على حافة الطاولة وهو ينظر إلى أبوجين بذلك الاحتقار العميق الوقح بعض الشيء والقبيح، الذي لا ينظر به سوى الفاجعة والبؤس عندما يريان امامهما الشبع والرفاهية.

وفيما بعد، عندما استقل الدكتور العربة ورحل، ظلت عيناه تنظران بنفس الاحتقار كان الجو مظلماً، أشد ظلاماً بكثير مما كان منذ ساعة واختفى الهلال الأحمر خلف تل، وانتشرت السحب التي كانت تحرسه واستقرت بجوار النجوم بقعاً داكنة ودق الحنطور ذو الفوانيس الحمراء بعجلاته على الطريق ولحق بالدكتور وسبقه كان يركبه أبوجين الذي رحل ليحتج ويرتكب حماقات ما .

وظل الدكتور طوال الطريق يفكر لا في زوجته ولا في ابنه أندريه، بل في أبوجين وسكان البيت الذي تركه منذ قليل وكانت أفكاره ظالمة وقاسية بصورة لا إنسانية كان في تفكيره يدين أبوجين وزوجته وبابتشينسكي وكل من يعيشون في العتمة الوردية ويتضوعون عطراً، وظل طوال الوقت يمقتهم ويحتقرهم إلى حد الألم في القلب واستقر في ذهنه اعتقاد راسخ حول هؤلاء الأشخاص وسوف يمر الزمن، وسوف تمر فجيعة كيريلوف، بيد أن هذا الاعتقاد الظالم، غير الجدير بالقلوب البشرية لن يزول، وسيبقى في ذهن الدكتور حتى الممات .

الفهرس